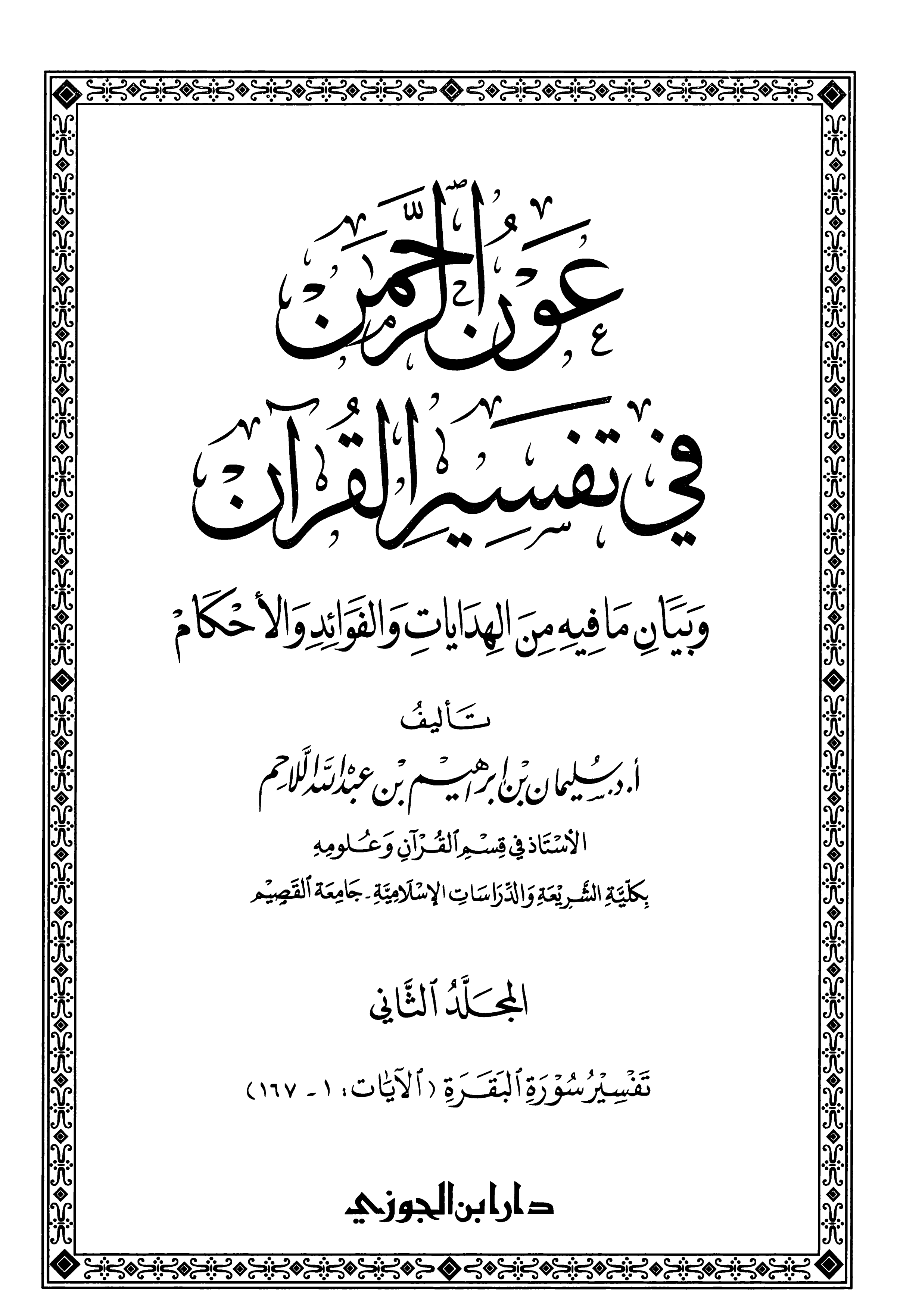


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

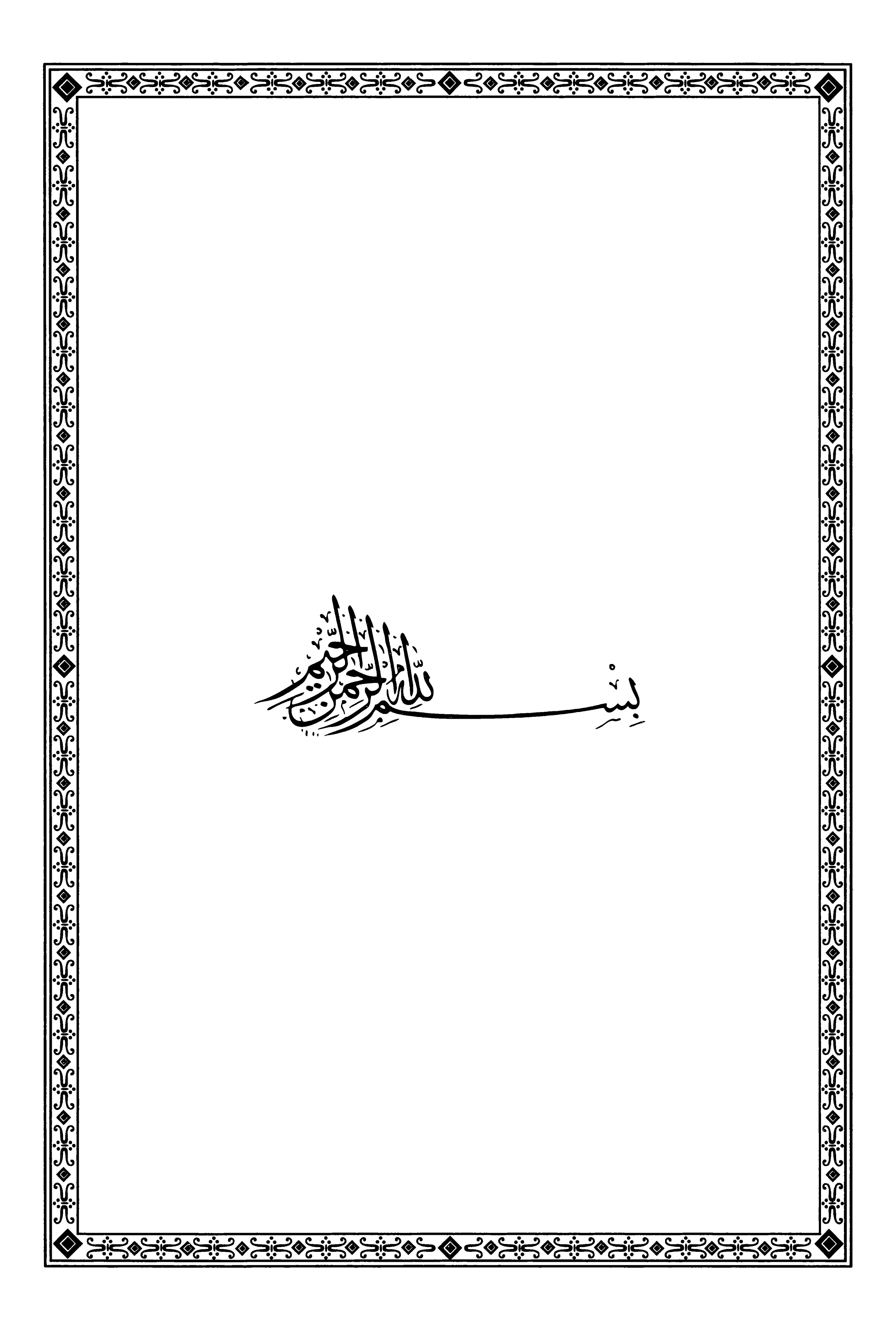
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

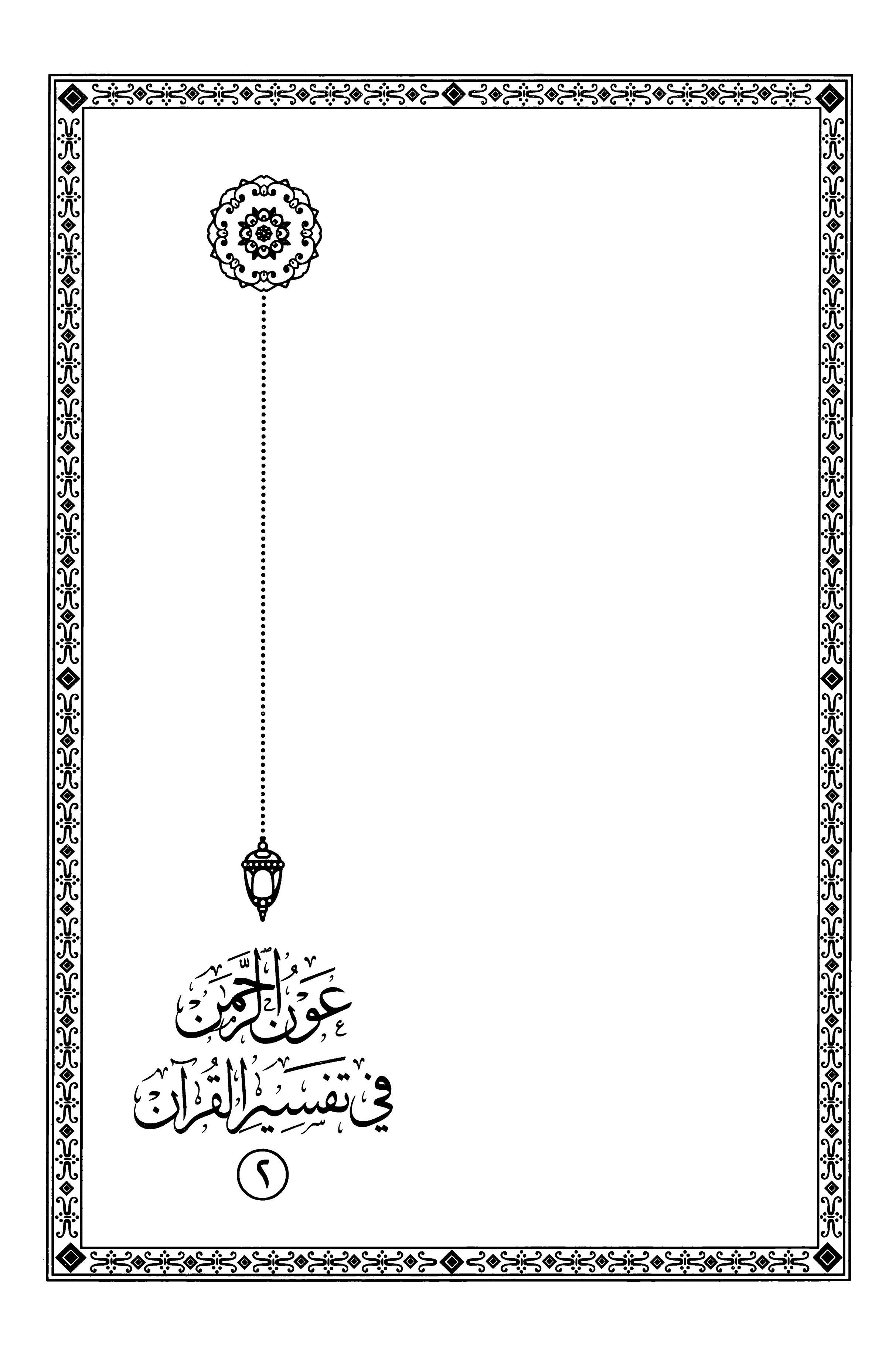
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني

تفسير سورة البقرة (الآيات: ١ - ١٦٧)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
٢





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

ⓗ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٦٢١ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

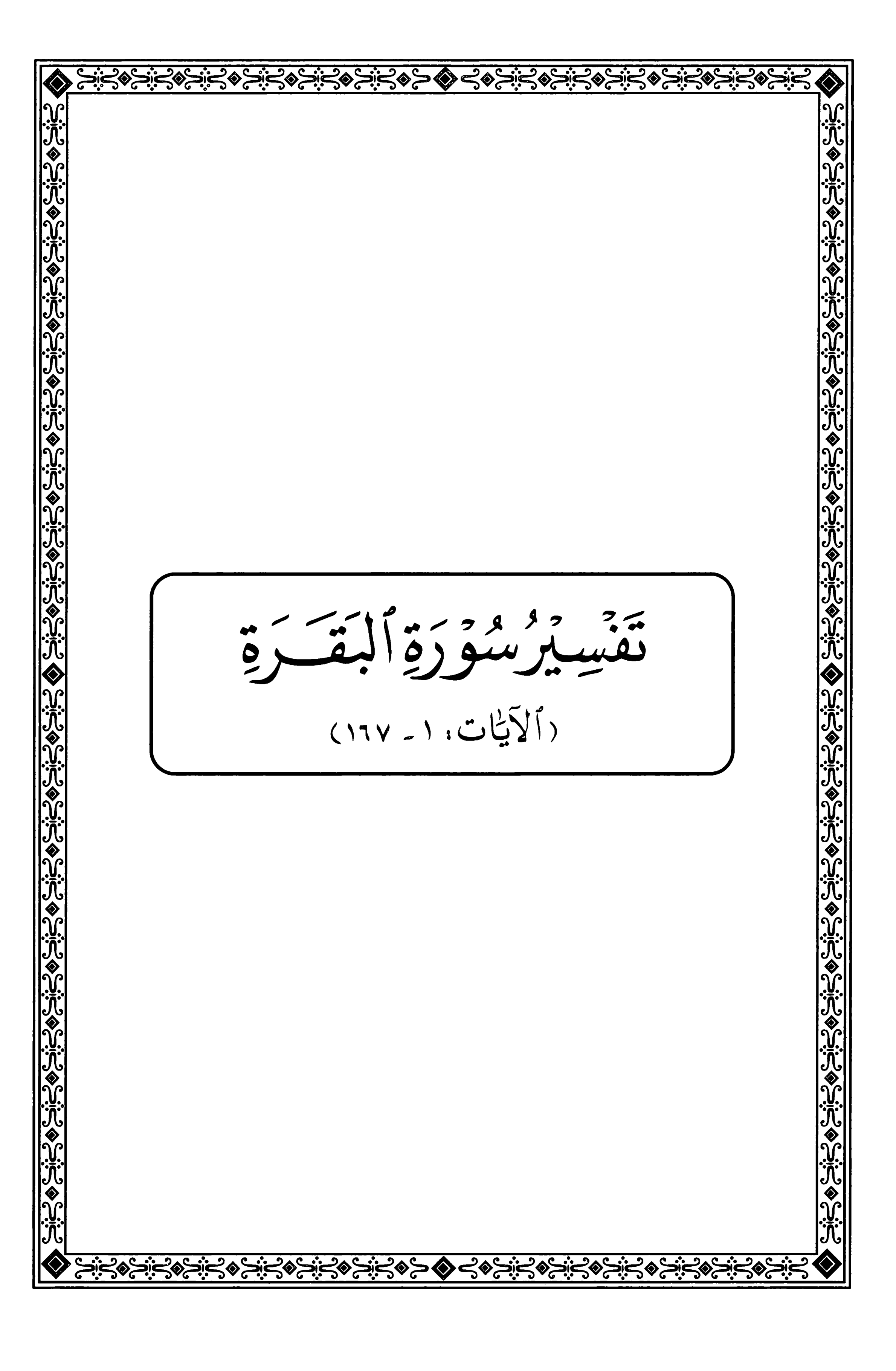
aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

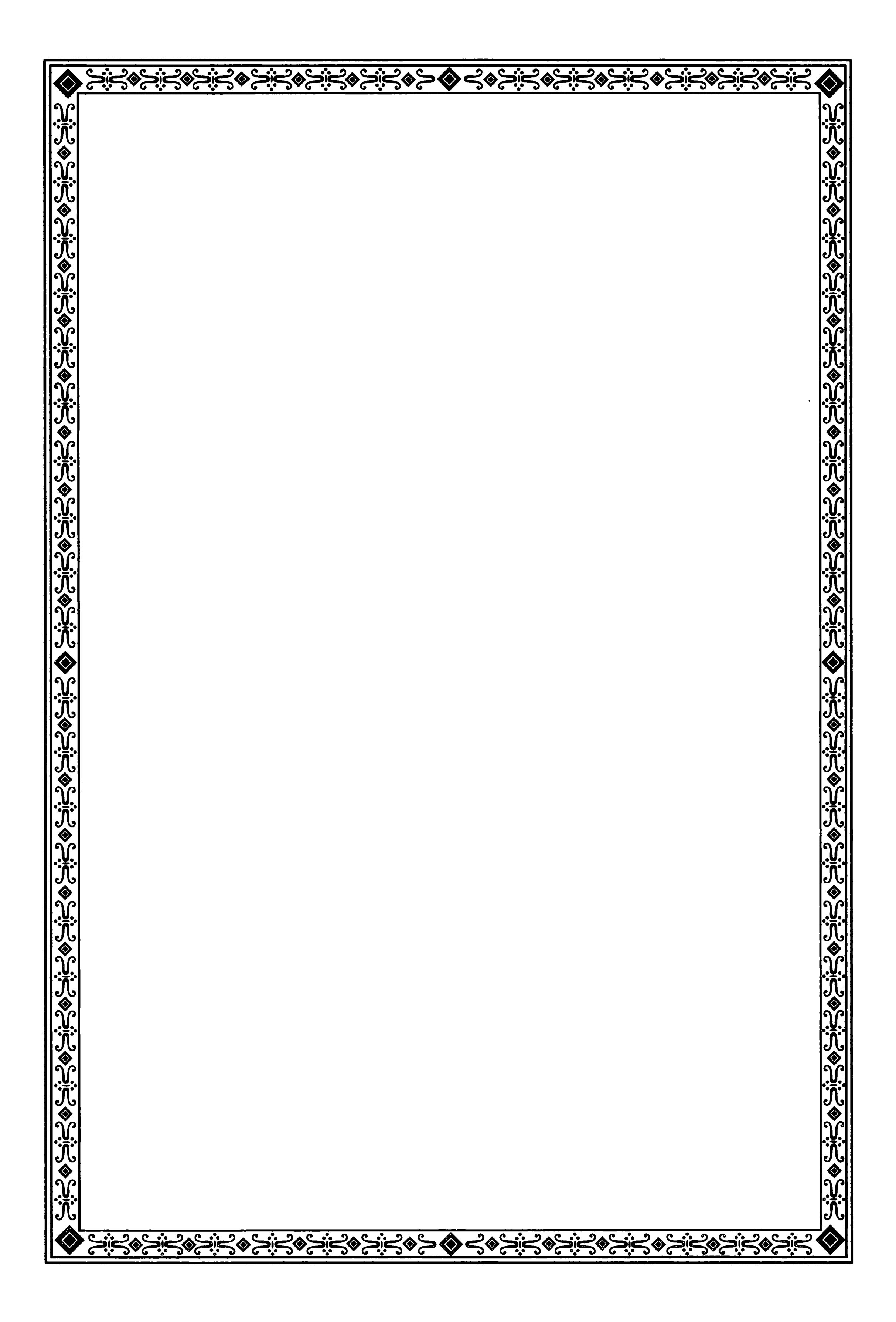
eljawzi

aljawzi.net



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلبَقَرَةِ

(ٱلآيَات: ١ ـ ١٦٧)



المقدمـــة

أ -اسـم السـورة:

سميت «سورة البقرة» بهذا الاسم؛ لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التي أمر الله قوم موسى- عليه السلام- بذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [الآية: ٦٧]، والآيات بعدها.

وتسمى سورة الزهراء، كما في الحديث: «**اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران**»[١].

ب -مكان نزولها:

سورة البقرة مدنية بالإجماع. نزل معظمها في السنوات الأولى من الهجرة، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبي ﷺ، وكان آخر آية نزلت منها ومن القرآن كله هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٨١].

جـ -مناسبتها لسورة الفاتحة:

سورة الفاتحة اشتملت على مجمل معاني القرآن ومقاصده من أنواع التوحيد، وحمد الله وتمجيده والثناء عليه، وإفراده بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية، وتقسيم الناس إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. وقد جاءت سورة البقرة بل والقرآن كله بتفصيل هذه المعاني والمقاصد.

د -فضلهـا:

وردت عدة أحاديث وآثار في فضل سورة البقرة منها ما يلي:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»[٢]. وفي رواية: «**فإنَّ البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان**»[٣].

---

(١) سيأتي تخريجه كاملًا.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٠).

(٣) أخرجها الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «بعث ﷺ بعثًا، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال: ما معك يا فلان، فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم. قال: اذهب فأنت أميرهم»[(١)].

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**»[(٢)].

وعن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد. قال: «**كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حِزْقَان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما**»[(٣)].

وعن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ- رضي الله عنه- أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإن فيهن الفرائض»[(٤)].

قال القرطبي[(٥)]: «وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها: فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها».

وقد وردت أحاديث صحيحة في فضل آيات منها بخصوصها؛ منها: آية الكرسي، وأنها أعظم آية في كتاب الله، ومنها الآيتان الأخيرتان منها، وسيأتي ذكر هذه الأحاديث

---

(١) أخرجه الترمذي في «فضائل القرآن» (٢٨٧٦).
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٤).
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٥) والترمذي في «فضائل القرآن» (٢٨٨٣).
(٤) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير (٢/ ٣٩٥)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.
(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٥٢).

في الكلام عليها في آخر السورة.

هـ -موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه، وبيان صحته، وصدقه وسلامته من الريب، وما اشتمل عليه من الهدى، والتحدي به، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية، ١، ٢].

٢- ذكر انقسام الناس تجاه هداية القرآن الكريم إلى أقسام ثلاثة:

(أ) المتقون المهتدون بالقرآن الذين يؤمنون بالغيب وأصول الإيمان ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله، ويؤمنون بما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله الذين هم على هدى من ربهم وهم المفلحون.

(ب) الذين كفروا باطنًا وظاهرًا، وختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ولهم عذاب عظيم.

(جـ) المنافقون الذين يظهرون الإيمان مخادعة وهم في الباطن غير مؤمنين، بل جمعوا بين الكفر والمخادعة ومرض القلوب والإفساد في الأرض وغير ذلك من الصفات الذميمة، وهم أسوأ حالًا ومآلًا من الكفار صراحة؛ ولهذا توعدهم الله بالعذاب الأليم، وضرب لهم أسوأ الأمثلة في حالهم ومآلهم.

٣- دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وإقامة الأدلة والبراهين على وجوب عبادته- عز وجل- وحده دون سواه، والنهي عن الشرك والتحذير من النار.

٤- بشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنات، وما فيها من الرزق وأصناف الثمار، والأزواج، والخلود في النعيم.

٥- بيان أنه- عز وجل- لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها، وذلك لما في ضرب الأمثال من البيان يهتدي بها المؤمنون، ويعقلها العالمون، ويضل بها الكافرون، ويتنكر لها الجاهلون.

٦- توبيخ الذين كفروا بالله وتقريعهم على كفرهم، مع قيام الأدلة ووضوحها، في أنفسهم، وفي الآفاق- على وجوب الإيمان به تعالى ووحدانيته.

٧- ذكر قصة استخلاف آدم في الأرض وما حصل من الملائكة من استفسار بشأن ذلك، وسجود الملائكة لآدم، وإسكانه وزوجه الجنة، ومن ثم إخراجهما منها بسبب معصيتهما بالأكل من الشجرة وتوبة الله تعالى عليهما وإهباطهما من الجنة، ومن السماء إلى الأرض، وابتلاؤهما وذريتهما بالتكاليف، ووعد من اتبع هدى الله منهم، ووعيد من كفر به وخالفه.

٨- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن بني إسرائيل، وقد أطالت النفس في ذلك في أكثر من مائة آية، من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الآية: ٤٠]، إلى قريب من منتصف السورة. فصَّلت الكلام عنهم تفصيلًا تامًّا، لتجلية طبيعة أولئك القوم وأحوالهم، وما هم عليه من الكفر والعتو والعناد وقبيح الصفات والجرأة على الله تعالى والتحايل والتحريف وتبديل القول والحسد للمسلمين، وغير ذلك؛ ليحذر المسلمون منهم ومن مسالكهم السيئة.

٩- وقد بدأت هذه الآيات بتذكير بني إسرائيل نعمة الله تعالى عليهم، وحثهم على الوفاء بعهد الله، ورهبته وتقواه، والإيمان بالقرآن المصدق لما معهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ونهيهم أن يكونوا أول كافر به، وأن يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وعن لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، وتقريعهم على أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم.

١٠- تأكيد تذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتفضيله إياهم على عالمي زمانهم، وتخليصهم من آل فرعون وعذابهم، وفرق البحر لهم، وإنجائهم من الغرق وإغراق آل فرعون، وعفو الله عنهم، وتوبته عليهم بعد عبادتهم، العجل، وإيتاء موسى الكتاب والفرقان لأجل أن يهتدوا به.

١١- جرأتهم على الله- بعد أن وبخهم موسى على عبادة العجل وتاب الله عليهم بقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [الآية: ٥٥]، وأخذ الصاعقة لهم، ثم بعثهم من بعد موتهم ليشكروا، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى.

١٢- أمرهم بدخول القرية سجدًا وقول «حِطَّة» لمغفرة خطاياهم، وتبديلهم قولًا غير الذي قيل لهم، وظلمهم لأنفسهم، وإنزال الرجز عليهم.

١٣- استسقاء موسى- عليه السلام- لهم، وأمره- عز وجل- له أن يضرب بعصاه الحجر، وانفجار العيون لهم، وإدرار الرزق عليهم، ومن ثم كفرهم وبطرهم نعم الله تعالى عليهم بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [الآية: ٦١]، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، وعقوبتهم بضرب الذلة، والمسكنة عليهم، وغضب الله عليهم؛ لكفرهم وقتلهم النبيين.

١٤- بيان أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من أي طائفة كانت فلهم أجرهم عند ربهم وثوابهم.

١٥- أخذ الميثاق على بني إسرائيل ورفع الطور فوقهم لأخذ ما أوتوه بقوة وذكر ما فيه، وتوليهم بعد ذلك.

١٦- تذكيرهم باعتدائهم في السبت، وفضل الله عليهم، وحمايته لهم من الخسران، ومسخهم قردة خاسئين، وجعل عقوبتهم نكالًا لهم ولغيرهم.

١٧- تشديدهم على أنفسهم في أمر البقرة، وقسوة قلوبهم، وبعدهم عن الإيمان، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونفاقهم وجهلهم، وبيان إحاطة علم الله تعالى بما يسرون وما يعلنون.

١٨- توعدهم بالويل لكذبهم وافترائهم على الله بكتابتهم الكتاب بأيديهم، ثم قولهم: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾، وتأكيد وعيدهم ثانية وثالثة بسبب ما كتبت أيديهم وكسبهم الباطل.

١٩- غرورهم وتزكيتهم لأنفسهم، وزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، والرد عليهم، وإبطال زعمهم، وقولهم على الله بلا علم، وبيان أن من عمل عملًا جوزي به أيًا كان.

٢٠- أخذ الميثاق عليهم ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، وأن يقولوا للناس حسنًا، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وتوليهم إلا قليلًا منهم وهم معرضون.

٢١- أخذ الميثاق عليهم بعدم سفك دمائهم، وإخراج أنفسهم من ديارهم، وإقرارهم

وشهادتهم على ذلك، ثم نقضهم ميثاقهم وقتل بعضهم لبعض، وإخراج فريق منهم من ديارهم بالإثم والعدوان، وشراؤهم الحياة الدنيا بالآخرة، وتوعدهم بردهم إلى أشد العذاب، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

٢٢- بيان قيام الحجة عليهم بإيتاء موسى الكتاب، وتتابع الرسل بعده منهم، وإيتاء عيسى ابن مريم البينات، وتأييده بروح القدس. وكل ذلك لم ينجع فيهم، فاستكبروا عما جاءتهم به الرسل، ففريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون. وزعموا أن قلوبهم غلف. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٨٨].

٢٣- كفرهم بالقرآن المصدق لما معهم بعد معرفتهم له أنه من عند الله وحق وصدق- بغيًا وحسدًا- وغضب الله عليهم وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٢٤- زعمهم الكاذب أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم ويكفرون بما وراءه، فكيف يكفرون بالقرآن وهو الحق مصدقًا لما معهم، ولم يقتلون أنبياء الله لو كانوا حقًّا مؤمنين؟!.

٢٥- ذمهم باتخاذهم العجل مع ما جاءهم به موسى- عليه السلام- من البينات على وحدانية الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له وحده.

٢٦- تذكيرهم بأخذ الميثاق عليهم وتهديدهم برفع الطور فوقهم، ليأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويسمعوا، وعتوهم وتجبرهم وعنادهم، وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وتعلق قلوبهم بحب العجل والشرك بالله، فأين هم من الإيمان؟!.

٢٧- زعمهم الباطل أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، والرد عليهم، وتحديهم بتمني الموت إن كانوا صادقين بهذا الزعم، وبيان أنهم لن يتمنوه أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والظلم، وموجبات سخط الله وعذابه، وبيان أنهم أشد الناس حرصًا على الحياة.

٢٨- عداوة اليهود لجبريل- عليه السلام، وأن الله عدو لهم ولعموم الكافرين، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الآية: ٩٨].

٢٩- تكذيبهم الرسول ﷺ المصدق لما معهم ونبذهم كتاب الله تعالى القرآن الكريم

وراء ظهورهم، وهم يعلمون صدقه وصدق ما جاء به.

٣٠- اتباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وتعلمهم ما يضرهم ولا ينفعهم مع علمهم بأنه كفر لا خلاق في الآخرة لمن اشتراه واعتاض به عن الإيمان.

٣١- خبث اليهود وتوريتهم بقولهم للرسول ﷺ: ﴿رَٰعِنَا﴾ بوصفه بالرعونة، ونهي المؤمنين عن هذه المقالة، وأمرهم أن يقولوا: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ بعدًا عن اللبس ومشابهة اليهود.

٣٢- حسدهم للمؤمنين ومودتهم هم والمشركون أن لا ينزل على المؤمنين أي خير من ربهم ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الآية: ١٠٥].

٣٣- إثبات النسخ في القرآن الكريم، وفي الشرائع السماوية كلها، وإبطال إنكار اليهود له تشكيكًا بدعوته ﷺ وما جاء به من الوحي الناسخ لجميع الأديان. وبيان أقسام النسخ، والحكمة منه، وتقرير قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، وسعة ملكه- عز وجل- وسلطانه، لا ولي غيره، ولا ناصر سواه.

٣٤- تحذير هذه الأمة من أن يسألوا رسولهم كما سأل اليهود موسى- عليهم السلام- مما فيه جرأة على الله تعالى، كما في قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥]، ونحو ذلك مما فيه تبدل الكفر بالإيمان، والبعد عن سواء السبيل.

٣٥- مودة أهل الكتاب أن يردوا المؤمنين من بعد إيمانهم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق. وأمر المؤمنين بالعفو والصفح عنهم حتى يأذن الله بالأمر بقتال الكفار.

٣٦- أمر المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وترغيبهم في تقديم الخير لأنفسهم؛ ليجدوا ثوابه عند الله- تعالى.

٣٧- زعم أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وبيان أن هذا مجرد أماني منهم، وإبطال زعمهم؛ ولهذا قال تعالى لهم: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الآيتان: ١١١، ١١٢].

٣٨- عداوة كل من اليهود والنصارى فيما بينهم، وتشكيك كل طائفة منهم بما عليه الأخرى مع أنهم يتلون الكتاب ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ [الآية: ١١٣].

٣٩- بيان أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، والوعيد لمن فعل ذلك، وبيان أن لله- عز وجل- المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله.

٤٠- جرأة اليهود والنصارى في نسبتهم الولد إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وتنزيه الله تعالى نفسه عن قولهم، وبيان أن له ما في السموات والأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلا حاجة لله إلى الولد.

٤١- شدة جهلهم وعتوهم وعنادهم في اقتراحهم أن يكلمهم الله، أو تأتيهم آية، وهذا يدل على عدم معرفتهم بالله تعالى وما يجب له من التعظيم، وعلى عدم اعتدادهم بمعجزة القرآن الكريم والتي هي أكبر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٤٢- تنبيهه ﷺ على عدم رضى اليهود والنصارى عنه حتى يتبع ملتهم، ويترك هدى الله، وتحذيره من اتباع أهوائهم، والثناء على المؤمنين الذين يتلون الكتاب ويتبعونه ويؤمنون به، وبيان خسران من كفر به.

٤٣- ثم تعود الآيات لتأكيد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم وتفضيلهم على عالمي زمانهم وترهيبهم من يوم القيامة وأهواله.

٤٤- تلا ذلك ذكر ابتلائه- عز وجل- لنبيه إبراهيم- عليه السلام- بكلمات وإتمامه- عليه السلام- لهن، وجعله للناس إمامًا، وقصة بناء البيت، وجعله مثابة للناس وأمنًا وتطهيره، ودعاء إبراهيم- عليه السلام- للبلد الحرام بالأمن ورزق أهله الثمرات من آمن منهم، ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ودعائهما الله أن يتقبل منهما، وأن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يريهم مناسكهم، ويتوب عليهم، وأن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

٤٥- تسفيه مَن رغب عن ملة إبراهيم، وبيان اصطفائه- عز وجل- له، وثنائه عليه في

سرعة استجابته لربه، وإسلامه له، ووصية إبراهيم- عليه السلام- بهذه الملة بنيه، وكذا أوصى بها يعقوب بنيه من بعده، ثم ختمت الآيات في هذا بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٣٤] في إشارة واضحة إلى أنه لا ينفع مجرد الانتساب إلى إبراهيم أو إلى يعقوب دون اتباع ما كانا عليه من الحنيفية السمحة.

٤٦- حصر أهل الكتاب الهداية فيمن كان هودًا أو نصارى، وإبطال قولهم هذا، وبيان أن الهداية في اتباع ملة إبرهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

٤٧- وجوب الإيمان بالله، وبما أنزل على رسولنا ﷺ وما أنزل على إبراهيم وعلى جميع الرسل والأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وعدم التفريق بينهم، وبيان أن أهل الكتاب إن آمنوا بمثل ما آمن به المؤمنون من هذه الأمة فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، ووعده- عز وجل- نبيه ﷺ بكفايته إياهم. ثم ختم هذا بقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [الآية: ١٣٨].

٤٨- توبيخ أهل الكتاب في محاجتهم للرسول ﷺ والمؤمنين في الله، وفي قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى؛ والرد عليهم، وبيان أنه لا أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وتهديدهم باطلاع الله عليهم، ثم ختم هذا بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٤١] وفي هذا تأكيد لما سبق من الإشارة إلى أنه لا ينفعهم كونهم من نسل الأنبياء والصالحين ما لم يعملوا بعلمهم.

٤٩- ثم انتقلت السورة لذكر حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام وهي أكبر حادثة تشريعية في الإسلام بعد بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه، وهي أعظم أمر أقضَّ مضاجع بني إسرائيل بعد مبعثه ﷺ، ولهذا وطَّأ القرآن لذلك بذكر ما سيقول السفهاء من الناس- يعني اليهود- معترضين على حكم الله، وذلك تقوية لقلب النبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [الآية: ١٤٢]، فرد عز وجل عليهم وبيَّن له ﷺ كيف يرد عليهم، كما بيَّن

نعمته على هذه الأمة بجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا، وبيَّن الحكمة من تحويل القبلة، وهي معرفة مَن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وطمأنهم بعدم تضييع صلاة من صلوا إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، ثم أمره ﷺ بالتوجه شطر المسجد الحرام، وأمر أمته بذلك، وبيَّن أن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم، وأنه لو جاءهم كل آية ما تبعوا قبلته وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وحذره من اتباع أهوائهم، وبيّن أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، وبيَّن عز وجل أنه الحق الذي لا مرية فيه، ثم أكَّد عز وجل الأمر له ﷺ ولأمته بالتوجه شطر المسجد الحرام؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة إلا الذين ظلموا منهم، ولإتمام نعمته عليهم وهدايتهم، كما هي نعمته الكبرى عليهم قبل ذلك بإرسال الرسول ﷺ فيهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم ختم الآيات في هذا بقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [الآية: ١٥٢]، إشعارًا بعظم هذه النعمة على الأمة وهي تحويل القبلة إلى البيت الحرام قبلة إبراهيم- عليه السلام، ووجوب ذكر الله وشكره عليها.

٥٠- أمر المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة، وبخاصة عند المصائب، واحتساب من يقتل في سبيل الله أحياء عند الله تعالى، واحتساب ما يحصل من الابتلاء بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات عند الله- عزوجل، وختم هذا بالبشارة للصابرين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [الآية: ١٥٦]، وأثنى عليهم ووعدهم بالرحمة وحصر الاهتداء فيهم.

٥١- بيان أن الصفا والمروة من شعائر الله ومشروعية الطواف بهما.

٥٢- ذم الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ولعنهم إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، والوعيد لمن كفروا وماتوا وهم كفار باللعنة والعذاب.

٥٣- إثبات ألوهية الله عز وجل ووحدانيته ورحمته، والتنبيه على آياته في خلق السموات والأرض، وفي الكون كله، الدالة على تمام قدرته وكمال عظمته لذوي العقول.

٥٤- ذم الذين يتخذون أندادًا من دون الله، ويشركونهم مع الله، وتصوير سوء حال المتبوعين وأتباعهم يوم القيامة، وبراءة بعضهم من بعض، وعداوة بعضهم لبعض، ورؤيتهم أعمالهم حسرات عليهم، وخلودهم في النار.

٥٥- أمر الناس بالأكل مما في الأرض حلالًا طيبًا، وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان وأوامره السيئة، والقول على الله بلا علم.

٥٦- ذم المشركين والكفار في تقليدهم آباءهم من غير تعقّل وعلى غير هدى، وتمثيل حالتهم بحال الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

٥٧- أمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، وشكره وعبادته، وبيان المحرم عليهم، وإباحة الأكل منه عند الضرورة.

٥٨- ذم الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا، ويشترون الضلالة بالهدى، وحرمانهم تكليم الله وتزكيته لهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وبيان أن الله أنزل الكتاب بالحق، وأن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد.

٥٩- ثم انتقلت السورة للتفصيل في كثير من الأحكام العقدية والعملية ابتدأتها بذكر آية جامعة لخصال البر وأعظم أصول الإسلام، وبيان أنه ليس البر مجرد التوجه جهة المشرق أو المغرب، وإنما البر بالإيمان بالله وبجميع أصول الإيمان، والعمل بجميع شرائع الإسلام، من إيتاء المال على حبّه للمحتاجين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء، وحين البأس، ثم ختم الآية بامتداح أهل هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧٧].

٦٠- ثم ذكر وجوب القصاص في القتلى وحكمته، ووجوب العدل فيه، ورغب في العفو عنه تخفيفًا منه تعالى ورحمة، وتوعد من اعتدى بعد ذلك بالعذاب الأليم، ثم ذكر حكم الوصية، وحذر من تبديلها، ورغب في الإصلاح فيها.

٦١- ثم ذكر فرض صيام رمضان وحكمته وأحكامه، ونزول القرآن في هذا الشهر وأكد وجوب صيامه، وأباح الفطر للمريض والمسافر والقضاء تيسيرًا على الأمة،

وليكملوا العدة، ويكبروا الله على ما هداهم ويشكروه، وبيَّن عز وجل قربه من عباده وإجابته دعوة من دعاه، ورغبهم في الاستجابة له والإيمان به، ليرشدوا، كما بيَّن حل الجماع ليال الصوم، وإباحة الأكل والشرب والجماع من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ونهى عن مباشرة النساء حال الاعتكاف في المساجد.

٦٢- ثم نهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام ليأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون. وأتبع ذلك بذكر سؤالهم عن الأهلة، وبيَّن لهم الحكمة فيها وفائدتها.

٦٣- ثم أمر المؤمنين بالقتال في سبيل الله للذين يقاتلونهم، ونهاهم عن الاعتداء، وحرضهم على القتال، فقال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [الآية: ١٩١]. وبيَّن أن الفتنة في الدين وصد الناس عنه أشد من قتلهم، ونهاهم عن قتالهم في المسجد الحرام حتى يقاتلوهم فيه، ثم أكد قتالهم مرة ثالثة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا كف عنهم فلا عدوان إلا على الظالمين.

ثم بيَّن أن الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى علينا نعتدي عليه بمثل ما اعتدى علينا في أي زمان ومكان، وحث على تقوى الله والإنفاق في سبيله، وحذر من الإلقاء بالأنفس إلى التهلكة بترك الجهاد، ورغب بالإحسان.

٦٤- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن الحج وأحكامه وآدابه بالأمر بإتمام الحج والعمرة لله، وبيان حكم الإحصار والواجب فيه، وفدية ارتكاب المحظور، وفدية التمتع، وبديلها، وبيان أن التمتع لغير أهل الحرم، وأن الحج أشهر معلومات، وبيان ما يجب على الحاج تركه، والترغيب في التزود، والحث على التقوى وأنها خير الزاد، وإباحة طلب الرزق في الحج والأمر بذكر الله بعد الإفاضة من عرفات عند المشعر الحرام، والإفاضة من حيث أفاض الناس، والاستغفار، والإكثار من الذكر بعد قضاء النسك وفي الأيام المعدودات، وبيان جواز التعجل من منى أو التأخر.

٦٥- ثم بيَّن أن من الناس ﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [الآية: ٢٠٤]، ساعٍ في الأرض في الإفساد وإهلاك الحرث

والنسل متمادٍ في طغيانه وإفساده، فإذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد، ومنهم من يبيع نفسه طلبًا لمرضاة الله تعالى وشتان ما بين الفريقين: ساعٍ في هلاك نفسه، وساعٍ في فكاكها.

ثم أمر عز وجل الناس بالدخول في السلم كافة، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وحذرهم عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وضرب لهم مثلًا ببني إسرائيل الذين لم تنجع فيهم الآيات، وحذرهم من تبديل نعمة الله، والتعرض الشديد لعقابه.

وبيَّن أنه زُين للذين كفروا الحياة الدنيا، ولهذا ركنوا إليها، وأعجبوا بها وصاروا يسخرون من الذين آمنوا، والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة.

٦٦- ثم ذكر سبب إرسال الرسل، وهو اختلاف الناس بعد أن كانوا أمة واحدة على التوحيد والدين الحق، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

٦٧- تلا ذلك تقرير أن دخول الجنة يقتضي الابتلاء والتمحيص قبل ذلك، كما هي سنة الله تعالى فيمن خلوا مستهم البأساء والضراء وزلزلوا.

٦٨- ثم الإجابة عن سؤال بعض الصحابة ماذا ينفقون مبينًا ذلك، وما هو أهم وهو مصرف الإنفاق.

٦٩- ثم عادت السورة للكلام عن القتال ووجوبه، وبيان أنه أمر شاق مكروه للنفوس، وكم خير في كثير من المكاره، والإجابة عن سؤالهم عن حكم القتال في الشهر الحرام، وأنه أمر كبير، وأن الصد عن سبيل الله والكفر به والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أشد من القتل، وبعد التحريض على القتال ختم بوعد الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله برحمته فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الآية: ٢١٨].

٧٠- تلا ذلك الإجابة عن سؤال الصحابة- رضي الله عنهم- عن الخمر والميسر،

وبيان أن فيهما إثمًا كبيرًا ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، ثم الإجابة عن سؤالهم عن اليتامى بالترغيب بالإصلاح لهم وأنه خير، وبيان جواز مخالطتهم.

٧١- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن أحكام النكاح، وبدأت بالنهي عن مناكحة المشركين. تلا ذلك الإجابة عن سؤالهم عن المحيض، وبيان أنه أذى، والنهى عن جماع الحائض حتى تطهر وتغتسل، وبيان جواز إتيان المرأة على أي حال إذا كان ذلك في موضع الحرث، وختم ذلك بنهيهم أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم، وحائلًا بينهم وبين البر والتقوى، وبيان عدم مؤاخذتهم بلغو اليمين، وإنما يؤاخذون باليمين المنعقدة المكتسبة بالقلوب، ثم أعقب ذلك الكلام عن أحكام الإيلاء والطلاق والرضاع والعدة والخطبة والصداق ومتعة المطلقات.

٧٢- تلا ذلك الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، والقيام لله تعالى والقنوت له، والصلاة حال الخوف رجالًا وركبانًا، وختمت الآيات في هذه الأحكام بالامتنان عليهم ببيانه- عز وجل- لهم الآيات لعلهم يعقلون.

٧٣- ثم ذكر قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقال الله لهم موتوا ثم أحياهم. وأمرهم بالقتال في سبيل الله، والترغيب في الإنفاق والصدقة والقرض الحسن.

٧٤- ثم ذكر قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله وإظهار رغبتهم في القتال. فبعث الله لهم طالوت ملكًا. فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [الآية: ٢٤٧]. وابتلاءهم بالنهر وشربهم منه إلا قليلا منهم، وقتل داود جالوت وإيتاء الله داود الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء، ثم ختم هذا بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٢٥٢].

٧٥- تلا ذلك التنويه بشأن الرسل السابقين وأخبارهم وتفضيل بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وإيتاء عيسى ابن مريم البينات، واقتتال الذين من بعدهم واختلافهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية.

٧٦- ثم أمر المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم الله ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [الآية: ٢٥٤].

٧٧- تلا ذلك ذكر أعظم آية في القرآن الكريم آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [الآية: ٢٥٥] التي اشتملت على أعظم صفات الله تعالى، من تفرده بالإلهية وكمالها، وكمال حياته، وكمال قيّوميته، وانتفاء النقص عنه وسعة ملكه، واختصاصه بكمال الملك، والتدبير، وسعة علمه، وعدم قدرة الخلق على الإحاطة بشيء من علمه، وسعة كرسيه للسموات والأرض، وكمال قدرته وحفظه، وكمال علوه وعظمته. ثم بيان عدم الإكراه في الدين؛ لتبين الرشد من الغي، وأن من كفر بالطاغوت، وآمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وبيان ولايته- عز وجل- للذين آمنوا، وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الآية: ٢٥٧].

٧٨- ثم ذكر قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وجعله آية للناس.

٧٩- تلا ذلك ذكر قول إبراهيم- عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [الآية: ٢٦٠] وذلك منه عليه السلام ليجمع بين علم اليقين وعين اليقين، ولهذا بين الله له ذلك.

٨٠- ثم عادت السورة إلى الترغيب في الإنفاق ببيان مضاعفة النفقات وأجور المنفقين، وحذرت من المن والأذى، وإبطال الصدقات بذلك، وبالرياء، ومثلت سوء حال المنفق ماله رئاء الناس، وحسن حال المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، وبيان ما له من المضاعفة. والأمر بالإنفاق من طيب الكسب، والنهي عن الإنفاق من الخبيث، والتحذير من الشيطان وتخويفه لهم بالفقر، وأمره لهم بالفحشاء، والثقة بوعد الله لهم

بالمغفرة والفضل.

ثم بيان أنه عز وجل يؤتي الحكمة من يشاء، والتنويه بمن أوتيها؛ لقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ٢٦٩].

وبيان علمه عز وجل بكل ما ينفق، وما ينذر، ومجازاة صاحبه، وبيان جواز إبداء الصدقة وخاصة إذا كان في ذلك مصلحة، ورغب في إخفائها، وأنه خير، وأنها ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٧٣].

ثم ختم الآيات في الإنفاق بالوعد بالأجر العظيم للمنفقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الآية: ٢٧٤].

٨١- ثم انتقلت السورة للكلام عن المعاملات، بالتحذير من الربا والتنفير عنه، وبيان قبح حال وصورة أهله في الدنيا والآخرة، ومحقه، وأمر المؤمنين بتقوى الله تعالى، وترك ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين حقًا، ثم بيان شدة خطره، وأنه محاربة لله تعالى، والترغيب في تركه، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٧٩].

ورغب- عز وجل- بإنظار المعسر إلى الميسرة، أو التصدق بالعفو عنه، فذلك خير، وأمر بتقوى يوم القيامة والاستعداد له.

٨٢- تلا ذلك ذكر أحكام الدين في أطول آية في القرآن الكريم، أمر الله فيه المؤمنين بكتابة الدين والإشهاد عليه وضبطه وتوثيقه، ونهى عن المضارة من الكاتب أو الشهيد، وبيّن مشروعية الرهان، وأمر بأداء الأمانة، ونهى عن كتمان الشهادة، وأكد سعة ملكه- عز وجل- ومحاسبته الخلائق على أعمالهم وقدرته التامة على ذلك.

٨٣- ثم ختمت السورة بالآيتين العظيمتين اللتين قال فيهما الرسول ﷺ: «من قرأ

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(١).

وقد تضمنت الآية الأولى منها: الشهادة للرسول ﷺ والمؤمنين بإيمانهم بجميع أصول الإيمان، من الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه، وبملائكته- عز وجل- وكتبه ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله، وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: ٢٨٥].

وتضمنت الآية الثانية: بيان وتقرير أن الله- عز وجل- لا يكلف نفسًا إلى وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ثم ختمت الآية بمسك ختام هذه السورة العظيمة، وهو دعاء المؤمنين الجامع بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية: ٢٨٦]، وفي الحديث قال الله: «**قد فعلت**»(١).

والخلاصة: أن هذه السورة فيما تناولته من الأحكام والآداب والأخلاق والحكم والقصص والأخبار، مما لا يمكن حصره تعد منهجًا متكاملًا في تربية الأمة في جل جوانب الحياة ومسائل الدين. وقد تركز الكلام فيها- غالبًا- على أمرين هامين اقتضتهما حالة الأمة في الحقبة الأولى من دولة الإسلام في المدينة:

الأول: الكلام عن بني إسرائيل وكفرهم نعم الله تعالى، وتكذيبهم لرسله ولنبينا محمد ﷺ، وما هم عليه من ذميم الصفات. وقدّم هذا في النصف الأول من السورة تحذيرًا للمؤمنين من مسالكهم، وتسلية للرسول ﷺ.

والأمر الثاني: التشريع للدولة الإسلامية الفتية، وهو ما تناولته السورة من قبل منتصفها إلى آخرها.

* * *

(١) سيأتي تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

سبق الكلام في تفسير الاستعاذة والبسملة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

افتتح الله ﷻ تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾.

فافتتح ﷻ ست سور بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هي سورة البقرة، وآل عمران والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

وافتتح سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾.

وافتتح خمس سور بقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ هي سورة يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

وافتتح سورة الرعد بقوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾.

وافتتح سورة مريم بقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

وافتتح سورة طه بقوله تعالى: ﴿طه﴾.

وافتتح سورتين بقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ هما سورة الشعراء، والقصص.

وافتتح سورة النمل بقوله تعالى: ﴿طسٓ﴾.

وافتتح سورة يس بقوله تعالى: ﴿يسٓ﴾.

وافتتح سورة ص بقوله تعالى: ﴿صٓ﴾.

وافتتح ست سور بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هي سورة غافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وافتتح سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

وافتتح سورة ق بقوله تعالى: ﴿قٓ﴾.

وافتتح سورة القلم بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

واختلفوا هل تعد هذه الحروف آيات أو لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-[١]: «وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء، وإنما يعدها آيات الكوفيون».

قلت: وعلى قول الكوفيين جاء ترقيم وعد آيات المصحف حيث عدت هذه الحروف آية من السورة التي جاءت فيها عدا قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ فعدوها آيتين من السورة، وعدا قوله تعالى: ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾ فعدوها بعض آية من السورة.

كما اختلفوا في إعرابها: فذهب الخليل وسيبويه وأكثر المعربين إلى أنها حروف هجاء محكية، لا محل لها من الإعراب.

وذهب بعضهم إلى أنها معربة ومحلها الرفع على الابتداء لخبر مقدر، أو على الخبر لمبتدأ مقدر، وقيل: محلها النصب على المفعول به بتقدير: اقرأ ﴿الٓمٓ﴾ ونحو ذلك.

وقيل: محلها الجر بالقسم.

والراجح القول الأول: أنها لا محل لها من الإعراب.

كما اختلف المفسرون سلفًا وخلفًا في المراد بهذه الحروف.

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، واختار هذا بعض المفسرين، منهم جلال الدين السيوطي[٢] والشوكاني[٣]، والسعدي. قال السعدي[٤]: «وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٢٠).

(٢) انظر: «الإتقان» (٤/ ٣، ١١٨).

(٣) انظر: «فتح القدير» (١/ ٣٢).

(٤) انظر: «تيسير الكريم الرحمٰن» (١/ ٣٩).

الجزم بأن الله لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها».

وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الحروف ليست من المتشابه لكنهم اختلفوا في المراد بها اختلافًا كثيرًا، وحكى في ذلك نحو من ثلاثين قولًا.

فقيل: هي حروف يتكون منها اسم الله الأعظم.

وقيل: هي أسماء للسور المفتتحة بها، كتسميه «الم السجدة» و«طه»، و«يس»، و«ص»، و«ق».

وقيل: هي من أسماء القرآن، وقيل: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها.

وقيل: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها.

وقيل: هي فواتح يفتتح الله بها القرآن، وقيل للدلالة على انتهاء السورة التي قبلها، وافتتاح ما بعدها.

وقيل: هي حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة، وقيل: هي أسماء للرسول ﷺ.

وقيل: لصرف أسماع المشركين إلى القرآن الكريم لما تواصوا بعدم سماع القرآن.

وقيل: هي حروف من حساب الجمل. وقيل: هي تنبيه كـ«يا» النداء.

وأقرب الأقوال في المراد بها: أنها حروف من حروف الهجاء، كما قال مجاهد[١] فهي حروف هجائية لا معنى لها بحد ذاتها لكن لذكرها مغزى وحكمة، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به، وبيان أن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف الهجائية التي يتخاطبون بها، ويؤيد صحة هذا القول أمران:

الأول: أن القول بأن لها مغزى وحكمة فيه بيان أن لها فائدة عظيمة- وإن كانت في حد ذاتها حروفًا من حروف الهجاء المعروفة ليس لها معنى؛ بخلاف القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الله- عز وجل- خاطب العرب بما يعرفون، وبذلك قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

كما أن بقية الأقوال التي قيلت في المراد بها لا دليل عليها، ولا حكمة تظهر منها ولا فائدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٢٠٩) - تحقيق التركي.

الثاني: أن جميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها بعد هذه الحروف- غالبًا- الثناء على القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه، كقوله تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

ولهذا، فإن كل السور المبدوءة بهذه الحروف مكية؛ لإفحام المشركين، إلا البقرة وآل عمران.

وبهذا القول- وهو: أن هذه الحروف ذكرت لبيان إعجاز القرآن- قال جمع من أهل اللغة؛ منهم: المبرد[١]، وقطرب والفراء، واستظهر هذا الراغبُ الأصفهاني[٢]، واختاره الزمخشري[٣]، والرازي[٤]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمزي، وابن القيم[٥]، وابن كثير[٦]، ومحمد رشيد رضا[٧] والشنقيطي[٨]، والعثيمين[٩]، وغيرهم.

قال ابن كثير[١٠]- رحمه الله- بعدما ذكر عددًا من الأقوال في المراد بهذه الحروف، قال: «وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشافه» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٥٥- ٥٦).

(٢) انظر: مقدمة «جامع التفسير» لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق أحمد حسن فرحات (ص١٤٢).

(٣) في «الكشاف» (١/ ١٣- ١٨).

(٤) في «التفسير الكبير» (١/ ٣- ١٢).

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩، «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٣).

(٦) في «تفسيره» (٧/ ٥٩) طبعة دار الشعب.

(٧) في «تفسير المنار» (٨/ ٢٩٦).

(٨) في «أضواء البيان» (٣/ ٥).

(٩) في «تفسيره» (١/ ٢٢- ٢٣).

(١٠) في «تفسيره» (١/ ٣٨)- الطبعة الحلبية.

ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية».

وقال ابن القيم- رحمه الله[1]: «والصحيح: أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخبرا عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها.. وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته».

قال رحمه الله في «النونية»[2]:

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحـ	ـرفها ترى سرًّا عظيم الشانِ
لم يأت قطّ بسورة إلا أتى	في إثرها خبر عن القرآنِ
إذ كان إخبارًا به عنها وفي	هذا الشفاء لطالب الإيمانِ
ويدلّ أن كلامه هو نفسها	لا غيرها والحق ذو تبيانِ
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الأ	عراف ثم كذا إلى لقمانِ
مع تلوها أيضًا ومعْ حم معْ	يس وافهم مقتضى القرآنِ

وذكر شيخنا محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- أمثلة لما افتتح بهذه الحروف من السور القليلة التي ليس فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر شيء من خصائص القرآن كقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] فهذه السورة جاء فيها ذكر خاصية من خصائص القرآن وهي ذكر قصص من كان قبلنا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]. والآيات بعدها، وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] فهذه السورة

(١) انظر «بدائع التفسير» (٤/ ٤٩٩).

(٢) ص٤٦، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

ليس فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر شي من خصائصه، وهو الإخبار عن المستقبل: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢- ٤]، وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فهذه السورة ليس فيها ذكر القرآن ولكن فيها ذكر شيء من خصائصه وهو القصص: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣][١].

وأيضًا، فإن المتأمل في السور التي لم يرد فيها الثناء على القرآن وذكر إعجازه، مما افتتح بهذه الحروف؛ وهي: مريم، والعنكبوت، والروم، والقلم- يجد أنها اشتملت على معانٍ تدل على إثبات النبوة وصدق القرآن.

فالخلاصة أن هذه الحروف- والله أعلم- ذكرت في مطلع بعض السور لحكمة عظيمة وهي بيان إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه[٢]، وتحدي الخلق وبخاصة العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان والذين نزل القرآن بلغتهم، وأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها، كما قال ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[٣].

ومما يؤسف له أن هذه اللغة العظيمة التي وسعت كتاب الله ﷻ وهي وعاؤه، والتي هي أعظم اللغات وأفضلها وأوسعها وأحسنها تكاد تحتضر وتوأد عقوقًا على يد أبنائها باستبدالهم اللغات واللهجات العامية مكانها، ومزاحمتها باللغات الأجنبية، مما يمثل خطرًا عظيمًا على الأمة في أغلى شيء لديها وهو دينها وموروثها، في فهم كتاب ربها

---

(١) انظر «تفسير القرآن الكريم- الفاتحة، البقرة» لفضيلة الشيخ محمد العثيمين (١: ٢٣).

(٢) وليس في عدد حروفه وحسابها، كما زعم أدعياء الإعجاز العددي أن هذه الحروف تدل على إعجاز من نوع العدد والحساب؛ لأن القرآن نزل لإصلاح الخلق، لا لامتحان عقولهم بالعدد.

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٦٠)- من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

وسنة نبيها ﷺ.

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم حيث قال من قصيدة على لسان اللغة العربية[١]:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالا وأكفاءً وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم في الجرائد مزلقا ... من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

---

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» ص٢٥٣ .

ولهذا فإن مما يتوجب على الأمة العربية والإسلامية ممثلة بحكوماتها وشعوبها، بجامعاتها ومؤسساتها التعليمية ومراكز البحوث ووسائل الإعلام المشهودة والمسموعة والمرئية العناية التامة باللغة العربية لغة القرآن الكريم من خلال تعليم اللغة العربية الفصحى في جميع مراحل التعليم مقرونا بالتطبيق والمحاكات والتمرين والتدريب على النطق الصحيح السليم، بدلًا من الطريقة التقليدية العقيمة المتبعة في تعليم اللغة العربية في كثير من البلاد العربية والإسلامية وغيرها.

ومن خلال اعتماد اللغة العربية الفصحى في كل ما يكتب وينشر من الكتب والبحوث والمقالات وفي وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وفي الإعلانات، وفي إلقاء المحاضرات والدروس ما أمكن.

ومن خلال تأسيس جمعيات للغة العربية في جميع البلاد العربية والإسلامية، ومواقع على شبكة الإنترنت تكون مهمتها الحفاظ على اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم بالتواصل مع جميع المؤسسات الحكومية والأهلية العامة والخاصة في البلاد العربية والإسلامية وتشجيعها على التزام اللغة العربية وبيان أن ذلك مما يثاب عليه لما فيه من الحفاظ على لغة القرآن الكريم، والتوعية بأهمية ذلك والتنبيه على الأخطاء الشائعة، وبخاصة ما ينشر على اللوحات الإعلانية في الأماكن العامة، وفي الصحف والمجلات، وعلى شاشات الفضائيات، وفي الكتابة والتخاطب عبر وسائل الاتصال الحديثة. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «ذا»: اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف للخطاب، وهو عام لكل من يصح خطابه.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن الكريم، وهو على وزن «فعال» بمعنى «مفعول» أي: مكتوب لأنه مكتوب عند الله ﷻ في اللوح المحفوظ، وهو أيضًا مكتوب بالصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

وهو مكتوب بالمصاحف التي بأيدي المؤمنين.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» لعظيم شرفه وعلو منزلته، فهو أعظم وأشرف الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله ﷻ؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الريب الشك، أي: لا شك فيه أبدًا، لا قليل ولا كثير، بأي وجه من الوجوه، فالجملة خبرية والنفي فيها على بابه، وعلى عمومه وإطلاقه، فالقرآن بذاته حق لا شك فيه ينزل من عند الله يقينًا وحقا، وكل ما جاء فيه حق وصدق، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلا في الأحكام.

ولا يقدح في عموم نفي الشك في القرآن وإطلاقه شك من شك فيه من أهل الكفر والزيغ والضلال فقد ينكر الأعمى ضوء الشمس، والمريض طعم الماء، كما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم[١]

وقال المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا[٢]

وأيضًا فالجملة وإن كانت خبرية تدل على نفي الريب والشك مطلقًا في القرآن، فهي متضمنة لمعنى النهي عن الشك فيه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ «هدى» خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو هدى للمتقين، أي: نور وبيان لهم يدلهم إلى الطريق المستقيم، وسبب لتوفيق الله لهم في الدنيا والآخرة.

و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ جمع متقي، أي: الذين اتقوا الله، وخافوا عذابه.

والتقوى هي أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، و«التقوى» أصلها «وقوى» قلبت الواو تاءً لعلة تصريفية. فقيل: «تقوى»، وهي مأخوذة من الوقاية من الضرر والشيء المخوف كالوقاية من البرد والحر والشوك، ونحو ذلك.

وأعظم ذلك الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وهي تجمع بين العلم والعمل والاحتساب، كما قال طلق بن حبيب في بيان معنى التقوى: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[٣].

قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا[٤]

وخصت الهداية للمتقين؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، الموفقون للاهتداء والعمل به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» ص٢٤٧ .

(٢) انظر: «ديوان المتنبي» ص١٤١ .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص (٤٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٤) وابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» ص (٩٩).

(٤) البيت لأفيون التغلبي. انظر: «لسان العرب» مادة «وقى»، «الصناعتين» ص٢١٧.

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن القيم: «فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، تفوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوت حظًّا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه»(١).

وإلا فإن القرآن هدى هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة أن القرآن هدى للمتقين، لأنهم هم الذين يهتدون وينتفعون به، ثم أتبع ذلك بذكر صفاتهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهذه هي الصفة الأولى.

والإيمان في اللغة التصديق، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال إخوة يوسف فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي: وما أنت بمصدق لنا. والإيمان في الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد فلم يدركوه بحواسهم، كما قال تعالى عن

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦١).

نفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والمعنى: الذي يصدقون ويقرون بما أخبر الله به ﷻ في كتابه، وعلى لسان رسول الله ﷺ من أمور الغيب كأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

وكذلك الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله من أمور الغيب السابقة واللاحقة، كأخبار الأمم السابقة، وعلامات الساعة والجنة والنار وغير ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وكذلك تسبيحا... الحديث**»(٢).

وإنما بدأ بذكر الإيمان بالغيب لأنه ركن الدين الركين وأسه المتين، فالله غيب وملائكته غيب وكتبه ورسله غيب واليوم الآخر غيب والجنة والنار غيب، فمن لم يؤمن بالغيب، مما أخبرت به الرسل، وجاءت به الكتب من عند الله فليس بمؤمن، كأهل الإلحاد والكفر، وأهل البدع من المعتزلة والجهمية وأتباعهم من العقلانيين وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ٢٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٠)، وأحمد (٢/ ٢٥١).

وما ضل أكثر الخلق إلا بسبب عدم الإيمان بالغيب وتحكيم الحواس والإدراك، مما يدل على مدى ضعف الإنسان وقلة علمه، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ولهذا لمَّا قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هل رأيت ربك قال: «**نور أنى أراه**»[١].

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه الصفة الثانية من صفات المتقين، فبعد أن ذكر إيمانهم وتصديقهم بالغيب أتبع ذلك ببيان اتباعهم ذلك بالعمل؛ لأن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: ويقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ويأتي التعبير- غالبًا في القرآن الكريم والسنة النبوية بإقامة الصلاة- دون أن يقال: «**يصلون**» لأن المهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة كما شرعها الله ﷻ.

والمراد بالصلاة ما يعم الفرائض والنوافل.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»[٢].

وفي الحديث: «هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال ﷺ: «**الصلاة عليهما، والاستغفار لهما**»[٣].

وقال الشاعر:

تقـول بنتـي وقـد قرَّبْـتُ مـرتحلًا ... يـا رب جنـب أبي الأوصـابَ والوجعـا
عليكِ مثل الـذي صليتِ فاغتمضـي ... نومًـا فـإن لجنـب المـرء مضـطجعًا[٤]

والصلاة في الشرع: التعبد لله ﷻ بأقوال وأفعال مخصوصة معلومة مفتتحة،

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٥)- من حديث عمَّار بن ياسر- ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨)، وأبو داود في الزكاة (١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)، من حديث مالك بن ربيعة الساعدي ﷺ.

(٤) البيتان للأعشى انظر «ديوانه» ص (١٥١).

بالتكبير مختتمة بالتسليم، وبدأ بذكر الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وفيها كمال التعظيم لله ﷻ، والتذلل والخضوع له، وهي عمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه، فمن أقامها وحفظها حفظه الله ووفقه في دينه ودنياه وأخراه، فلا تسأل عن سعادته، ومن ضيعها خسر دينه ودنياه وأخراه- فلا تسأل عن شقائه[١].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المتقين، وهي الإنفاق مما رزقهم الله، فوصفهم بإقام الصلاة التي هي حق الله تعالى، وفيها يتجلى كمال الخضوع له، والإحسان في عبادته، ثم وصفهم بالإنفاق مما رزقهم، وفيه يتجلى كمال الإحسان إلى الخلق.

و«ما» في قوله ﴿وَمِمَّا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: ومن الذي أعطيناهم، أو ومن عطائنا ينفقون، والرزق هو العطاء، أي: ومن الذي أعطيناهم من الرزق والخير ينفقون.

والإنفاق: إخراج المال وبذله، والمراد به هنا بذل المال في وجوهه المشروعة، ومن أعظم ذلك وأهمه الزكاة الواجبة، فهي أعظم العبادات بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية مطلقًا، وهما من أعظم أركان الإسلام ومبانيه العظام قال ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»[٢].

وفي قوله ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ تذكير بأن ما لديهم من رزق وعطاء هو من الله ﷻ وأن المال مال الله ﷻ لا يجوز البخل به، ومنع حقوق الله فيه، بل يجب إخراج النفقات الواجبة فيه كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ونحو ذلك كما ينبغي التصدق منه في الوجوه المستحبة. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: أنفق أنفق عليك**»[٣]،

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣).

وقال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «**أنفقي، ولا تحصي فيحصى الله عليك، ولا توعي فيوعى الله عليك**»[(١)].

وقد أحسن القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع[(٢)]

وقال الآخر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال[(٣)]

وقال الآخر:

المال كالماء إن تحبس سواقيه ... يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال

الله أعطاك فابذل من عطيته ... فالمال عارية والعمر رحّال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال

البخل يودي بأقوام ذوي حسب ... ويقتدي بلئام الأصل أنذال

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من صفات المتقين أي: والذين من صفتهم أنهم يُصدقون بالذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم، ويعملون بما فيه، وبدأ بالقرآن- وهو خاتم كتبه ﷻ وآخرها- لأنه أفضل كتب الله ﷻ مهيمن عليها وناسخ لها.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾، أي: ويصدقون بالذي أنزل من قبلك من الكتب السماوية السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وغيرها، وأن الله ﷻ أنزلها على رسله- عليهم الصلاة والسلام- كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩١)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٠)، من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص١٧٠ .

(٣) البيت لحسان رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص ١٩٢.

أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال ﷺ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه**»(١).

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هذه هي الصفة الخامسة من صفات المتقين، وهي إيقانهم بالآخرة، ونص عليه وخصه بالذكر مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بالآخرة من أعظم ما يحمل على امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن فيه المجازاة على الأعمال، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى**» أي: لتهالك الناس على الشهوات والمناهي وتنكّر بعضهم لبعض.

والآخرة: الدار الآخرة التي بعد الدنيا والبعث، سميت بذلك لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدنيا، وهي الدار الحقة، التي ينبغي أن يعمل ويستعد لها، ويحسب لها كل حساب؛ لأنها هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

واليقين: الإيمان والعلم الجازم الذي لا يتطرق إليه شك، أي: يؤمنون إيمانًا جازمًا بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال، بالثواب والعقاب والجنة والنار، ويستعدون لذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

الإشارة إلى المتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الموضعين، تعظيمًا لشأنهم، وبيانا لرفعة مرتبتهم وعلو منزلتهم.

﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: على هداية من ربهم؛ هداية علم وبيان بكتابه الذي هو هدى للمتقين، وهداية توفيق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٤٤)، وأحمد (٤/ ١٣٦)- من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤] أي: دالهم ومرشدهم ومنور قلوبهم بالإيمان والعلم النافع، وموفقهم للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٥].

وجاء في التعبير بـ«على» الدالة على الاستعلاء؛ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، ونكر «هدى» للتعظيم، أي هدى عظيم، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ تعظيم أيضًا للهدى الذي منحهم الله إياه، وامتنان عليهم به لأنه من ربهم، خالقهم ومالكهم ومربيهم بربوبيته الخاصة بأوليائه، فأعظم به من هدى، وأكرم بها من منة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

أي: أولئك هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ الفائزون بالجنة، الناجون من النار، وقد أكد هذا الوعد لهم، وحصره فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم وعظمته والتحدي بفصاحته وبلاغته وإعجازه؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

٢- أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، وبالمصاحف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

٣- أن القرآن العظيم أعظم الكتب، وأعظم كتب الله تعالى وإذا أطلق بالتعريف ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ فالمراد بذلك القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ولا يقدح في هذا إطلاق ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ على التوراة؛ لأنها كانت أعظم كتب الله تعالى المنزلة قبل القرآن الكريم، فلما نزل القرآن الكريم صار هو المهيمن على جميع الكتب السماوية والحاكم عليها وأعظمها وأفضلها، كما قال تعالى في سورة المائدة بعدما امتدح التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [الآية: ٤٨].

٤- أن القرآن الكريم حق وصدق لا شك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾.

وبهذا يُرد على القول بتعدد نزول بعض السور وتكرره، بناءً على آثار رويت في ذلك صحت أو لم تصح.

كما يرد بهذا على قول من قال: إن ترتيب السور كان اجتهاداً من الصحابه رضي الله عنهم.

كما يرد بهذا قول من قال: إن البسملة لم تكتب في مطلع سورة براءة؛ لاختلاف الصحابة: هل هي والأنفال سورة واحدة أو سورتان؟

وهذا باطل؛ فالصحيح أنها لم تكتب في مطلع براءة؛ لأنها لم تنزل مع هذه السورة، ولو نزلت لحفظت، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، [الحجر:٩].

كما يرد بهذا قول من قال: إن للقرآن الكريم تَنَزُّلَين: الأول: من السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ومن ثم نزل مفرقاً بعد ذلك.

والصحيح: أن القرآن نزل مرة واحدة؛ نزل من السماء السابعة من عند الله تعالى بواسطة جبريل مباشرة إلى النبي ﷺ، وكان أول نزوله في رمضان، ثم تتابع نزوله بعد ذلك مفرقاً.

٥- أن القرآن هدى وبيان وإرشاد للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٦- فضل التقوى والترغيب فيها وعظم مكانة المتقين؛ لأن الله خصهم بهداية القرآن الكريم الخاصة، وإلا فهو من حيث العموم هدى لجميع الناس.

٧- الثناء على المتقين بذكر صفاتهم والتنويه والترغيب فيها، من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، والإيمان بالقرآن والكتب المنزلة قبله والإيقان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٨- عظم مكانة الإيمان بالغيب من الإيمان فهو أصل الإيمان ومن أعظم واجباته وأركانه، فالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر كل ذلك من الإيمان بالغيب؛ لهذا جعل من أخص وأول صفات المتقين الإيمان بالغيب، وفي هذا ردٌّ على المعتزلة ومن سار على منهجهم من العقلانيين الذي لا يوقنون إلا بالمشاهد المحسوس.

٩- عظم مكانة الصلاة في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولا غرو في هذا، فهي

عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، والصلة بين العبد وبين ربه؛ لأن الله جعلها أول صفات المتقين بعد الإيمان بالغيب.

١٠- فضل الإنفاق من رزق الله في الواجب والمستحب؛ لأن الله ثنى بالإنفاق بعد إقام الصلاة؛ ولهذا فالزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي: أعظم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة.

١١- لابد من الإيمان بجميع ما أنزل على الرسل، فبهذا يصح الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

١٢- إثبات أن الله ﷻ عال على خلقه بائن منهم له علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٣- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله ﷻ غير مخلوق، وكذا غيره من كتب الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

١٤- وجوب الإيقان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

١٥- جمع التشريع الإسلامي بين طهارة الباطن والظاهر، وأعمال القلوب الباطنة، وأعمال الجوارح الظاهرة، بين الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله.

١٦- حصر هداية الله تعالى في المتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٨- حصر الفلاح والفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة وتأكيده للمتقين الموصوفين بما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾.

عظم الله ﷻ كتابه العزيز في مطلع السورة، وبين أنه هدى للمتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وأكد وحصر الهداية والفلاح فيهم، ثم ذكر ﷻ الذين لم يهتدوا بالقرآن، ففاتهم هدى ربهم وتوفيقه.

وهم قسمان: قوم أظهروا الكفر، ذكرهم ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ الآيتين [٦، ٧]، وقوم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكذب وهم المنافقون، ذكرهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [٨- ٢٠]، وهكذا جاء تقسيم الناس في سورة النور إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكفار، ومنافقين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الكفر معناه في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: أعجب الزراع، ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل «الكُفُّرى»؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع.

وهو في الشرع نوعان: كفر أكبر مضاد للإيمان، ومخرج من الملة وموجب للخلود في النار.

وقد قسمه ابن القيم إلى خمسة أقسام(1):

١ - كفر تكذيب وجحود، وهو اعتقاد كذب الرسل فيما جاؤوا به من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٢- كفر استكبار وإباء- مع التصديق- ككفر إبليس- لعنه الله- كما قال تعالى:

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥- ٣٧٩).

وانظر «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥) «الدرر السنية» (٢/ ٧٠- ٧١، «عقيدة التوحيد ص (١- ١٠١)، وانظر لسان العرب مادة «كفر».

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ومنه كفر اليهود كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

٣- كفر إعراض بأن يعرض الإنسان عن الرسول ﷺ بسمعه وقلبه، ولا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء إليه البتة.

٤- كفر الشك، بأن لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه، بل يشك في أمره. قال ابن القيم: «وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة».

٥- كفر النفاق وهو أن يظهر الإيمان بلسانه، وينطوي بقلبه على التكذيب، وهذا هو المنافق.

والنوع الثاني من الكفر: الكفر الأصغر، الذي لا يضاد الإيمان بالكلية، ولا يخرج من الملة، ولا يخلد صاحبه في النار، وإنما يوجب استحقاق الوعيد، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[1] وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[2]، وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»[3].

ومن الكفر الأصغر: الرياء قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء**»[4].

ومنه كفر النعمة وعدم شكرها، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: مستوٍ عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام والتسوية، والخطاب للنبي ﷺ.

والإنذار: الإعلام مع التخويف، كما قال لقيط الإيادي مخبرا ومحذرا قومه غزو كسرى[(١)]:

أبلغ إيادًا، وخلّل في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم يعصَ قد نصعا

يا قومُ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا ... على نسائكم كسرى وما جمعا

هذا كتابي إليكم والنذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل ... فاستيقظوا إن خيرَ العلم ما نفعا

وهو ﷺ منذر ومحذر للكافرين ومبشر للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ «أم»: حرف عطف، أي: أم لم تُعلمهم وتُخوفهم.

والمعنى: مستوٍ على هؤلاء الكفار المعاندين، أأنذرتهم وخوفتهم عقاب الله تعالى وعذابه أم لم تخوفهم، أي يستوي ويعتدل عندهم إنذارك لهم وعدم إنذارك، أي يستوي عندهم الأمران. كما قال الأعشى[(٢)]:

وليل يقول المرء من ظلماته: ... سواء بصيرات العيون وعورها

وكما في قول بثينة:

سواء علينا يا جميل بن معمر ... إذا مت بأساء الحياة ولينها[(٣)]

قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بما جئت به، ولا ينقادون له، كما قال تعالى عن المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وفي هذا تسلية له ﷺ، لأنه ﷺ حريص على أن يؤمن جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) من قصيدة له بعنوان «صرخة غيور». انظر: «ديوانه» ص٤، «الذخائر والعبقريات» ٢/ ٢٢٢.

(٢) انظر «ديوانه» ص (٣٧٣).

(٣) انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ١/ ٤٣٣ .

عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ هذا تعليل لما قبله، وهو عدم إيمانهم، أي: لأن الله ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

والختم: الطبع والتغطية والإغلاق، أي: طبع الله على قلوبها وغطى عليها وأغلقها، فلا تفقه ولا تعي الآيات والإنذار، ولا يصل إليها أي خير، ولا يصدر منها كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وختم على سمعهم، فلا يسمعون الإنذار والآيات، ولا ينتفعون بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ﴾ الواو استئنافية، والغشاوة: الغطاء، أي: وعلى أبصارهم غطاء يحول بينها وبين النظر، فلا يشاهدون الآيات الشرعية والكونية ولا ينتفعون بها.

فانسدت أمامهم طرق الهداية والإيمان كلها بالختم على قلوبهم فلا تفقه ولا تعي، وعلى أسماعهم فلا تسمع ولا تنتفع، وعلى أبصارهم غشاوة فلا تبصر.

وبدأ بالقلوب؛ لأن القلب محل الصلاح أو الفساد، وهو سيد الجوارح وأميرها، وأتبع ذلك بذكر السمع والأبصار؛ لأن السمع والبصر طريقا وصول العلم والهدى إلى القلب، وهذه الأعضاء هي وسائل المعرفة عند الإنسان.

ولهذا ذم الله ﷻ الكفار لعدم استفادتهم منها فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهو ما أقروا به بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وذلك بسبب منهم، لا بظلم الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولهؤلاء الكفار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من حيث نوعه وكمه وكيفه. وإذا كان الله ﷻ وصفه بالعظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا هو ﷻ.

وهو عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب، عذاب في الدنيا للأبدان بالقتل والجراح ونحو ذلك، على أيدي المؤمنين، وبما يصيبهم من العقوبات والمصائب بسب كفرهم، وعذاب معنوي للقلوب لما هم عليه من الشقاء الدنيوي والاضطراب النفسي والحيرة والتبلبل بسبب ما هم عليه من الكفر.

وعذاب في الآخرة حسي للأبدان ومعنوي للقلوب في النار وما فيها من الجحيم والزمهرير والحميم والزقوم، وما فيها من التوبيخ والتقريع، كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨- ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن

نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي لما فيه من تحطيم القلوب والمعنويات، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤- ٧]، أي: التي تحطم كل ما يلقى فيها وتشرف على القلوب فتحطمها تحطيما معنويًا.

قال ابن القيم: «ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار؛ فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس تجاه هداية الكتاب والإنذار والإيمان إلى قسمين: متقين مؤمنين- ذكر الله صفاتهم في الآيات السابقة، وكفار، منهم كفار خلص كفرهم صريح ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وكفار منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾- إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الآيات: ٨-٢٠].

٢- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

٣- تسلية الرسول ﷺ أمام تجبر قومه وعنادهم وكفرهم لئلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

٤- أن على الرسول ﷺ الإنذار والتخويف والتحذير، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

٥- استواء الإنذار وعدمه عند من عميت بصيرته، نسأل الله الهداية.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦٥).

٦- عقوبة الله تعالى للكفار بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم وبالغشاوة على أبصارهم، فلا ينفذ الإنذار إلى قلوبهم، ولا إلى أسماعهم، ولا ترى طريق الحق والآيات أبصارهم، فانغلقت لديهم أبواب الاهتداء وطرقه بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ﴾.

٧- الوعيد للذين كفروا بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ذكر الله ﷻ المؤمنين وصفاتهم وما هم عليه من الهداية والفلاح في خمس آيات في مطلع هذه السورة ثم ذكر الذين كفروا وما هم عليه من الإصرار على الكفر وعدم الإيمان وتوعدهم بالعذاب العظيم في آيتين. ثم أتبع ذلك بذكر الفريق المذبذب بين المؤمنين والكافرين وهم المنافقون، وبيان ما هم عليه من دعوى الإيمان والكذب والمخادعة ومرض القلوب، والإفساد في الأرض والمكابرة والسفه والضلال، وما هم فيه من الظلمات والحيرة وشدة الخوف مبينا إحاطته ﷻ بهم متوعدًا لهم بالعذاب الأليم في ثلاث عشرة آية من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٨- ٢٠].

فبدأ ﷻ بذكر الطيب ثم الخبيث ثم الأخبث منه، نزولا من الأعلى إلى الأسفل؛ فبدأ ﷻ بذكر المتقين وصفاتهم تعظيمًا لشأنهم وتشريفا وتكريما لهم، ثم ثنى بذكر الكافرين، وقدمهم على المنافقين؛ لأن كفرهم دون كفر المنافقين، ثم ختم بذكر المنافقين، وما هم عليه من الكفر والنفاق، وأخّرهم، وأطال في ذكر أعمالهم السيئة؛ تحقيرا لهم، وتحذيرا منهم، وبيانا لما هم عليه من الصفات الذميمة، إذ جمعوا بين الكفر والنفاق والكذب وسيء الأخلاق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

الواو: عاطفة، أو استئنافية، و«من» للتبعيض، أي: وبعض الناس ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المنافقون، ولم يصفهم بإيمان ولا كفر؛ لأنهم مذبذبون بين ذلك، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال

تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

و «الناس» أصلها الأناس فخففت بحذف الهمزة لكثرة الاستعمال، قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا[(١)]

وهو مأخوذ من «النوس» وهي الحركة، أو من «الإيناس» وهو المشاهدة، أو من «الأنس» لأنهم يأنس بعضهم ببعض، وكل هذه المعاني فيهم، فهم ينوسون ويتحركون لقضاء حوائجهم، وهم يشاهدون أي غير مستترين كالجن، وهم أيضًا يأنس بعضهم ببعض؛ لأن الإنسان- كما قال ابن خلدون: «مدني بالطبع».

أما القول بأنه مشتق من النسيان كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فهذا ليس بصحيح، قال ابن القيم: «لأنه لو كان الإنسان مشتقًا من النسيان لقيل: «نسيان» لا «إنسان»[(٢)].

و«من» في قوله ﴿مَن يَقُولُ﴾ موصولة، أي: الذين يقولون بألسنتهم صدقنا بالله وباليوم الآخر، ولفظ الجلالة «الله» علم على الرب ﷻ ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيما، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أعيد حرف الجر للتوكيد. واليوم الآخر: يوم القيامة وما فيه من بعث الأجساد والحساب والجزاء على الأعمال، ويدخل فيه كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه وغير ذلك. وسمي اليوم الآخر لأنه يأتي بعد نهاية الدنيا.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، والباء لتأكيد النفي، أي: وما هم بمؤمنين بقلوبهم بل هم كفرة مكذبون، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص (٣٢)، «لسان العرب» مادة «نوس».
(٢) انظر «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤).

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾ [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور: ٤٨]، فنفى عنهم الإيمان؛ لأنهم ادعوا الإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، ولم تنقاد جوارحهم. والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

فهؤلاء الصنف ليسوا من المؤمنين الخلص، ولا من الكفار الخلص، بل هم بين هؤلاء وهؤلاء، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما قال تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء: ١٤٣].

وسموا بالمنافقين أخذًا من نافقاء اليربوع، وهو دويبة صغيرة، يحفر جحرًا في الأرض، ويجعل في نهايته مخرجًا للطوارئ، عليه قشرة رقيقة من التراب، فإذا داهمه عدو من باب جحره المسمى بالقاصعاء ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

وهكذا المنافقون يأتون المؤمنين بوجه، ويقولون: نحن منكم، ويأتون الكفار بوجه آخر ويقولون: نحن معكم- كما ذكر الله عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وهذا هو النفاق الاعتقادي الذي يخلد أصحابه في النار، وهم أشد كفرًا من أهل الكفر الظاهر؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والتكذيب، ودعوى الإيمان، وهم أشد الناس عذابًا، فهم في الدرك الأسفل من النار، وهم أشد خطرًا على الأمة؛ لوجودهم بين ظهراني المسلمين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ [المنافقون: ٤] فحصر العداوة فيهم.

ولم يوجد النفاق أول الأمر في مكة بل الذي وجد خلافه وهو إخفاء الإيمان خوفًا من بطش المشركين وتعذيبهم، ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه، وأعز الله الإسلام بعد وقعة بدر أظهر أناس من أهل المدينة ومن أهل الكتاب، ومن الأعراب الإيمان نفاقًا، وأبطنوا الكفر حفاظا على أنفسهم وأموالهم، وكيدًا للإسلام، كعبد الله بن أبي بن

سلول، ففضحهم الله وأظهر عوارهم في هذه الآيات، وفي غيرها من الآيات في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: المخادعة: المفاعلة من الخدع، أو الخداع، وهو التغرير.

أي: يعتقدون أنهم يخدعون الله بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، وأن ذلك نافعهم عنده، وأن ذلك يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على لفظ الجلالة «الله» أي: ويخادعون الذين آمنوا بما يظهرون من الإيمان مع كفرهم في الباطن، مداهنة ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ويعيشوا عيش البهائم.

﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «يُخادعون» بضم الياء وألف بعد الخاء وكسر الدال، وقرأ الباقون «يخدعون» بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال من غير ألف.

الواو: حالية، و«ما» نافية في الموضعين، و«إلا» أداة حصر أي: وما يخدعون في الحقيقة ويضرون بهذا النفاق إلا أنفسهم، فضرر خداعهم محصور فيهم، وعلى أنفسهم، ولا يضرون الله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢].

لأن الله ﷻ يعلم سرهم وعلانيتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، كما أنهم إن خدعوا المؤمنين في الظاهر فعاقبة خداعهم ونهايته عليهم وهم المتضررون به لا غيرهم.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: وما يحسون، وما يدركون؛ لضعف أحاسيسهم وموت شعورهم، وجهلهم أنهم في مخادعتهم الله والمؤمنين إنما يخدعون أنفسهم، حيث منوها الأماني الكاذبة، وأوردوها موارد الشقاء والهلاك والردى.

وهذا لعمر الله من أدهى المصائب وأعظم البليات أن يخدع الإنسان نفسه وهو لا

يشعر.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض القلب خروجه عن صحته وسلامته واعتداله وهو نوعان:

أ- مرض حسي، كمرض سائر أعضاء البدن؛ كارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، وارتخاء عضلات القلب، وانسداد صماماته ونحو ذلك.

ب- ومرض معنوي، وهو ينقسم إلى قسمين:

١- مرض شهوة، وهو أقسام ثلاثة: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة اتباع الهوى.

٢- ومرض شبهة وشك وكفر ونفاق، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

قال ابن القيم: «ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفا بالحق محبا له، مؤثرا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمى الله كلا منهما مرضا»(١).

وفي مجيء جملة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اسمية دلالة على ثبوت هذا المرض وتمكنه من قلوبهم.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الفاء عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فتسبب- ذلك أن زادهم الله مرضا غطى على قلوبهم وران عليها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وفي هذا دلالة على أن سبب إضلال الله لهم هو من تلقاء أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦٦).

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

كما أن فيه دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه إذا كان مرض القلوب يزيد وينقص فكذلك الإيمان يزيد وينقص.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب: العقاب ﴿أَلِيمٌ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيا للأبدان ومعنويا للقلوب من التقريع والتوبيخ والإهانة لهم مما قد لا يقل عن الألم الحسي، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٧].

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بفتح الياء وإسكان الكاف وكسر الذال. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال «يُكَذِّبون».

أي: بسبب كذبهم بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وبسبب تكذيبهم الله ورسوله، فاجتمع في المنافقين أقبح الصفات، وأسوأ الخصال؛ الكفر والتكذيب، وهذه شر الأحوال؛ ولهذا توعدهم الله بسبب ذلك بالعذاب الأليم، بل بأشد العذاب، وهو الدرك الأسفل من النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

أبهم القائل هنا وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ ليعم أي قائل كان، أي: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: لا تفسدوا في الأرض. والإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي، والذي يكون سببًا لهلاك الحرث والنسل، وكثرة المصائب والكوارث من الزلازل والأعاصير، والأوبئة والأمراض الفتاكة، والجدب والقحط، والحروب المدمرة،.. ٠ وفقدان الأمن وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ

عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ «إنما»: كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما نحن إلا مصلحون، أي نعمل للإصلاح، أو للإصلاح بين المؤمنين والكافرين، ومدارة هؤلاء وهؤلاء، وهذا منهم قلب للحقائق، وجمع بين فعل الإفساد واعتقاده إصلاحا؛ لأن نظرتهم للحياة نظرة مادية بهيمية فقط.

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

«ألا» للتنبيه والتوكيد، و«إن» للتوكيد، وضمير الفصل هم أيضًا للتوكيد والحصر.

﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أي: المفسدون حقًا غاية الإفساد وأشده، وليس غيرهم؛ ولهذا قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

فكذبهم ﷻ بدعواهم الإصلاح، وحصر الإفساد فيهم، وأكده بأربع مؤكدات وهي «ألا» التي تفيد التنبيه والتوكيد، و«إن» وضمير الفصل «هم»، وتعريف الخبر «المفسدون».

فهم أشد الناس فسادًا في الأرض بكفرهم بربهم ومعصيتهم له وشكهم في دينه، وزعمهم كذبًا أنهم مؤمنون، وهم أعظم خطرًا على الإسلام والمسلمين من جميع طوائف الكفر والضلال، من أهل الشرك والإلحاد ومن اليهود والنصارى وغيرهم؛ لأنهم بهذا المسلك وهو إظهار الإسلام مع إبطان الكفر يكيدون للإسلام أشد من

أعدائه الظاهرين، فهم بين أظهر المسلمين يطلعون على أسرارهم ويفشونها إلى أعدائهم يزعمون أنهم مع المؤمنين، ويوالون أهل الكفر من اليهود والمشركين وغيرهم، بل يتمالؤون معهم ضد المؤمنين، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: ولكن لا يحسون ولا يدركون أنهم هم المفسدون حقًا، بل يرون الإفساد إصلاحا، والإساءة إحسانا، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقد أحسن القائل:

يقضـى عـلى المـرء في أيـام محنتـه حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الكاف: للتشبيه، وهي صفة لمصدر محذوف، أي: آمنوا إيمانًا كإيمان الناس، أي: إيمانًا يتوافق فيه الفعل مع القول، والباطن مع الظاهر؛ قولًا باللسان، واعتقادا بالقلب، وعملا بالجوارح، إيمانًا بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبكل ما يجب الإيمان به من المغيبات السابقة واللاحقة، مما أخبر الله به ورسوله ﷺ واستسلموا لذلك وانقادوا له بفعل الأوامر وترك النواهي.

والمراد بالناس الصحابة- رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

وإنما قيل لهم هذا القول؛ لأن إيمانهم مجرد دعوى، وقول بلا عمل، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم؛ ولهذا لم ينكروا ذلك، بل قالوا إقرارًا منهم، وأنفة أن يكونوا مع المؤمنين بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة:

﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي والتحقير، أي: أنؤمن إيمانًا كإيمان السفهاء، ويعنون بذلك- أخزاهم الله- صحابة رسول الله ﷺ وغيرهم من المؤمنين.

والسفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف، والسفه ضد الرشد والعقل، والسفه يكون في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقالت الجن فيما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

كما يكون السفه في المال؛ فالسفيه في المال من لا يحسن التصرف فيه ولا يعرف وجوه المصالح فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

ويكون السفه في الولاية، فالسفيه في الولاية من لا يحسن التصرف فيها، سواء كانت من الولايات العامة، أو الولايات الخاصة.

ومراد المنافقين في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ رمي الصحابة وغيرهم من المؤمنين بالسفه في الدين والذي هو أعظم أنواع السفه؛ ولهذا رد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا دأب المكذبين ودعاة الباطل يصفون أهل الحق ومن يدعوهم إلى الله من الرسل وغيرهم، ويرمونهم بأبشع الصفات، لينفروا الناس منهم ومن اتباعهم، فيرمونهم بالسفه والجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]،

وقالوا أيضًا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وكم لاقى علماء ودعاة الإسلام عبر تاريخ الأمة الطويل من الأذى والاتهام من دعاة الباطل، من المنافقين والكفار وأهل البدع والمعاصي.

وفي هذا دروس للدعاة إلى الله ﷻ؛ ليعلموا أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وليس مفروشا بالورود والرياحين، وكما قيل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(١)

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أكد ﷻ في هذه الآية السفه وحصره فيهم، كما أكد وحصر الإفساد فيهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

فهم السفهاء حقًا؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا بما جاءهم من الحق مما يدل على جهلهم بمصالح أنفسهم وسعيهم فيما يضرها وهذا هو عين السفه، وفي هذا رد عليهم ودفاع عن المؤمنين وقد أحسن القائل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل(٢)

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون العلم الذي ينتفعون به، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء، لعمى قلوبهم وانطماس بصائرهم، وجهلهم المطبق.

وقال هنا ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى عنهم العلم لأن السفه والجهل أمر معنوي، بينما قال في الآية السابقة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لأن الإفساد في الأرض أمر حسي يدرك بالحواس.

فسبب ضعف إدراكهم وموت حواسهم وجهلهم المطبق، وعدم علمهم وانطماس بصائرهم يدَّعون الإيمان وهم كاذبون، ويخدعون أنفسهم وما يشعرون، ويفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون، وهم في الحقيقة هم المفسدون ولكن لا يشعرون،

---

(١) البيت للشاعر وليد الأعظمي من قصيدة له في كتابه «الزوابع» بعنوان «شباب الجيل». انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» ص٨٥.

(٢) البيت للمتنبي، انظر: «ديوانه» ص١٨٠.

ويرمون المؤمنين بأنهم السفهاء وهم في الحقيقة هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: إذا قابلوا الذين آمنوا أو كانوا معهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قالوا للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم، وأظهروا ذلك لهم نفاقًا ومصانعة دون اعتقاد ذلك بقلوبهم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ ضُمن الفعل ﴿خَلَوْا۟﴾ معنى (رجعوا) أو (انصرفوا) ولهذا عدي بـ«إلى» ولو لم يضمن لقيل: مع شياطينهم، والمعنى: وإذا رجعوا أو انصرفوا إلى شياطينهم خالين بهم، ليس معهم أحد من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن بمعنى بعد عن رحمة الله تعالى، وعن كل خير، وهو: كل متمرد عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى، من الإنس والجن والحيوان قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»[(١)].

والمراد شياطينهم كبراؤهم ورؤساؤهم في الكفر من المنافقين واليهود والمشركين.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قالوا لشياطينهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: إنا على دينكم، ثابتون على ما أنتم عليه من الاعتقاد، أعوان لكم على من خالفكم.

وقد خاطبوا المؤمنين بقولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بالجملة الفعلية بلا تأكيد، إما؛ لعلمهم أن ذلك لا يروج على المؤمنين، وإما؛ لعدم اهتمامهم بهم، وخاطبوا قومهم بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بالجملة الاسمية المؤكدة بأن الدالة على الثبوت؛ تأكيدًا لقومهم، وكان الأولى العكس، أي التأكيد للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يشكّون في إيمانهم، أما قومهم فلا داعي لتأكيد الكلام لهم لعلمهم بهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تقرير وتأكيد لقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر «مستهزون» بالتخفيف بلا همز، وقرأ الباقون بالهمز ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

و«إنما»: أداة حصر، أي ما نحن إلا مستهزئون.

والاستهزاء: السخرية، يقال: هزأ، واستهزأ، فالسين والتاء للتأكيد، أي: إنما نحن ساخرون بالمؤمنين، مخادعون لهم، بقولنا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فهم يَلْقُون المؤمنين بوجه ويلقون الكافرين بوجه آخر؛ ذلًا منهم وخوفًا وجبنًا؛ ليسلموا من ملامة هؤلاء وهؤلاء، ولو عاشوا أذل العيش، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: من الذي يعاقبهم وينتصر للمؤمنين فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ ولهذا قدم اسم الله ﷻ تقوية للحكم، وتنويهًا بشأن دفاعه عز وجل عنهم، ونصره لهم.

والمعنى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: الله يستهزئ ويسخر بهم مجازاة لهم على استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وإلا فإنه ﷻ لا يوصف بالاستهزاء والسخرية والمخادعة والمكر والكيد مطلقًا، وإنما يستهزئ ﷻ بالمستهزئين به وبدينه وبرسله وأوليائه، ويخادع المخادعين في ذلك، ويمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين. ووصفه بأنه يستهزئ بالمستهزئين، ويخادع المخادعين ويمكر بالماكرين ويكيد للكائدين من كماله ﷻ وتمام قدرته وقوته؛ ولهذا قال هنا ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠، الأنبياء: ٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر، فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاءً على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلًا حسنًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وكذلك جزاء المعتدي بمثل فعله، فإن الجزاء من جنس العمل، وهذا من العدل الحسن، وهو مكر وكيد إذا كان يظهر له خلاف ما يبطن».

ومن استهزائه ﷻ بهؤلاء المنافقين المستهزئين أن زين لهم ما هم عليه من الأعمال والأحوال الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، وعصم دماءهم وأموالهم، مع ما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

قال ﷻ مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

ومن ذلك ما يقال لهم في عرصات القيامة: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وهو من استهزاء الله بهم ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾، أي: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان مجاوزة الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، أي: يتجاوز حدَّه.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧١).

ومنه سمي الطاغوت؛ لتجاوزه الحد في الكفر.

ومعنى ﴿فِى طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ أي: فيما هم فيه من مجاوزة الحد في الكفر والنفاق والخداع والإفساد والاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٌ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾»(١).

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يعمهون، والعمه: الضلال والحيرة وانطماس البصيرة، كالعمى بالنسبة للبصر، أي: يتخبطون في الضلال والحيرة لا يعرفون الحق ولا يهتدون إليه، كما قال تعالى في إخوانهم الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾.

هذا مقابل قوله تعالى في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وقوله تعالى في الكفار: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الإشارة للمنافقين الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وما بعده، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»؛ تحقيرًا لهم، وإشارة لسفول منزلتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب- تحريم الظلم (٢٥٨٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)- من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ أي: اختاروا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: العماية، وهي ما هم عليه من النفاق والكفر والخداع والسفه، والاستهزاء بالمهتدين.

﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالإيمان، فبذلوا الهدى والإيمان ثمنًا للضلالة والنفاق.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ الفاء عاطفة.

و«ما» نافية، والربح في الأصل: الزيادة على رأس المال.

والتجارة: في الأصل اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

أي: فما ربحت تجارتهم حين اشتروا الضلالة بالهدى، بل خسروا أعظم الخسران، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، أي: وما كانوا على هدى في منهجهم ومسلكهم حيث اختاروا الضلالة واعتاضوا بها عن الهدى فخسروا الصفقتين فلا ربح ولا هدى.

الفوائد والأحكام:

١- دعوى فريق من الناس الإيمان بالله واليوم الآخر قولًا بألسنتهم فقط وهم المنافقون، ونفي الله ﷻ وإبطاله لقولهم، وتأكيد عدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢- لابد في الإيمان من تطابق القلب وتواطؤه مع اللسان، فالإيمان بمجرد اللسان ليس بشيء.

٣- بلاغة القرآن الكريم وحسن نظمه وترتيبه، فابتدأ في هذه السورة بذكر المؤمنين الخُلَّص عناية بهم وتعظيمًا لشأنهم، ثم ثنى بذكر من عداهم وهم الكفار، وقسمهم إلى قسمين: كفار خلَّص كفرهم صريح، ومنافقون جمعوا بين الكفر والكذب وأخَّر ذكر هذا القسم وهم المنافقون؛ لأنهم أشد كفرًا، وأعظم عذابًا، فانتقل من الحسن إلى السيئ، ثم إلى الأسوأ.

٤- في إظهار بعض الناس الإيمان مع كفرهم في الباطن دلالة على ظهور الإسلام وقوة

شوكته وقت نزول الآيات؛ لأنهم إنما سلكوا هذا المسلك لتسلم لهم دماؤهم وأموالهم؛ ولهذا لم يظهر النفاق إلا في المدينة بعد أن قويت شوكة الإسلام.

٥- أن الإيمان بالله؛ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته هو أصل الإيمان وأعظم أركانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٦- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان لقرنه بالإيمان بالله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهذا يرد كثيرًا في القرآن الكريم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز ويحمل على العمل.

٧- أن يوم القيامة هو آخر الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ ولهذا يقال: إن آخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

٨- مخادعة المنافقين الله والذين آمنوا، وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم؛ لأن الله ﷻ لا يخدع، ولا يخفى عليه شيء ولأن خداعهم للمؤمنين لا يضرهم، وإنما يعود ضرره على المنافقين أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٩- أن سبب ضلال المنافقين مرض قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

١٠- إثبات زيادة الأعمال صالحة أو غير صالحة، وزيادة الإيمان والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

١١- الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الأليم بسبب كذبهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وفي هذا ذم الكذب والنفاق.

١٢- ربط المسببات من العقوبات وغيرها بأسبابها وأن الله ﷻ لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

١٣- زعم المنافقين الإصلاح، والرد عليهم، وبيان أنهم هم المفسدون في الأرض حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

١٤- تحريم الإفساد في الأرض، وأن النفاق من أعظم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٥- ينبغي الحذر من المنافقين، وصفاتهم الذميمة، فهم يدعون الإيمان وهم كاذبون، ويزعمون الإصلاح وهم المفسدون.

١٦- موت شعور المنافقين، وضعف أحاسيسهم، وانطماس بصائرهم، وعمى قلوبهم، وهذا من أعظم البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

١٧- وجوب الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾.

١٨- شدة طغيان المنافقين وإعجابهم بأنفسهم؛ لإنكارهم على من يدعوهم إلى الإيمان، ورميهم المؤمنين بالسفه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

١٩- جرأة المنافقين ونحوهم من أعداء الله ورسله على وصف الرسل وأتباعهم بأبشع الأوصاف؛ تنفيرا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

٢٠- دفاع الله ﷻ عن المؤمنين ورده رمي المنافقين لهم بالسفه، وبيان وتأكيد أن المنافقين هم السفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

٢١- جهل المنافقين وعدم علمهم بما ينفعهم حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فجمع الله لهم بين السفه وعدم الفهم؛ لأن نظرتهم للحياة نظرة مادية بهيمية يريد الواحد منهم العيش ولو عاش عيشة الذل والخسف، عيشة الحمار.

٢٢- أن كل من لم يؤمن فهو سفيه جاهل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢٣- ذل المنافقين وخوفهم من الناس وتذبذبهم بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

٢٤- ذم المنافقين لأن الله سمى كبراءهم ورؤساءهم شياطين فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى

شَيَٰطِينِهِمْ ﴾.

٢٥- استهزاء المنافقين بالمؤمنين بقولهم إذا لقوهم: «آمنا»؛ ومن ثم قولهم إذا خلوا إلى شياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾.

٢٦- أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به أو برسله وأوليائه أو بشرعه على سبيل المجازاة لهم، وهذا حق؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ فزين لهم ما هم عليه من النفاق بعصمة دمائهم وأموالهم حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم.

٢٧- أن الجزاء من جنس العمل، فالله ﷻ إنما يستهزئ بالمستهزئين، وهذا عدل وحق.

٢٨- إمداد المنافقين والإملاء لهم وتركهم على ما هم عليه من العتو والعناد؛ ليزدادوا طغيانا وإثما؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

٢٩- أن الطغيان ومجاوزة الحد سبب للضلال والحيرة، وعمى البصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

٣٠- أن الله ﷻ يملي للظالم حتى يستمر ويزداد في طغيانه حتى إذا أخذه لم يفلته.

٣١- تحقير المنافقين وبيان سفههم وفساد رأيهم، حيث اشتروا الضلالة بالهدى، واختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾.

٣٢- خسران المنافقين الصفقتين، فلا تجارتهم ربحت- فيما يطمعون فيه بالربح- ولا اهتدوا لطريق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

وبهذا خسروا الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

٣٣- أن الربح كل الربح في اتباع هدى الله والإيمان به، وأن الخسران كل الخسران في الضلال والكفر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ دعوى المنافقين الإيمان كذبًا ومخادعتهم وإفسادهم في الأرض وزعمهم الإصلاح ورميهم المؤمنين بالسفه واستهزائهم بهم ورد عليهم في ذلك كله وبيَّن أنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فخسروا الصفقتين فلم تربح تجارتهم ولم يهتدوا للحق.

ثم ضرب لهم ولما هم عليه من النفاق والحال السيئة مثلين في هذه الآيات: أحدهما ناري فيه بيان عظم ما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة، والثاني مائي فيه بيان عظم ما هم من الخوف.

وضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني فَيُشبّه أمر معنوي بأمر حسي، وقد يشبه أمر حسي بأمر حسي أوضح منه، وقد يشبه أمر معنوي بأمر معنوي أظهر منه، وكل ذلك بقصد الإيضاح والبيان.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

هذا هو المثل الناري فشبه الله المنافقين بمن استوقد نارًا... إلخ.

قوله: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: مثل المنافقين، أو فريق منهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا.

﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الكاف للتشبيه، والمثل: الشبه، أي: كشبه الذي استوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة، أي: طلب من غيره أن يوقد له نارًا، أو أن يعطيه جذوة من نار، أو أوقد نارًا بنفسه، وعلى هذا تكون السين والتاء فيه للمبالغة، وضرب هنا مثل الجماعة بالواحد، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ

﴿ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ «ما» موصولة أي: فلما أنارت الذي حول هذا المستوقد فانتفع بها وأبصر ما عن يمينه وشماله، وما أمامه وما خلفه.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب الشرط «لما» أي: ذهب الله بما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان؛ ولهذا لم يقل: ذهب الله بنارهم.

وفي التعبير بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون أن يقول «أذهب الله نورهم» تأكيد لعدم عود النور إليهم؛ لأنه لو قال: أذهب الله نورهم، لاحتمل رجوع النور إليهم، فلما قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دل ذلك على تأكيد عدم عودة النور إليهم.

وجمع الضمير هنا وفيما بعده؛ لأن الاسم الموصول «الذي» يفيد العموم، أي: ذهب الله بنور هذا المستوقِد ومن معه، وترتيب ذهاب نورهم بعد الإضاءة ترتيب الجواب على الشرط يدل على أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور.

وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم- مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة النور فإذا ذهب النور فذهاب زيادته وهو الضوء من باب أولى.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل، والنار إنما تضيء في الليل لا في النهار.

وأيضًا ظلمة أخرى، وهي التي تحصل بعد ذهاب النور وانطفائه مباشرة، وهي أضعاف الظلمة الموجودة قبل إيقاد النار.

﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ دال على شدة الظلمة، أي: لا يبصرون، أي شيء مهما كان كبيرًا أو صغيرًا قريبًا أو بعيدًا، أو غير ذلك.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم صم بكم عمي.

و «صم» جمع أصم، وهو الذي لا يسمع، أي: صم لا يسمعون أي صوت مهما كان عاليًا أو منخفضًا.

﴿بُكْمٌ﴾ جمع «أبكم» وهو الذي لا ينطق، أي: بكم لا ينطقون بأي كلمة.

﴿عُمْىٌ﴾ جمع «أعمى» وهو الذي لا يُبصر، أي: عمي لا يبصرون أي شيء مهما كان.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ الفاء: عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فهم بسبب ذلك لا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل استيقاد النار وبعده، وعماهم عليه من الصم والبكم والعمى فبقوا في الظلمات ضالين متحيرين.

فشبه الله ﷻ حال المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى، وما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، فكما أن هذا المستوقد قد صار هو ومن معه في أشد الظلمات الحسية بعد ذهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم الآذان فلا يسمعون، وبكم الألسنة فلا ينطقون، وعمي الأبصار فلا يبصرون، فهم لا يتمكنون من الرجوع إلى حالهم قبل هذه الظلمات فكذلك حال المنافقين يعطون في الدنيا نورًا معنويًا ظاهرًا حسب إيمانهم الظاهر يعيشون به بين المؤمنين عيشة مادية بهيمية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، مع ما في قلوبهم وباطنهم من الظلمات المعنوية الشديدة والمتراكمة؛ ظلمات الجهل والكفر والشك والنفاق والتذبذب والحيرة، لا يبصرون ولا يهتدون إلى طريق الحق، صم القلوب لا يستمعون إلى داعي الحق، ولا ينتفعون بما يسمعون فكأنهم لا يسمعون، كما قال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

قال الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا[1]

بكم الألسنة لا ينطقون بالحق ولا يسألون عنه فكأنهم لا ينطقون.

﴿عُمْيٌ﴾ القلوب لا ينظرون في آيات الله الكونية والشرعية، ولا يتأملون فيها، ولا يهتدون بها في معرفة الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا

(١) البيت لقعنب بن أم صاحب. انظر: «أمالي المرتضى» ١/ ٣٢.

لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

كما يُعطى المنافقون يوم القيامة بصيصًا من النور الظاهر يذهب وينطفئ على جسر جهنم أحوج ما كانوا إليه فيضلون في أحلك الظلمات ويكردسون في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وقال ﷺ: «**إن الله يعطي كل مؤمن ومنافق نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله تعالى ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون**»(١).

قال ابن القيم:

«وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بأنها في البرزخ، وفسرت بيوم القيامة، والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاث، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ، وفي القيامة بمثل حالهم، جزاءً وفاقًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود إلى العبد فيه ما كان حاصلًا منه في الدنيا؛ ولهذا يسمى يوم الجزاء ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ومن كان مستوحشا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت به عينه يوم القيامة وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إشارة إلى أن المنافقين لما آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم كان ما معهم من النور كالمستعار، وذلك إنما حصل لهم بسبب وجودهم بين ظهراني المؤمنين.

وفي قوله: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ إشارة إلى أن النور لم ينفذ إلى قلوب هؤلاء المنافقين،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- آخر أهل النار خروجًا منها (١٩١)، وأحمد (٣/ ٣٨٣)- من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنهما.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٨١).

وإنما كان خارجًا عنها، لذا لم يستفيدوا منه إلا استفادة ظاهرة مادية مؤقتة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ تشبيه للمنافقين بمن حصلت له إضاءة ثم أعقبها ذهاب النور وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ لأن المنافقين آمنوا ثم كفروا، أو لأنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ تأكيد لذهاب النور كلية عن هذا المستوقد ومن معه وذهاب الإضاءة من باب أولى لأنها ثمرة النور، ففيها تأكيد بانعدام النور كلية من قلوب هؤلاء المنافقين في الدنيا فهم في حيرة واضطراب وشك وجهل وكفر، وهكذا حالهم في البرزخ وفي عرصات القيامة.

وفيه دلالة على أن النور من الله ﷻ يعطيه من يشاء بفضله ويمنعه عن من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهنا إشارة إلى أن نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم وإلا انطفأت جذوته، كما أن النار بحاجة إلى مادة وقود وإلا انطفأت.

وفي تشبيههم بأشد الظلمتين وهي الظلمة الحادثة بعد ذهاب النور بيان ما هم فيه من الحيرة والشكوك والكفر مما ليس عند الكافر صراحة؛ لأنه لم يخرج من الظلمة قط وقد خرجوا منها ثم ارتكسوا، أو لأنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن.

قال ابن القيم: (فهذه حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[1].

وأفرد النور وجمع الظلمات، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، وذلك لأن طريق الحق واحد وهو

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٢).

صراط الله المستقيم، وطرق الباطل متعددة متشعبة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ تشبيه المنافقين بمن فقدوا حواس السمع والنطق والبصر؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، فهم صم عن سماع الحق والانتفاع به، بكم عن قول الحق والنطق به، عمي عن النظر والتأمل في آيات الله بأبصارهم وبصائرهم.

قال ابن القيم: «فإن الهدى يدخل على العبد من ثلاثة أبواب؛ مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها»(١).

وقال أيضًا: «فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم»(٢).

ولهذا قال ﷻ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يرجعون ولا يخرجون عما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق؛ لحرمانهم من نور الله ﷻ وانسداد أبواب الهداية لديهم بالصمم والبكم والعمى- نسأل الله تعالى الهداية والعافية، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين وأعمالهم وأحوالهم، وهو المثل المائي فيه بيان ما هم فيه من شدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «أو»: عاطفة، وهي للتنويع والتقسيم، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل» أي: أو مَثلهم مثل أصحاب صيب.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٣).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٨٥).

و «الصيب» المطر الذي يصوب، أي: ينزل وينحدر من السماء بسرعة وبكثرة، كما قال الشاعر:

كأنهمُ صابت عليهم سحابة ... صواعقها لطَيْرِهنَّ دبيبُ
فلا تعدلي بَيني وبين مُغَمَّر ... سُقِيتِ روايا المزن حين تصوب[1]

والمراد بالسماء العلو.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ وهي: ظلمة الليل، بدليل قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ وهذا لا يكون إلا في الليل، وظلمة السحاب المتراكم بعضه فوق بعض، وظلمة المطر الكثيف، فهي ظلمات ثلاث، ونكرت للتعظيم.

﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي: وفيه رعد وبرق، و«الرعد» هو الصوت الذي يسمع من السحاب، وقد يكون ذلك بسبب احتكاك السحاب، أو زجر الملك أو غير ذلك و«البرق» هو النور الذي يلمع في السحاب، وقد يكون ذلك بسبب اجتماع سالب وموجب أو غير ذلك، وكل ذلك بقدرة وتدبير العليم القدير.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير في «يجعلون» يرجع إلى أصحاب الصيب أي: يجعل أصحاب الصيب ﴿أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾.

و «الأصابع» جمع «أصبع».

والمعنى يجعلون بعض أصابعهم في آذانهم، أي: يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه، أي: بعض أصبعه، وهي الأنملة التي يمكن دخولها في الأذن.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ «من» سببية، أي: بسبب الصواعق، و«الصواعق»: جمع صاعقة مأخوذة من «الصعق» وهو الإهلاك؛ لأنها تهلك وتحرق ما أصابته من إنسان أو حيوان أو نبات أو غير ذلك.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوف الموت، والموت: ضد الحياة، وهو عبارة عن خروج الروح عن البدن ومفارقتها له، وهو أمر كتبه الله ﷻ على جميع الخلق كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١١٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

---

(١) البيتان لعلقمة بن عَبَدة انظر «ديوانه» ص(٣٤، ٤٦).

فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾. وقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال جبريل للنبي ﷺ: **«يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه»**(١).

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلّ من جمع وأفنى من دول(٢)

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب(٣)

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد وتهديد للكافرين من المنافقين وغيرهم، أي: محيط بالكافرين علمًا وقدرة فلا يفوتونه ولا يعجزونه، ولا يغني عنهم سد الآذان بالأصابع؛ لأنه لا ينجي حذر من قدر، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «محيط بهم» بل قال: ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لإثبات كفر هؤلاء المنافقين، وأنه سبب وعيدهم، وليعم ذلك جميع الكافرين، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [الانشقاق: ١٩، ٢٠].

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ «كاد» كغيرها من الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات، أي: يقارب البرق من شدة إضاءته ولمعانه ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يذهب بأبصارهم ويزيلها بسرعة، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أي: كلما أضاء لهم البرق مشوا فيه منتهزين فرصة لمعان البرق وإضاءته الخاطفة اليسيرة لا يفوتونها.

---

(١) أخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ «الحاكم في المستدرك» (٤/ ٣٦٠) حديث (٧٩٢١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٩ حديث (١٠٥٤)، وأخرجه البيهقي أيضًا في «الشعب» من حديث جابر ﷺ وأخرجه أبو نعيم أيضًا في «الحلية» (٣/ ٢٠٢) من حديث علي ﷺ. وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٩).

(٢) البيت لابن الوردي. انظر: «ديوانه» ص٧١.

(٣) البيت للشاعر ابن عثيمين من قصيده له في رثاء صديقه عبد الله العجيري، مطبوعة بملحق في آخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧.

﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: وإذا أظلم عليهم البرق بانقطاعه، وحصول الظلمة الشديدة بسبب ذلك ﴿قَامُواْ﴾ أي: وقفوا متحيرين لا يستطيعون المشي من شدة الظلمة الحاصلة من انقطاع ضوء البرق- مع الظلمات السابقة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ الواو: عاطفة، و«لو» شرطية غير عاملة وهي حرف امتناع لامتناع.

أي: ولو شاء الله لأزال سمعهم وأبصارهم بهذه الصواعق والبرق، أو بزيادتها، أو بدون ذلك ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الجملة فيها تعليل وتقرير لما قبلها، وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المتعلَّق به وهو قوله: ﴿قَدِيرٞ﴾؛ لبيان عموم قدرته ﷻ على كل شيء، أيًا كان، ومهما كان هذا الشيء، فلا يعجزه شيء ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

فكما شبه الله ﷻ في المثل الأول الناري المنافقين أو فريقًا منهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا بمن استوقد نارًا، شبههم في هذه الآيات أو فريقًا منهم، وهم الذين لم يؤمنوا قط في هذا المثل الثاني المائي بأصحاب صيب ومطر نازل من السماء بسرعة وكثرة، فيه ظلمات متراكمة؛ ظلمة الليل وظلمة السحاب، وظلمة المطر الكثيف، وفيه رعد شديد، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، وذلك لا ينفعهم إن أراد الله إهلاكهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وفيه برق يكاد يزيل أبصارهم من شدة لمعانه كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم وقفوا متحيرين من شدة الظلمة المضاعفة التي تعقب ذهاب ضوء البرق- مع الظلمات السابقة، فاجتمع عليهم في هذا الصيب ظلمات شديدة متراكمة، ورعد قاصف، وصواعق تصم الآذان، وبرق خاطف يكاد يزيل الأبصار، فصاروا بسبب ذلك كله بأشد الإزعاج والفزع والقلق والخوف من الموت، كما قال تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أو من ذهاب سمعهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ بهذه الصواعق والبرق، أو بزيادة صوت الرعد والصواعق وزيادة لمعان البرق، أو

بدون ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فكان نصيب هؤلاء القوم من الصيِّب الخوف والفزع والقلق بسبب ما فيه من ظلمات، ورعد وبرق وصواعق، ولم يفطنوا إلى ما وراء ذلك من كون هذا الصيب به الخصب وحياة الأرض والنبات والحيوان.

وهكذا حال المنافقين فيما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق، وما هم فيه من شدة الخوف والحيرة والقلق والفزع وانزعاج القلوب أمام زواجر القرآن ووعيده ونذره، والتي تقرع قلوبهم المريضة وتفزعها أشبه بالرعد القاصف والصواعق الشديدة لا يملكون أمامها إلا أن يضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما فيه من الزجر والوعيد والإنذار والتهديد، فَرَقًا منهم وخوفًا، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧]، وكما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

كما لا يستطيعون الثبات بما لديهم من وميض إيمان ظاهر لم يداخل قلوبهم أمام نور القرآن وبراهينه الساطعة التي تكاد تعمي أبصارهم فلا يجدي عنهم شيئًا وضع أصابعهم في آذانهم، ولا ما معهم من وميض إيمان ظاهر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال تعالى عن إخوانهم الكفار: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾.

فكما كان نصيب أصحاب الصيب منه رعوده وبروقه وما فيه من مخاوف دون أن يفطنوا لما وراء ذلك من منافعه كذلك كان نصيب هؤلاء المنافقين من القرآن الكريم الذي به حياة القلوب والوجود كله إنما هو مجرد الشك والتكذيب لما جاء فيه من الحق والفزع والانزعاج والقلق أمام نذره وزواجره ووعيده، وفاتهم ما فيه من الهدى، فخسروا الصفقتين فلا أمن ولا هدى.

الفوائد والأحكام:

١ – ضرب الأمثال في القرآن لتقريب المعاني بتشبيه بعض الأمور المعقولة المعنوية بأشياء حسية لزيادة الإيضاح والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآيتين، وقوله:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآيتين- وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

٢- في ضرب الأمثال في القرآن الكريم دليل على صحة وثبوت الاستدلال بالقياس.

٣- تشبيه حال المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى وما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة، بحال من استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في أشد الظلمات الحسية؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

٤- في تشبيه حال المنافقين وما هم فيه من الضلال بأشد الظلمتين، وهي الظلمة الحادثة بعد ذهاب النور دلالة على شدة ما هم فيه الضلال والحيرة والكفر مما ليس عند أهل الكفر الصريح.

٥- أن ما مع المنافقين من نور هو نور ظاهر فقط بحسب إيمانهم الظاهر، ولم ينفذ إلى قلوبهم، وهو مستعار كنار المستوقد بسبب وجودهم بين ظهراني المؤمنين؛ ولهذا سرعان ما يذهب وينطفئ، هذه حالهم في الدنيا وفي عرصات القيامة؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي: بمجرد ومضة الإضاءة ذهب الله بنورهم، وإذا ذهب النور فالإضاءة من باب أولى.

٦- عقوبة المنافقين بذهاب الله بنورهم وتخليه عنهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾.

٧- سلب المنافقين كل طرق ووسائل الاهتداء، فهم صم الآذان، بكم القلوب والألسن، عمي الأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾.

٨- بقاء هؤلاء المنافقين في حيرتهم وعدم رجوعهم عن غيهم؛ وعن ما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق؛ لحرمانهم من نور الله وانسداد أبواب الهداية لديهم بسبب نفاقهم واستحسانهم ما هم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾، وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي: بلا عودة.

٩- أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

١٠- في إفراد النور وجمع الظلمات دلالة على أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة متشعبة.

١١- تشبيه حال المنافقين وما هم فيه من شدة الخوف والقلق والحيرة والفزع وانزعاج القلوب بسبب نفاقهم أمام زواجر القرآن ووعيده ونذره مع عدم انتفاعهم بذلك بحال أصحاب صيِّب، مطر نازل من السماء فيه ظلمات شديدة ورعد قاصف وصواعق تكاد تصم الآذان وبرق يكاد يخطف الأبصار فكان نصيبهم من هذا الصيِّب الخوف والفزع والقلق بسبب ما فيه من ظلمات ورعد وصواعق وبرق، ولم يفطنوا إلى ما وراء ذلك من كون هذا الصيِّب به الخصب وحياة الأرض والنبات والحيوان؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ الآيتين.

١٢- ضعف الإنسان أمام ظواهر الكون التي تجري بقدرة الله تعالى من المطر وظلمات السحاب والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما يوجب عليه الالتجاء إلى الله تعالى، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

١٣- تهديد الكافرين من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

١٤- إثبات المشيئة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾.

١٥- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء وكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾.

أثنى الله ﷻ في مطلع هذه السورة على كتابه وعظَّمه، وذكر أقسام الناس تجاهه، فمنهم من كان لهم هدى وهم المتقون، وذكر صفاتهم وأثنى عليهم وبيَّن فلاحهم، ومنهم من لم يكن لهم هدى، بل كان عليهم عمى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وهم فريقان: قوم كفروا وكذبوا به ظاهرًا وباطنًا وهم الكفار الخلص، وقوم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وهم المنافقون.

وبعد أن ذكر صفات الفريقين وتوعدهم بالعذاب العظيم والأليم أتبع ذلك بأمر الناس كلهم بعبادة الله ﷻ وحده؛ لأنه ربهم الذي خلقهم وجعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناءً، وأنزل المطر من السماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لهم فهو المستحق للعبادة دون سواه، وفي أمر الناس بعبادة الله بعد ما جاء في مطلع السورة إشارة إلى ثلاثة أمور:

أولًا: أن كتاب الله ﷻ كما أنه هدى للمتقين هداية خاصة فهو هدى للناس جميعًا هداية عامة.

ثانيًا: الترغيب للمتقين بالازدياد من التقوى والإيمان، وحث غير المؤمنين على الإيمان وإخلاص العبادة لله ونبذ الشرك والنفاق.

ثالثًا: الإشارة إلى أنه لا يهتدي بهذا الكتاب ولا ينتفع به إلا من أراد الله هدايته؛ ولهذا قدم ذكر أقسام الناس تجاه هذا الكتاب- وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل

نصب و«ها» للتنبيه و﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لـ«أي» أو بدل.

وتصدير الكلام بالنداء مع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب يفيد التنبيه والعناية والاهتمام، وتوجيه النداء للناس يدل على عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الأمر للوجوب، فعبادة الرب ﷻ واجبة على جميع الناس، وهي الهدف الذي خلقوا من أجله، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل، أي: ذللته الأقدام بالسير عليه، وعبادة الله تتضمن غاية الذل مع غاية المحبة مع غاية التعظيم لله ﷻ، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[١].

وتطلق على فعل التعبد، وعلى العبادة نفسها، كالصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغير ذلك.

وتشمل العبادة فعل الواجب والمستحب، وترك المحرم والمكروه، بل وتشمل المباح مع النية فعلًا أو تركا من جميع أعمال القلوب والجوارح فكلها مع النية عبادات؛ ولهذا قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-[٣]: «فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على جميع أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته».

ولهذا قال بعض أهل العلم: «الموفقون عاداتهم عبادات والمخذولون عباداتهم عادات».

والعبادة تقوم على أصلين: الإخلاص لله ﷻ، والمتابعة للرسول ﷺ، وهما شرطا صلاح العمل.

قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ الرب: هو الخالق المالك المتصرف في خلقه، وفي إضافة اسم الرب

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٥/ ١٦٧)- من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) في «السياسة الشرعية» ص (١٤٨).

إلى ضمير المخاطبين وهم الناس تذكير لهم بربوبيته ﷻ لهم، ربوبية عامة ليعبدوه وحده؛ لأن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن فيه تكريمًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة لـ «رب» وهي صفة كاشفة، أي: كاشفة لمعنى من معاني الربوبية؛ لأنه ليس هناك رب خلق، ورب لم يخلق فذكرهم أولًا بربوبيته العامة لهم ثم ذكرهم بأنواع نعمه عليهم وبدأها بذكر نعمة خلقه لهم؛ لأنها أول نعمه عليهم ومن أعظمها.

ومعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم وأنشأكم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] أي: قد أتى، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وأصل الخلق التقدير، أي: تقدير الشيء في العلم قبل تكوينه، ومنه «خلق الأديم» أي: تقديره بحسب ما يراد من قِطَعه قبل قطع القطعة، قال زهير[1]:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد تقدير الأديم قبل قطعه، والقطع هو الفري.

قال ابن تيمية[2]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها» ويستعمل الخلق في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وخلق الذين من قبلكم من الأمم الماضية، فهو خالق الأولين والآخرين، و«من» للتأكيد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتقوا الله وتنجوا من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولتكونوا من المتقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة من نعم ربوبيته ﷻ للناس نعمة خلقه لهم؛ ثم أتبع ذلك

(١) انظر: «ديوانه» ص٨٦ .

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٠).

بذكر جعل الأرض لهم فراشًا والسماء بناءً وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به رزقًا لهم مذكرًا لهم بوجوب عبادته وناهيا لهم عن اتخاذ الأنداد معه؛ لأنه الرب الخالق الرازق- سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤].

قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ «الذي» صفة ثانية لـ«رب»، و«جعل» بمعنى خلق أو صير وهو من الجعل الكوني، فمن نعم ربوبيته ﷻ لكم أيها الناس أن خلق لكم الأرض وصيرها لكم فراشًا.

﴿فِرَٰشًا﴾ أي: موطأة ممهدة مذللة قرارًا للجلوس والنوم والاستقرار عليها، والبناء والسكن والسير فيها وهذا من أعظم نعم الله ﷻ؛ ولهذا امتن الله ﷻ على العباد بذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي: سقفًا كالقبة على الأرض، وأودع فيها الشمس والقمر والنجوم لينتفعوا بها، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ المراد بالسماء العلو، أي: وأنزل من السحاب الذي في السماء، أي: في العلو بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿مَآءً﴾ وهو المطر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] أي: المطر.

وفي كونه ينزل من السماء فائدة ومنفعة ليعم السهل والجبل وما ارتفع من الأرض أو انخفض، كما أن في كونه ينزل على هيئة قطرات دفع للضرر عما ينزل عليه.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ الباء للسببية، أي: فأخرج بسببه، وفي هذا دلالة على أن الأمور

مربوطة بأسبابها، وأنها لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله ﷻ.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الثمرات: جمع ثمرة، أي: وأخرج بسببه الكثير من الثمرات المتنوعة والمختلفة الأشكال والألوان والطعوم والفوائد والمنافع كالحبوب والزروع والتمور والفواكه.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الرزق: العطاء، أي: عطاءً لكم أيها الناس، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: فلا تصيروا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: جمع ند، وهو العدل والنظير والشبيه والمثيل، أي: فلا تصيروا لله نظراء وأشباه وشركاء في العبادة، والنهي للتحريم، بل يفيد أشد التحريم وأعظمه؛ لأن الشرك أعظم الذنوب وأظلم الظلم، قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ، أي: الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وقد خلقك**»(١).

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ لهم، والجملة حالية، أي: والحال أنكم تعلمون أن الله ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم وجعل الأرض لكم فراشًا والسماء بناءً وأنزل المطر من السماء، وأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فربوبيته لكم وإنعامه عليكم بما ذكر وغيره يستوجب أن تعبدوه وحده كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

وذلك لأن المشركين يقرون بربوبية الله ﷻ، وأنه الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، لكنهم ينكرون توحيد الألوهية والعبادة.

وإذا كانوا يقرون بربوبية الله ﷻ فمن لازم ذلك أن يقروا بألوهيته فيعبدوه وحده لا شريك له وهو أوضح دليل عقلي على وحدانية الله ﷻ وتفرده بالألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

نفى الله ﷻ في مطلع هذه السورة الريب عن كتابه العزيز، ثم تحدى في هاتين الآيتين من ارتابوا به أو زعموا أنه من كلام البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه واختلقه من عند نفسه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأنى لهم ذلك، وفي ذلك تقرير لنبوته ﷺ بعد تقرير وجوب عبادة الله ﷻ وحده في الآيتين قبلهما.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الواو استئنافية، والخطاب لمن جعلوا الله أندادًا وارتابوا في البعث، وأنكروا رسالة النبي ﷺ، وزعموا أنه افترى القرآن واختلقه من عند نفسه.

﴿فِى رَيْبٍ﴾ أي: في شك، وصاحب الريب والشك إما أن يكون صادقًا في البحث عن الحق فهذا حري بالتوفيق له، وإما أن يكون معرضًا غير صادق فهذا في الغالب لا يوفق للحق كالمعاند.

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: من الذي نزلنا، أي: من القرآن الكريم الذي نزلناه على عبدنا محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ تعظيم لهذا المنزل وهو القرآن الكريم من وجهين الأول: الإبهام في «ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾. الثاني: قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ فكونه منزلًا من عند الله ﷻ يدل على عظمته.

كما أن فيه إثبات العلو لله ﷻ؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله ﷻ علو الذات فهو عال بذاته فوق جميع خلقه، وله علو الصفات وعلو القدر وعلو القهر.

﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: على عبدنا محمد ﷺ، ولم يقل على رسولنا؛ لأن العبودية لله ﷻ أفضل ما يوصف به البشر وعلى رأسهم الرسل- عليهم الصلاة والسلام- قال ﷺ: «**فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله**»[1] وذلك لأن العبودية لله ﷻ هي غاية الحرية، وهي الغاية من خلق الثقلين، ومن لم يعبد الله ربه عبد الشيطان، كما قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

كما قال ربعي بن عامر ﷺ في معركة القادسية لرستم ملك الفرس: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

وقد وصف الله ﷻ رسوله ﷺ بالعبودية في أعلى وأعظم المقامات مقام قربه ﷺ من ربه ليلة الإسراء، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ووصفه في مقام العبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

كما وصفه بها هنا في مقام تكريمه بإنزال القرآن عليه والتحدي به والدفاع عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ الآية.

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ جواب الشرط «إن»، وربط بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

والسورة في اللغة مأخوذة من معنى الرفعة والشرف، قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر[2].

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي أعطاك منزلة رفيعة قصرت عنها منازل الملوك، وهي مأخوذة أيضًا من معنى الإبانة والتمام والإحاطة؛ لأنها بائنة عن السورة الأخرى منفصلة عنها تامة بموضوعاتها محيطة بآياتها، إحاطة السور بالبلد.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٤٤٥).

(٢) انظر «ديوان النابغة الذبياني» ص(٥٦) جمع وتحقيق أحمد عاشور.

والسورة من القرآن في الاصطلاح: القطعة من كلام الله تعالى في كتابه ذات بداية ونهاية معروفة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر.

والأمر في قوله: ﴿فَأْتُوا﴾ يقصد به التحدي، أي: إن كنتم في شك من هذا القرآن، وفي كونه من عند الله، وتزعمون أنه من قول البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه واختلقه من عند نفسه، فإنا نتحداكم بأن يأتوا بسورة واحدة ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾، «من» بيانية والضمير يعود إلى المنزل، وهو القرآن، أي من مثل القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨].

وهذا يتناول أقصر سورة في القرآن بعدد ثلاث آيات كسورة الكوثر، كما تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الآية: ١٣].

وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ أي: من مثل الرسول ﷺ فيما جاء به من القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[(١)].

فتحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، من حيث إعجازه في ألفاظه وفصاحته وبلاغته وجزالة معانيه وصدق أخباره وعدل أحكامه وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مما سوى الله.

والمعنى: واطلبوا من استطعتم من المخلوقين من أعوانكم وشركائكم وغيرهم ليعينوكم ويشاهدونكم ويشهدون لكم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو قول البشر، افتراه محمد واختلقه- كما تزعمون.

والجواب على هذا أنه لا يمكنهم أن يأتوا بسورة من مثله مع ما هم عليه من المناوأة للرسول ﷺ وشدة العداوة له، وما هم عليه من الفصاحة والبلاغة؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، وهذا على سبيل التنزل مع الخصم، وإلا فإن عدم فعلهم معلوم؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فقطع أطماعهم، أي: ولا يمكنكم أن تفعلوا، و«لن» هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تعجيز وتحدي.

قال ابن كثير- رحمه الله-(١): «ولن لنفي التأبيد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدًا، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين».

والمعنى: فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله لأنه لا يمكنكم ذلك، فهذا دليل واضح على صدق الرسول ﷺ، وصدق ما جاء به؛ ولهذا قال بعده:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ وهذا هو جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإتيان بمثله فواجب عليكم اتقاء النار بتصديقه والإيمان به واتباعه، إذ لا وقاية لكم من النار إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٨٩).

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ صفة «النار» و﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو ما توقد به كالحطب ونحوه، أي: أنها توقد بدل الحطب بـ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ والمراد بالناس الكفار منهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

والمراد بالحجارة حجارة الكبريت العظيمة السوداء المنتنة، شديدة الاشتعال شديدة الحرارة، ومنها الحجارة التي يعبدونها من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وذلك لتحقير هذه المعبودات وتحقيق شدة حسرة من عبدوها من دون الله، حيث كانت سببًا لعذابهم وكانوا يرجون النجاة بسببها كان مصيرها مصيرهم، فلم تدفع عن نفسها فضلًا أن تدفع عنهم.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أرصدت هذه النار والحجارة وهيئت وجهزت للكافرين، وبني الفعل «أعدت» لما لم يسم فاعله؛ لأن المعِد والموجِد لها ولكل شيء معلوم وهو الله ﷻ.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «أعدت لكم» للتسجيل عليهم بالكفر، وأنه سبب دخولهم النار، وأنها لهم ولكل من كفر بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ فهي دارهم وبها خلودهم.

ويفهم من الآية أن العصاة إن لم يعف الله عنهم ودخلوها فليست لهم بدار، ولا يخلدون فيها، وفي هذا رد على الخوارج ونحوهم.

فالنار معدة موجودة الآن، كما دل على ذلك القرآن في مواضع أخرى كثيرة، ودلت عليه السنة المتواترة، كما في حديث أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الجنة والنار آنفًا فلم أر كاليوم في الخير والشر**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٤٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩).

ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر ﷻ وعيد الكافرين المكذبين للقرآن والرسول ﷺ، ثم أتبع ذلك بالبشارة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ببيان ما لهم من الجنات، وما لهم فيها من ألوان النعيم والعيش المقيم، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع الإنسان في طريقه إلى الله بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء.

قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: وبشر أيها الرسول، ومن قام مقامك.

والتبشير والبشارة: الإخبار بما يسر، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يسره استنار وجهه واتسعت بشرته، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر[1]، كما قال كعب بن مالك ﵁ في حديثه الطويل.

والتبشير سمة ظاهرة من سمات الدين الإسلامي الحنيف فقد قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى- رضي الله عنهما- لما بعثهما إلى اليمن: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**».

وينبغي أن يستلهم هذا المعنى الدعاة والمصلحون والمربون، وأن يكونوا مبشرين لا منفرين، فإن رحمة الله سبقت غضبه، وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بكل ما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، أي: وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة؛ لأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

وفي حذف الموصوف وهي «الأعمال» والاكتفاء بالصفة، وهي «الصالحات» تنبيه إلى أن المهم في الأعمال كونها صالحة.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

والعمل إنما يكون صالحًا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله ﷻ، ومتابعة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «قال الله ﷻ: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**[١].

والشرط الثاني: متابعة الرسول ﷺ، قال ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[٢].

وفي لفظ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**[٣].

ويجمع الشرطين قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: ومن أحسن دينًا ممن أخلص العمل لله، وهو متبع لرسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وسميت الأعمال الصالحة بهذا الاسم؛ لأن بها صلاح أمر الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، وبها يكون صالحًا لجوار الرحمن في جنات النعيم[٤].

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بأن لهم جنات وهذا وما بعده هو المبشر به.

أي: فإن لهم عند الله جنات، و«جنات» جمع «جنة» وهي في اللغة البستان كثير الأشجار والثمار، سمي بذلك لأنه يجن ويستر من بداخله بأشجاره الكثيرة الملتف بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ والمراد بالجنات المساكن والمنازل التي أعدها لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد- تحريم الرياء (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية- نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح- إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٤) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٦٢).

ﷺ: **«فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»**[١].

قال ابن القيم من قصيدة له طويلة في وصف الجنة ومدح نعيمها[٢]:

فلله ما في حشوها من مسرة ... وأصناف لذات بها يتنعم

ولله برد العيش بين خيامها ... وروضاتها والثغر في الروض يبسم

ولله واديها الذي هو موعد الـ ... مزيد لوفد الحب لو كنت منهم

بذيالك الوادي يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مغنم

ولله أفراح المحبين عندما ... يخاطبهم من فوقهم ويسلم

ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم

ولله كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

وحي على السوق الذي فيه يلتقي الـ ... محبون ذاك السوق للقوم معلم

وحي على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم

وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظم

منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا يتقصم

وكثبان مسك قد جعلن مقاعدًا ... لمن دون أصحاب المنابر تعلم

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري وتسيح من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» ص (٢٩- ٣٢) «إغاثة اللهفان (١/ ٧١) «طريق الهجرتين» ص (١٠١).

وهذه الأنهار تجري بغير أخدود يصرفونها كيف شاؤوا، قال ابن القيم[١]:

أنهارها في غير أخدود جرت … سبحان ممسكها عن الفيضان

من تحتهم تجري كما شاؤوا مفجـ … ـرة وما للنهر من نقصان

يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥].

قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾.

بعدما ذكر طيب المسكن وهي الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أتبع ذلك بذكر ما لهم فيها من النعيم، وبدأ بذكر ما لهم فيها من أنواع الثمرات والمأكل فقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا﴾ «كلما» ظرف زمان، وفيه إشارة إلى أن رزقهم في هذه الجنات على الدوام، وهذه مقالتهم على الدوام، والمعنى: كلما أعطوا من الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي: من أيِّ ثمرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: هذا الذي أعطينا من قبل، أي: شبيهه ونظيره لا عينه؛ لأنه يشبه ما سبقه في الشكل والحجم واللون ونحو ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ وهذا كالتعليل والسبب لقولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾.

و«متشابها» حال، أي: أعطوه وجيء إليهم به حال كونه متشابها: أي: أي يشبه بعضه بعضًا في الحُسن واللذة والفكاهة وكونه خيارًا كله، أو في المظهر والشكل والحجم واللون ونحو ذلك- مع الاختلاف العظيم والفرق الشاسع والبون الواسع في المخبر والطعم واللذة، والنكهة ونحو ذلك.

قال ابن القيم[٢]: «ومعناه يشبه بعضه بعضًا، ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها، وصغر ثمارها، وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، وهو خيار كله يشبه بعضه بعضًا».

---

(١) في «نونيته» ص (٢٢٩).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٥).

وقيل: معنى قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: في الدنيا.

والأول أصح وأظهر وأقوى في المعنى؛ لأن التشابه بين ثمار الجنة أعظم من التشابه بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولهذا قالوا من شدة التشابه هذا القول.

وأيضًا ليس كل ما في الجنة، بل ولا أكثر ما فيها من الثمار مما رزقه أو مثيله أهل الدنيا.

وأيضًا فإن ما في الجنة من الثمار لا تقاس به ثمار الدنيا فما في الجنة أعظم وأعظم، بل نعم الدنيا كلها لا تساوي شيئًا بالنسبة لنعيم الجنة فيبعد أن يكون المعنى أن أهل الجنة كلما رزقوا من ثمارها قالوا هذا الذي رزقنا في الدنيا، وقد أحسن القائل:

ألم تـــر أن الســـيف يـــنقص قـــدره إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا[1]

وهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء**»، وفي رواية: «**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**»[2].

﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾.

ذكر ما لأهل الجنة من التنعم في المأكل بأنواع الثمار المتشابهة في الظاهر المختلفة في الباطن في الطعوم واللذة ونحو ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر ما لهم فيها من التنعم بالأزواج والفرش.

أي: ولهم في الجنات أزواج مطهرة، و«أزواج» جمع زوج، والزوج في اللغة الشفع ضد الوتر، ويطلق الزوج في الفصحى على الذكر والأنثى، يقال: زوج هند، ويقال: زوج محمد، وهي لغة قريش، وبها نزل القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال تعالى في حق زكريا: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ﴾ [النساء: ١٢].

ويقال للمرأة زوجة في لغة تميم، انتحلها الفرضيون، فيقولون: هلك هالك عن زوجة، إذا كان المتوفى الرجل، ويقولون: هلك هالك عن زوج، إذا كان المتوفى المرأة.

---

(١) البيت للكميت. انظر: «مجاني الأدب» ٣/ ٦٥ .

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١/ ٤١٦) تحقيق التركي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦).

وقد جاءت في السنة وفي كلام العرب، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «ولكل واحد منهم زوجتان»[(١)].

وقال الفرزدق[(٢)]:

وإن الذي يسعى يحرش زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقال الآخر:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليّ ثم تصدعوا[(٣)]

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ طهارة مطلقة خِلْقية وخُلُقية، من جميع النجاسات الحسية، كالغائط والبول والحيض والنفاس والمخاط والبصاق وغير ذلك من الأذى والأقذار، ومن جميع الأنجاس المعنوية كالغل والحقد والحسد والغيرة والكراهية والبغضاء، وغيرها من أمراض القلوب، ومن الإثم والفواحش وسوء العشرة والأخلاق السيئة والصفات الذميمة، ونحو ذلك، وإذا كن مطهرات طهارة مطلقة فهنَّ كاملات الخَلْق والخُلُق.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما ذكر ما لهم من النعيم في الجنات مسكنا ومأكلا وأزواجًا طمأنهم على دوام ذلك، وعدم انقطاعه عنهم؛ لأن من أعظم ما ينغص النعم في الدنيا توقع انقطاعها، كما قال المتنبي[(٤)]:

أشد الغم عندي في سروري تحقق عنه صاحبه انتقالا

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: وهم في هذه الجنات مقيمون إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ فلا هي تزول، ولا هم يزولون عنها؛ ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية.

ولا خلاف بين أهل العلم في أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا يفنى أهلها ولا نعيمها، وعليه توافرت الأدلة من الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٤) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر «ديوانه» ص (٦٠٥)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٣) البيت لعبدة الطيب انظر «ديوانه» ص (٥٠)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٤) انظر: «ديوانه» ص١٤٠ .

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه يؤتى بالموت فيضجع فيذبح ذبحا على السور الذي بين الجنة والنار، ثم يقال: «**يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**»[1].

قال ابن القيم[2]: «وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين، بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده، فهي حق الله على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله العامة بجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

٥- أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم وموجب لتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٦- إثبات أن الله ﷻ هو الخالق وحده، خلق الأولين والآخرين، وخلق كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهذا من معاني ربوبيته ﷻ.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قطع لحبل التقليد للآباء واتباعهم فيما كانوا عليه من الشرك والعادات السيئة؛ لأن رب الجميع وخالقهم هو الله وحده لا معبود بحق سواه.

٨- أن الله ﷻ خلق الخلق؛ لأجل أن يتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٩- أن من أعظم نعم ربوبية الله ﷻ على الناس: أن خلقهم، وجعل الأرض لهم فراشًا ممهدة

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٦).

لعيشهم عليها، وجعل السماء بناء، وسقفًا للمخلوقات، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٠- فضل الله ﷻ العظيم وقدرته التامة في خلق الخلق، وفي خلق الأرض وجعلها فراشا، وفي خلق السماء وجعلها بناء، وفي إنزال المطر من السماء وإخراج النبات والثمرات رزقًا للعباد.

١١- حكمة الله ﷻ في جعل المطر ينزل من السماء ليعم جميع الأرض، ما علا منها وارتفع، وما سفل منها وانخفض.

١٢- إثبات الأسباب، وأنها لا تكون مؤثرة إلا بأمر الله وإرادته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٣- أن الرزق من الله ﷻ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٤- في إحياء الأرض بالنبات وإخراج الثمرات منها دليل على قدرته ﷻ على البعث.

١٥- تحريم اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٦- توبيخ المشركين الذين أشركوا مع الله غيره، وهم يعلمون أنه ربهم الذي خلقهم وخلق الأرض والسماء وأنزل المطر من السماء وأخرج به الثمرات رزقا لهم مما يوجب إفراده وحده بالعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما سبق بيانه.

١٧-أن التحريم والتوبيخ بالنسبة للعالم أشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بل إن الجاهل قد يعذر في بعض الأحوال.

١٨- تحدي المشركين المكذبين للقرآن الشاكين في كونه من عند الله بالإتيان بسورة واحدة من مثله، ودعاء شهدائهم من دون الله للاستعانة بهم وإشهادهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

١٩- دفاع الله ﷻ عن رسوله ﷺ وإثبات صدقه فيما جاء به.

٢٠- إثبات إعجاز القرآن الكريم، وأنه معجز بأقصر سورة منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ معجز بألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه وغير ذلك.

٢١- إثبات علو الله ﷻ على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَا﴾ والتنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٢- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات أنه كلام الله تعالى منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا﴾.

٢٣- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بوصفه بالعبودية؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ لأن العبودية لله تعالى أفضل ما يوصف به البشر.

٢٤- إثبات عدم قدرة المشركين ولا غيرهم على الإتيان بسورة من مثل القرآن، ونفي إمكانية أن يفعلوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد بالنار لمن كذب الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾.

٢٦- أن وقود النار- نسأل الله العافية- الناس والحجارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾، مما يوجب الحذر منها والبعد عن أسباب دخولها.

٢٧- في جعل الحجارة والأصنام التي عبدت من دون الله وقودا للنار إذلال لها وإهانة لمن عبدوها، وزيادة في ندمهم، حيث عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، بل ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه- وهذا على أحد القولين في المراد بالحجارة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

٢٨- أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ﴾.

٢٩- أن النار أعدت للكافرين، دارًا ومقرا لهم ومأوى ومصيرا؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٣٠- أن غير الكافرين من العصاة ونحوهم ليست النار لهم بدار؛ لأنهم لا يخلدون

فيها، بل ربما يعفو الله عنهم ولا يدخلونها إلا تحلة القسم، وفي هذا رد على من يقول بتخليد أصحاب الكبائر في النار كالخوارج ونحوهم.

٣١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد؛ ليجمع الإنسان في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء؛ لقوله تعالى بعد وعيد الكافرين بالنار: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٢- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بما أعد الله لهم من الجنات وألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٣- عناية الإسلام بالبشارة والتبشير؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**بشرا ولا تنفرا**»[1].

٣٤- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي هذا الرد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٣٥- أن المهم في الأعمال أن تكون صالحة، لهذا حذف الموصوف في قوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ واكتفى بالصفة وهي «الصالحات».

٣٦- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات المتعددة وما فيها من الأنهار والرزق، والثمرات المتشابهة، والأزواج المطهرة؛ ومن أعظم ذلك الأمن من انقطاع هذا النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٨٤)، والنسائي في الأشربة (٥٥٩٥)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩١)، من حديث أبي موسى ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الآية.

ضرب الله ﷻ في الآيات السابقة مثلين للمنافقين فيما هم عليه من قبيح الصفات وسوء الأحوال، ثم بين أنه ﷻ لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال مهما كان الشيء المضروب به المثل حقيرًا أو صغيرًا؛ لما في ضرب الأمثال من تقريب المعاني والأمور المعقولة، وبيان وإيضاح الحق، والموعظة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ جملة ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ في محل جر بحرف محذوف، و«ما» صفة لما قبلها.

أي: أن الله لا يمنعه الحياء أن يضرب مثلًا، أيَّ مثل كان صغيرًا أو حقيرًا، أو غير ذلك؛ لأن الله ﷻ لا يستحيي من الحق(١).

والمثل: الشَّبه يقال هذا مِثْلُ الشيء ومَثَلُه، كما يقال شبهه وشَبَهُه، ومنه قول كعب ابن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مَثَلًا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل(٢)

أي: كانت مواعيد عرقوب لها شَبَهًا.

---

(١) كما جاء في حديث أم سلمة- رضي الله عنها- قالت جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت، قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء».

أخرجه البخاري في العلم (١٣٠) ومسلم في الحيض (٣١٣)، والنسائي (١٩٧)، والترمذي في الطهارة (١٢٢).

(٢) انظر «ديوانه» ص (٨)، «جامع البيان» (١/ ٤٢٨).

ومعنى ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: أن يشبه شيئًا بشيء لبيان الحق وإيضاحه وللتذكير.

فضرب المثل تشبيه أمر معنوي معقول بشيء محسوس؛ لتقريبه وبيانه.

وذلك لما في الأمثال من الحكمة والموعظة وتحقيق الحق وبيانه، وإبطال الباطل وإزهاقه، وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، كالذباب والعنكبوت وغير ذلك، واعترض على الله في ذلك.

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ «بعوضة» عطف بيان لـ«ما» أو بدل.

و «البعوضة» حشرة صغيرة مهينة يضرب بها المثل في الحقارة والصغر.

والمعنى: لو كان المثل حقيرًا كالبعوضة.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: الفاء عاطفة، و«ما» موصولة بمعنى «الذي» أي: فالذي فوق البعوضة، أي: أكبر منها كالذباب والعنكبوت، وكمستوقد النار، والصيب من السماء، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيتين.

وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ويحتمل أن معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها وأقل منها في الحقارة، أو الصغر كالنملة.

وضرب الأمثال بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بالأشياء المحسوسة منهج قرآني لتقريب المعاني المعقولة وبيانها وإقامة الحجة على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ الفاء استئنافية، و«أما» في الموضعين حرف شرط وتفصيل.

أي: فيعلمون أن المثل الذي ضربه الله هو الحق الثابت من ربهم الموافق للواقع، فيتفكرون فيه، ويعرفون موافقة المثل لما ضرب له، ويؤمنون بأنه حق- حتى لو خفي عليهم وجه الحكمة فيه؛ ليقينهم بأن الله لم يضر به عبثًا، ويزدادون إيمانًا وهداية، بسبب إيمانهم وتوفيق ربهم؛ وربوبيته الخاصة لهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ الواو: عاطفة.

و«ماذا» «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ.

قال ابن مالك:

ومثل «ما» ذا بعد ما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام[1]

﴿بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أشاروا إليه بإشارة القريب «هذا» للتحقير، و«مثلًا» تمييز.

والمعنى: وأما الذين كفروا فيقولون- إنكارًا واعتراضًا منهم على الله وعنادًا، وحيرة منهم بسبب كفرهم: ما الذي أراد الله بهذا المثل مثلًا، فيزدادون كفرًا إلى كفرهم.

---

(١) انظر: «الألفية» ص١٥.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ هذا استئناف فيه بيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير.

والياء في قوله ﴿بِهِۦ﴾ في الموضعين للسببية، والضمير في الموضوعين يعود إلى «المثل» أي: يضل بسبب هذا المثل كثيرًا من الناس- بعدله- وهم الكفار لتكذيبهم به واعتراضهم عليه، فيزدادون ضلالًا إلى ضلالهم.

ويهدي الله بسبب هذا المثل كثيرًا من الناس- بفضله- وهم لمؤمنون بعلمهم أنه الحق من ربهم وإيمانهم به فيزدادون به هدى وإيمانًا.

كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣١].

فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لما ذكر ﷻ أنه يضل بالمثل كثيرًا أتبع ذلك بما يدل على عدله في ذلك، وأنه لا يضل به إلا الفاسقين- بعدله- بسبب فسقهم، كما هدى إليه المؤمنون بفضله بسبب إيمانهم.

قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾ «ما» نافية، والباء للسببية، والضمير يعود إلى المثل.

﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: وما يضل بسبب هذا المثل إلا الفاسقين.

و«الفاسقين» جمع «فاسق» و«الفاسق» في الأصل الخارج عن الطاعة والصلاح إلى الفساد؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة؛ لخروجها عن جحرها للفساد، ومنه سميت الفواسق، قال ﷺ: **«خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»**[1].

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٢٨)، ومسلم في الحج (١١٩٩)، وأبو داود في المناسك (١٨٤٦)، والنسائي في =

والمراد بـ«الفاسقين»: الخارجين عن طاعة الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

ويطلق الفسق على المخرج من الدين- كما في هذه الآية- ويطلق على ما دونه من المعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[(١)].

والمعنى: وما يضل بهذا المثل إلا الخارجين عن طاعة الله تعالى من الكفار، بسبب فسقهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾**﴾.

هذه الآية تفسير وبيان لصفات الفاسقين في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: وما يضل به إلا الفاسقين الذين من صفتهم كذا وكذا، وهذه صفات أهل الكفر من اليهود والمنافقين والمشركين، وأهل العمى عن الحق، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الآيات: ١٩- ٢٥].

قوله: ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ**﴾ «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ«الفاسقين».

﴿**يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ**﴾ النقض: حل الشيء ونكثه بعد إبرامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، أي: حلت غزلها ونكثته بعد إبرامه.

﴿**عَهْدَ ٱللَّهِ**﴾ ما بينهم وبين الله ﷻ مما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وبرسله وكتبه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك، ومما أوجبه الله عليهم فيما بينهم وبين الخلق.

=

مناسك الحج (٢٨٢٨)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٨٨)- من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما.

(١) سبق تخريجه.

ومعنى ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ينكثون ولا يوفون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان به وبرسله وكتبه، والقيام بما أوجبه عليهم من واجبات فيما بينه وبينهم، وفيما بينهم وبين الخلق.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: من بعد أن أخذ الله الميثاق عليهم، كما قال تعالى فيما أخذه من ميثاق على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٢، ١٣].

وقال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

وفي حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم ونقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم...**»(١).

ومبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله- كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف محذوف، أي: ويقطعون الذي أمر الله به بأن يوصل، أي: الذي أمر الله بوصله.

أي: ويقطعون كل الذي أمر الله به بأن يوصل من أداء حقوق الله ﷻ بفعل أوامره

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦).

وترك نواهيه، وأداء حق الرسول ﷺ بمحبته وطاعته واتباعه، وحق ولي الأمر بطاعته في طاعة الله تعالى، وحق الأقارب بصلتهم والإحسان إليهم كالوالدين والأولاد والأزواج، وغيرهم من الأقارب، وحق المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم، وحق الجار، وحق عامة المسلمين، وحق ملك اليمين والمعاهدين، وحق غير المسلمين، وحق البهائم، وغير ذلك.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

الإفساد ضد الإصلاح، أي: ويفسدون في الأرض إفسادا معنويًا بالكفر والمعاصي، والسعي بإظهار الباطل وإبطال الحق وإطفاء نور الإيمان، والذي يكون سببًا في الفساد الحسي، وهلاك البلاد والعباد، والحرث والنسل، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الإشارة: للفاسقين الذين وصفوا بنقض عهد الله وقطع ما أمر بوصله، والإفساد في الأرض، وأكد الخسران وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

و﴿الْخَاسِرُونَ﴾ جمع «خاسر» و«الخاسر» الذي فاته الربح، وربما فاته الربح ورأس المال، وهذا حال هؤلاء الفاسقين، فإنهم خسروا رحمة الله.

فخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الشورى: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة عدم استفادة الكفار من النذر وضرب الأمثال في القرآن الكريم، ثم أنكر عليهم كفرهم بالله ووبخهم على ذلك في هذه الآية فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب، وفي

الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب.

أي: كيف تكفرون بالله وتنكرون تفرده بالألوهية، وكماله في صفاته وأفعاله وقدرته التامة على البعث وتستكبرون عن عبادته.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم كنتم أمواتًا، أي: عدمًا لا وجود لكم، وأجساما لا أرواح ولا حياة فيكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي: فخلقكم ونفخ فيكم الأرواح وأوجد فيكم الحياة بقدرته التامة، كما قال تعالى في خطابه لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧- ٩].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**»(١).

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ثانية بعد خروجكم إلى الدنيا بمفارقة الأرواح أجسادكم عند انقضاء آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة التي لا موت بعدها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وكقوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قرأ يعقوب «تَرجِعون» بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، أي: ثم بعد إحيائكم الحياة الثانية، وبعثكم من قبوركم إلى الله تردون، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وإنما استدل عليهم بإحيائهم مرة ثانية ورجوعهم إليه مع أن هذا لم يحصل بعد لما نصب لهم من الآيات والأدلة الكونية والشرعية على أحقية البعث بعد الموت، وردهم إليه للحساب والجزاء، ومن أعظم الأدلة على ذلك ما ذكره في هذه الآية من إحيائهم بعد أن كانوا أمواتًا، فإن إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾.

أنكر ﷻ على الكافرين كفرهم بالله مع أنه ﷻ أحياهم وأوجدهم من العدم ثم يميتهم ثم يحييهم ثم يردون إليه ليجازيهم على أعمالهم، وفي هذا بيان قدرته التامة على الإحياء والإماتة، وبيان منته ﷻ على الخلق بإيجادهم من العدم، ثم أتبع ذلك بذكر خلقه لهم ما في الأرض جميعًا، ثم خلق السموات السبع؛ تأكيدًا لبيان كمال قدرته، وتمام منته على العباد؛ ليشكروه ولا يكفروه، كما قال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الآية: ٤٠].

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ اللام في قوله ﴿لَكُم﴾ للتعليل والإباحة، و«ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، و«جميعًا» توكيد.

أي: هو الذي أوجد لأجلكم الذي في الأرض كله، وأباحه لكم من الأنهار والأشجار والزروع والثمار والحيوان والمعادن وغير ذلك.

فامتن عليهم أولًا بخلقه لهم، ثم امتن عليهم ثانيًا بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا وأحله لهم؛ ليشكروه ولا يكفروه، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وفي الآية دليل على إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ، وعلى أن الأصل في كل ما في الأرض الإباحة والطهارة، إلا ما دل الدليل على تحريمه ونجاسته؛ لأن الآية سيقت في معرض الامتنان.

قال السعدي[1]: «وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهًا لنا».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ثم بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعًا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، و«استوى» تأتي في القرآن الكريم على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف فيكون معناها «كمل» و«تم»، كما قال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، وتارة تعدى بـ«على» فتكون بمعنى «علا» و«ارتفع» كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وتارة تعدى بـ«إلى» فتكون بمعنى «قصد» كما في هذه الآية، قال ابن كثير[2]: «أي قصد إلى السماء، والاستواء ههنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ«إلى»».

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ السماء مشتقة من السمو وهو العلو، واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس، والمراد به الجنس بقرينة قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

والمعنى: ثم قصد إلى خلق السماء، وكانت دخانا، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الضمير في قوله ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ عائد إلى السماء باعتبار الجنس.

أي: فخلقهن سبع سماوات مستوية مستقيمة الخلقة منتظمة، لا تفاوت فيها ولا خلل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وخلقُ الأرض قبل خلق السماء، ودحو الأرض بعد خلق السماء، كما قال تعالى في

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٦٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٩٧).

سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بسكون الهاء «وَهْوَ» وقرأ الباقون بضم الهاء: ﴿وَهُوَ﴾.

وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به، وهو الخبر «عليم»؛ لتأكيد شمول علمه ﷻ لكل شيء، ومن ذلك إحياء الخلق وإماتتهم ثم إحياؤهم وردهم إليه ومحاسبتهم ومجازاتهم.

وخَلْق ما في الأرض لهم جميعًا، وتسوية السموات السبع وغير ذلك مما يوجب خشيته وتقواه؛ لعلمه بكل شيء.

وكثيرًا ما يقرن ﷻ بين خلقه وإثباته علمه، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الحياء لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ فنفي الحياء في هذه الحال يدل على إثباته فيما يقابلها، وعلى هذا دلت السنة فعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا**»(١).

(١) أخرجه أبو داود في الوتر- باب الدعاء (١٤٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥١)، وابن ماجه في الدعاء- رفع =

٢- ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني المعقولة بتشبيهها بالأمور المحسوسة، وفي هذا دلالة على إثبات القياس وحجيته.

٣- أن الله ﷻ لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال ولو بأحقر المخلوقات «البعوضة وما فوقها»؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

٤- علم المؤمنين بفضل ما منحهم الله تعالى من الإيمان والبصيرة بأن ما يضربه الله ﷻ من الأمثال هو الحق من ربهم وإيمانهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وتشريفهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

٦- اعتراض الذين كفروا بسبب كفرهم على ما يضربه الله ﷻ من الأمثال وإنكارهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٧- أن الله ﷻ يضل- بعدله- بما يضربه من الأمثال كثيرًا من الناس، وهم الكفار؛ لاعتراضهم عليه وإنكارهم له، فيزدادون ضلالا إلى ضلالهم، ويهدي به- بفضله- كثيرًا من الناس، وهم المؤمنون لعلمهم أنه الحق من ربهم فيزدادون هدى وإيمانًا؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

٨- أن الله لا يضل بالمثل إلا الفاسقين بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، كما أنه ﷻ يهدي به المؤمنين- بفضله- بسبب إيمانهم.

٩- أن أهل الضلال كثير، وأن أهل الإيمان كثير، لكن أهل الضلال أكثر، ولعل هذا هو سبب تقديم قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ على قوله: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

١٠- إثبات القدر، وأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، الرد على القدرية الذين يزعمون أن العباد يخلقون أفعالهم، وأنها ليست داخلة تحت مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١١- أن من صفات الفاسقين الخارجين على طاعة الله تعالى وحدوده: نقض عهد الله

=
اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الألباني.

من بعد توثيقه، وقطع ما أمر الله بصلته، والإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- وجوب الوفاء بعهد الله، وصلة ما أمر الله بصلته، والحذر من نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن الإفساد في الأرض؛ لأن هذه الأعمال من الفسق، ومن صفات الفاسقين.

١٣- أن الفسق ونقض عهد الله وقطع ما أمر به أن يوصل وسائر المعاصي من الفساد المعنوي في الأرض، الذي هو سبب للفساد الحسي، بهلاك الحرث والنسل، وخراب البلاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- إثبات خسارة الفاسقين المتصفين بالصفات المذكورة، وتأكيد وحصر الخسران فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٥- الإنكار الشديد، والتوبيخ والتعجب ممن يكفرون بالله وقد كانوا أمواتًا فأحياهم الله وأوجدهم، ثم يميتهم ثم يحييهم ويبعثهم ثم إليه يرجعون للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٦- نعمة الله ﷻ على الناس بإيجادهم من العدم، مما يوجب عليهم الإيمان به ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾.

١٧- إطلاق الموت على ما قبل الخلق وقبل نفخ الروح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾.

١٨- أن الموت مكتوب على جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧].

١٩- إثبات البعث والمعاد والرجوع إلى الله تعالى للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الخلق وإيجادهم من العدم، ثم إماتتهم، ثم

إحيائهم وبعثهم للحساب والجزاء، والاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأول.

٢١- وجوب الاستعداد للقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

٢٢- فضل الله ﷻ ومنته على العباد بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا وأباحه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا مما يوجب الإيمان به وذكره وشكره.

٢٣- أن الأصل في كل ما خلقه الله في الأرض الإباحة والطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٢٤- إثبات الأفعال لله ﷻ وأنه يفعل ما شاء متى شاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إليها، وكما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وفي الحديث: «**قدر الله وما شاء فعل**»[(١)].

٢٥- كمال خلق السموات وأنهن سبع سموات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

٢٦- إثبات وتأكيد عموم علم الله بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال والأفعال والأقوال؛ لأنه ﷻ بكل شيء عليم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الواو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» والخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة مخبرا لهم، وذكِّر به قومك.

و «الملائكة» جمع «مَلك» وهم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[(١)].

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة- كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(٢)].

فيجب الإيمان بهم على وجه الإجمال، كما يجب الإيمان بما ذكر في الكتاب والسنة من أسمائهم وأوصافهم وأعمالهم وبما منحهم الله من قوة وقدرة على القيام بما كلفوا به من أعمال على جهة التفصيل، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى في وصف خزنة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى في وصف طاعتهم وعملهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

فمنهم الموكل بالوحي كجبريل عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

وهو الروح الأمين كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ومنهم الموكل بالقطر والنبات كميكائيل عليه السلام.

ومنهم الموكّل بقبض أرواح بني آدم وهو ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال ﷺ: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه.. وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه..**»(١).

ومنهم الموكل بالنفخ بالصور وهو إسرافيل عليه السلام.

ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنهم الموكلون على العباد بحفظهم وحفظ أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

ومنهم الموكلون بالرحم والنطف كما في الحديث: «**فيرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**»(٢).

ومنهم الموكلون بالسؤال في القبر، كما حديث البراء «**ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**»(٣).

ومنهم الموكلون بالشمس والقمر والأفلاك، ومنهم الموكلون بالجنة والنار.

ومنهم الموكلون بعمارة السموات بالعبادة والصلاة والتسبيح والتقديس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦)- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٥٣).

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: إني مصير ومستخلف في الأرض خليفة.

وفي هذا إثبات الأفعال لله ﷻ وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

والخليفة: من يخلف غيره وينوب عنه.

أي: إني جاعل في الأرض خليفة يقيم شرع الله في أرض الله، ويخلفه من بعده قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقيل: خليفة لمن سبقه لأن الأرض كانت معمورة بطائفة من المخلوقات الجن أو غيرهم أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء؛ ولهذا قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

وفي الآية امتنان على آدم وذريته بالتنويه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل خلقهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ والاستفهام هنا ليس اعتراضًا على الله، ولا حسدا لبني آدم، وإنما هو استعلام واستجلاء لوجه الحكمة في جعل هذا الخليفة، مشوبا بالتعجب، وذلك لعلمهم أنه ﷻ لا يفعل إلا لحكمة، وأن المقصود من جعل الخليفة في الأرض هو إصلاحها وعمارتها.

و«من» موصولة، أي: أتجعل في الأرض الذي يفسد فيها بالكفر والمعاصي

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: أن من هذا الجنس من يفعل ذلك.

ومعنى ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، أي: ويريق الدماء، وهذا من أعظم الفساد في الأرض، فعطفه على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام.

وهذه المقالة من الملائكة بحسب ظنهم أن هذا الخليفة في الأرض سيحدث منه ذلك ولهذا قالوا بعده:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أننا نسبح بحمدك، أي: نجمع بين تسبيحك وحمدك، ونقرن بينهما.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأن كل كمال فهو أولى به، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ويطلق التسبيح على ما هو أعم من ذلك من أنواع العبادة كلها، كالذكر والصلاة وقول: «**سبحانك ربنا وبحمدك**»، و«**سبحان الله وبحمده**»، «**سبحان الله العظيم**» ونحو ذلك.

والباء في قولهم: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ للمصاحبة، أي: نسبحك تسبيحا مصحوبًا ومقرونا بحمدك.

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فحمد الله وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التقديس: التعظيم والتطهير ومنه سميت الأرض المقدسة أي: المطهرة، واللام في «لك» للاختصاص والإخلاص، أي: نعظمك ونمجدك ونكبرك ونصلي لك خاصة.

ويحتمل أن المعنى: ونحن نسبح بحمدك، أي: ننزهك ونثني عليك ونعظمك بالأقوال والأفعال ونقدسك، أي: نعظمك ونطهرك بالاعتقاد في القلوب.

فجمعوا بين تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب وعبادته بالتسبيح، وإثبات

الكمال له بالحمد، وتعظيمه وتطهيره بالتقديس، وعبروا بالجملة الاسمية في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ للدلالة على ثبوتهم واستمرارهم على ذلك، كما قال تعالى عنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

بينما عبروا بالجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: من يحصل منهم هذا الفعل تارة بعد أخرى.

وقول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ليس من باب التزكية لأنفسهم لأن الله قد نهى عنها كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وإنما قولهم هذا من قبيل الإخبار بأنهم يقومون بعبادته ﷻ ويسبحون بحمده ويعظمونه، وامتداح تنزيه الله وحمده وتقديسه.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا جواب لقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية، أي: قال الله مجيبًا للملائكة على قولهم هذا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ من أمر هذا الخليفة، وما في خلقه من الحكم العظيمة من عمارة هذا الكون، وما في ذلك من المصالح الدينية والدنيوية الأخروية.

قال ابن كثير[1]: «إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم...».

وقال ابن القيم[2]: «رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمون، وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم من هو خير من الملائكة، وظهر إبليس من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لهم علم لا بهذا ولا بهذا، ولا ما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة».

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٠٠).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٩، ٣٠٢).

وقال أيضًا: «فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمرهم بالسجود، ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

ففي الآية إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ سواء ظهرت للخلق أو لم تظهر لهم، والرد على من نفى الحكمة عن الله ﷻ في أفعاله، وقال إنه يفعل لمجرد المشيئة بلا حكمة- كما تقول الأشاعرة.

وفيها الرد وعلى المعتزلة القائلين بأنهم يحيطون بوجوه الحكمة في أفعال الله ﷻ فينفون أمورًا كثيرة عن الله في عقولهم ويدعون أن إثباتها ينافي حكمة الله، مثل نفيهم خلقه لأفعال العباد بدعوى أنه لو خلقها كانوا مجبورين عليها فكيف يعذبهم بما ليس فعلًا لهم هذا لا يليق بالحكمة[١].

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

لما كان قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، فيه إشارة منهم إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض أراد الله أن يبين لهم فضل آدم عليهم بالعلم، وكمال حكمة الله ﷻ وعلمه، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ الآيات.

وقد جاء في بعض الآثار أنهم قالوا: «لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا، أو إلا كنا أعلم منه»[٢].

قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

هذا بعد قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يدل على أن هذا الخليفة هو آدم عليه السلام وهو أبو البشر خلقه الله ﷻ بيده من أديم الأرض وطينها ولهذا سمي آدم وقيل: سمي

---

(١) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ٩١) «إيثار الحق على الخلق» ص (٢٠١) وما بعدها.
(٢) انظر «جامع البيان» (١/ ٥٢٣، ٥٣٢- ٥٣٣).

آدم لأدمته؛ فليس بالأبيض الباهق ولا الأسود الحالك لكنه بين ذلك.

و«ال» في «الأسماء» للاستغراق و«كلها» للتوكيد.

أي: وعلم الله ﷻ آدم ﷺ الأسماء كلها، أي: أسماء كل شيء، ومنها أسماء الملائكة، وأسماء ذريته من الأنبياء وغيرهم.

كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا**»(١).

أي: علمه الأسماء كلها ومسمياتها بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بضمير وإشارة العقلاء.

واختلف هل المراد بذلك الأسماء والمسميات الحاضرة والمعروفة وهي ما يحتاجه آدم وبنوه في ذلك الوقت، واستدل له بظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

وقال بعضهم المراد بذلك الأسماء والمسميات كلها مطلقًا لظاهر الآية ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: ثم عرض ﷻ هذه المسميات على الملائكة امتحانا لهم هل يعرفونها أم لا.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ النبأ: الخبر العظيم ذو الأهمية، والفائدة الكبيرة، فهو أخص من الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

أي: أخبروني بأسماء هؤلاء المسميات.

وعبر بضمير العقلاء في- قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ وأشار بإشارة العقلاء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تغليبا لجانب العقلاء من المسميات.

وفي الآية تقرير وتوكيد لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتحدٍ وتعجيز لهم وبيان لقلة علمهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٦/ ٧٥) ومسلم في الإيمان (١٩٣)، وابن ماجه في الزهد (٢/ ٤٣).

أي: إن كنتم صادقين في قولكم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية في ظنكم أن هؤلاء الذين سأستخلفهم في الأرض سيعصونني، ويفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وأني لم أخلق خلقا إلا كنتم أفضل وأعلم منهم.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بهذا أجاب الملائكة عن قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فنزهوا الله ﷻ وأقروا واعترفوا بالعجز والجهل، وأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله العليم الحكيم، وأن آدم أعلم منهم.

وقولهم ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك عما لا يليق بك، وأن نقول ما لا نعلم.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ «لا»: نافية للجنس، و﴿عِلْمَ﴾ اسم «لا» مبني على الفتح في محل نصب، وهي نكرة في سياق النفي فتعم أيَّ علم، مهما قل من علم أسماء ما ذكر أو من علم أمر الخليفة، أو غير ذلك.

«إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة أي: الذي علمتنا.

أي: لا علم لنا بأي شيء إلا الذي علمتنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تفويض من الملائكة أنه ﷻ وحده العليم الحكيم، وتأكيد وتعليل لقولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

﴿أَنتَ﴾ ضمير منفصل يفيد التوكيد والحصر، أي: إنك أنت وحدك العليم الحكيم.

و ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من العلم يدل على إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

فهو- عز وجل- ذو العلم الواسع، الذي أحاط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال موسى عليه السلام لما سئل: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

والعلم في الأصل إدراك الأشياء على ما هي عليه حقيقة إدراكًا جازمًا، فمن قال عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهو عالم، يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهو جاهل جهلا بسيطا، لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل هي مائة وعشرون سورة فهذا جاهل جهلا مركبا، لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من الحكم والحكمة يدل على أنه ﷻ ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة، الحكم الكوني، كما قال تعالى فيما حكاه عن أحد إخوة يوسف أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والحكم الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

والحكم الجزائي للناس على قدر أعمالهم خيرها وشرها، كما قال تعالى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] أي: بحكمه الجزئي.

فهو ﷻ الحكم وإليه الحكم كما قال ﷺ: «**إن الله هو الحَكَم وإليه الحكم**»(١).

وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، فيما خلق وقدر وشرع وجازى به عباده.

فكل حكم من أفراد الأحكام الكونية أو الشرعية أو الجزئية له حكمتان؛ حكمة غائية وهي الغاية منه، وحكمة صورية، وهي الحكمة من مجيئه على صورة معينة.

فهو ﷻ الحكيم، الحاكم المحكم في خلقه وقدره وشرعه، وفي تعليم من شاء دون من شاء.

وباجتماع العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه ﷻ يزداد كماله إلى كمال.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٥٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)- من حديث شريح بن هانئ عن أبيه- رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

لما أقر الملائكة واعترفوا بالجهل، وأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله، أمر الله ﷻ آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء المسميات التي عرضها عليهم ليظهر لهم فضل آدم، عليهم بما ميزه الله وخصه به من العلم.

قوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: أخبر الملائكة بأسماء المسميات التي علمتك إياها؛ ليظهر لهم ما فضلك الله وميزك به عليهم من العلم، وفي هذا مع ندائه ﷻ لآدم تشريف وتكريم له.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء تلك المسميات- طاعة الله ومسارعة في تنفيذ أمره- وتبين للملائكة كمال حكمة الله ﷻ وعلمه في استخلافه، وفضْلُه عليهم بما ميزه الله به عليهم من العلم.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أي: قال الله ﷻ مخاطبًا الملائكة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الآية، والاستفهام للتقرير لمجيء النفي بعده، أي: قد قلت لكم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١] أي: قد شرحنا لك صدرك.

أي: قد قلت لكم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كما قال تعالى في الآيات السابقة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

و﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عن الناس فلا يشاهدونه ولا يدركونه بحواسهم ولا يعلمون عنه شيئًا فكل ذلك معلوم لله ﷻ لا تخفى عليه منه خافية، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وإذا كان ﷻ يعلم غيب السموات والأرض فعلمه بما يشاهد ويظهر من ذلك من باب أولى؛ ولهذا قال:

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ معطوف على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام، و«ما» موصولة في الموضعين، أي: وأعلم الذي تبدون والذي تكتمون، وصيغة المضارع في قوله: «تبدون» و«تكتمون» للدلالة على استمرار علمه ﷻ بما يحصل منهم في المستقبل كما علم ما حصل منهم في الماضي.

أي: وأعلم الذي تظهرون من الأقوال والأعمال وغير ذلك، والذي كنتم تخفون في قلوبكم من المعتقدات والأسرار والمكنونات والمضمرات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩، النور: ٢٩].

ومما أبدوه قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ومما أخفوه أنه لن يخلق الله خلقا إلا كانوا أعلم منهم وأكرم على الله منهم، ومن ذلك ما انطوى عليه إبليس من الكبر والمخالفة والكفر.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول والكلام لله ﷻ، وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت مسموع، متى شاء وكيف شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والآيات بعدها.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ وتشريفه بخطاب الله ﷻ، إضافة اسم الرب إلى ضميره.

٣- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم، وأنهم ذوو عقول ويسمعون ويتكلمون، وذو شرف، عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية ووجه الدلالة أن الله ﷻ

خاطبهم وأجابوه.

٤- إثبات الأفعال لله ﷻ، وأنه يفعل ما شاء متى شاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٥- التنويه بذكر آدم عليه السلام وذريته في الملأ الأعلى قبل خلقهم.

٦- الحاجة إلى خليفة يقيم شرع الله في أرض الله، ويخلفه من بعده؛ لإصلاح الأرض وعمارتها.

٧- جواز الاستعلام لاستجلاء وجه الحكمة؛ لأن الله ﷻ لم ينكر على الملائكة قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بل أجابهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٨- ذم الفساد، وكراهة الملائكة للإفساد في الأرض وسفك الدماء، لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

٩- تسبيح الملائكة بحمد الله ﷻ وتعظيمهم له، وقيامهم بعبادته؛ لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾ وفي هذا امتداح تسبيح الله وحمده وتقديسه وعبادته.

١٠- في قول الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ دلالة على جواز الإخبار عما يفعله الإنسان من العبادة والخير إذا كان ذلك على سبيل الإخبار فقط، لا لقصد الفخر وتزكية النفس، فإن ذلك لا يجوز قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

١١- علم الله ﷻ التام بما في جعل هذا الخليفة من الحكمة والمصالح الدينية والدنيوية مما لا علم بالملائكة به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ دلالة على أن هذا الخليفة هو آدم عليه السلام.

١٣- فضل الله ﷻ ومنته على آدم عليه السلام بتعليمه الأسماء كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وقد استدل بهذا بعض أهل العلم على أن اللغات توقيفية علمها الله ﷻ آدم وذريته، وقيل أنها تجريبية كوَّنها الناس من هذه الحروف والأصوات بالتجارب.

والأظهر أن مبدأ اللغات توقيفي، وكثير منها كسبي تجريبي.

١٤- عرض الله ﷻ هذه الأسماء التي عَلَّمها آدم ومسمياتها على الملائكة، في تحدٍّ وتعجيز لهم لإنبائه بأسمائهم؛ ليظهر لهم قلة علمهم، وعدم صدق ظنهم في أن هذا الخليفة سيعصي الله، ويفسد في الأرض، ويسفك الدماء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وفي هذا تقرير وتوكيد لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٥- تنزيه الملائكة لله ﷻ، واعترافهم أنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله، وأن آدم أعلم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

١٦- يجب على الإنسان معرفة قدر نفسه، فلا يدعي علم ما لم يعلم، وينبغي أن يفطن لهذا كثير ممن يتصدرون للفتوى بلا علم.

١٧- أن العلم إنما يكون بتعليم الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

١٨- إثبات اسم الله «العليم»، وما يدل عليه من إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٩- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام لله ﷻ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله ﷻ بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٠- تشريف الله ﷻ لآدم بندائه له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٢١- أمر الله ﷻ آدم بإنباء الملائكة بأسماء المسميات التي علمها ﷻ له؛ ليُظهر لهم فضل آدم عليهم بما ميَّزه الله وخصه به من العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾.

٢٢- مسارعة آدم عليه السلام إلى إنباء الملائكة بهذه الأسماء طاعة وامتثالا لأمر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾؛ ولهذا طوى ذكر قوله: ﴿أَنۢبَأَهُم﴾ إشارة إلى مبادرته بذلك.

٢٣- تقرير وإثبات علم الله ﷻ غيب السموات والأرض، وما يبدي الملائكة وغيرهم من الخلق وما يكتمون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وفي هذا تأكيد وتقرير لقوله قبل هذا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٤- إذا كان ﷻ يعلم غيب السموات والأرض فعلمه بالمشاهد فيهما من باب أولى.

٢٥- وجوب مراقبة الله تعالى لأنه لا يخفى عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٦- في الآيات توجيه إلى أن العبد إذا خفيت عليه الحكمة في بعض ما خلقه الله وقدره وشرعه فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله والإقرار بالحكمة لله ﷻ في ذلك كله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾.

بين ﷻ للملائكة فضل آدم عليهم بالعلم، ثم أمرهم بالسجود له إكراما له واحتراما وعبودية لله ﷻ.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: واذكر يا محمد حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، اذكر ذلك بنفسك واذكره وذكر به قومك، وهو ﷺ إنما يذكر ذلك بتذكير الله ﷻ له بوحيه إليه.

وتكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآية وما بعدها لأنه العظيم ﷻ.

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أمر منه ﷻ للملائكة بالسجود لآدم، أي: اسجدوا لآدم إكراما واحتراما له، وإظهارًا لفضله، وعبودية وطاعة لله ﷻ.

وذلك بعد أن خلقه الله تعالى وصوره ونفخ فيه من روحه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٨- ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧١- ٧٣].

وهذه منة عظيمة من الله ﷻ على آدم وذريته؛ ولهذا ذكَّر الله ﷻ بها محمدًا وأمته، كما في حديث أنس ﷺ: «**أنت آدم الذي خلقك بالله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد**

لك ملائكته»[١].

والسجود في اللغة: الذل والخضوع لله ﷻ.

وفي الشرع: السجود على الأعضاء السبعة تذللا وخضوعًا وتعظيمًا لله ﷻ وهي الجبهة والأنف واليدين والركبتين وأطراف القدمين.

وقد يطلق السجود على الصلاة كلها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلوا فليكونوا من ورائكم، بل قد يطلق السجود على ما هو أعم من ذلك وهو الطاعة والانقياد لله ﷻ.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، أي: فبادروا كلهم بالسجود امتثالًا لأمر الله ﷻ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآية: ١١]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآية: ٣١]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الآية ٦١]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [الآية: ١١٦]، وقال تعالى في سورة ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٧٤].

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن» أي: لكن إبليس أبى واستكبر، وعلى هذا فالاستثناء منقطع، ويجوز كون الاستثناء متصلًا.

وإبليس هو الشيطان وهو أبو الجن، سمي بهذا الاسم؛ لأنه أبلس من رحمة الله، أي: أيس منها يأسًا لا رجاء بعده.

وبناءً على الاختلاف في كون الاستثناء متصلًا أو منقطعًا، اختلف أهل العلم هل إبليس من الملائكة أم لا؟ على قولين:

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه من الملائكة؛ لأن الله استثناه منهم في هذه الآيات.

---

(١) سبق تخريجه.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه من الجن وليس من الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولقوله ﷺ: «**خلق إبليس من نار وخلق الملائكة من نور، وخلق آدم مما ذكر لكم**»[(١)].

واعتبروا الاستثناء منقطعًا، قال الحسن: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»[(٢)].

قال ابن القيم: «والصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله، كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور، فالنافي كونه من الملائكة والمثبت لم يتواردا على محل واحد»[(٣)].

وقال ابن كثير[(٤)]: «والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه- وإن لم يكن من عنصرهم- إلا أنه كان قد تشبه بهم، وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر».

وعلى هذا فيجوز كون الاستثناء متصلًا أو منقطعًا.

﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع من السجود ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ «استكبر» أبلغ من تكبر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا، فالاستكبار: شدة الكبر وغايته، أي استكبر عن الانقياد لأمر الله، وتكبر على آدم، فاستنكف عن اتباع الحق، وتعاظم على الخلق كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الآيتان: ١٢، ١٣]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الآيات: ٣٢- ٣٥].

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٥٣٩- ٥٤٠).

(٣) انظر «محاسن التأويل» (١/ ٢٩١).

(٤) في «تفسيره» (١/ ١١٠).

كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآيتان: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الآيات: ٧٥- ٧٨].

وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)].

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ «كان» مسلوبة الزمان، تفيد تحقيق اتصاف إبليس بالكفر فجمع إبليس لعنه الله بين عدم الانقياد لفعل ما أمر الله به من السجود لآدم، والاستكبار عن قبول الحق واتباعه، والتعاظم على آدم وعلى الخلق، والكفر.

قال السعدي[(٢)]: «وهذا الإباء والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره».

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

هذا مما أخبر الله به مما أكرم الله به آدم عليه السلام وهو إسكانه وزوجه الجنة، بعد إكرامه بأمر الملائكة بالسجود له، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الآية: ١٩]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [الآيات: ١١٧- ١١٩].

قوله: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ «يا» حرف نداء، وآدم منادى، وفي نداء الله ﷻ لآدم تكريم وتشريف له.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ «أنت» ضمير منفصل مؤكد لفاعل «اسكن» وهو الضمير المستتر فيه، ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوف على فاعل «اسكن»، وزوج آدم هي حواء- عليها السلام.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩) والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٧٣).

﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ «ال» للعهد، أي الجنة المعهودة، جنة الخلد، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

وقيل: إن هذه الجنة التي أسكنها آدم وزوجه في الأرض، والصحيح أنها جنة الخلد كما وصفها الله ﷻ في قوله في سورة طه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [الآيتان: ١١٨، ١١٩].

وقد استدل ابن القيم[1] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ثم قال: «وهذا لا يكون في الدنيا أصلًا، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لابد أن يعرض له شيء من ذلك، وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ، والعري والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى، وهذا شأن ساكن جنة الخلد. قالوا: وأيضًا فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية، وأن ملكها يبلى».

ففي هذه الجنة نزل الأبوان آدم وحواء- عليهما السلام- ومنها أخرجا بسبب المعصية، وإليها مأواهما ومن آمن من ذريتها، وفيها خلودهم.

قال ابن القيم[2]:

فحـي عـلى جنـات عـدن فإنهـا ... منازلــك الأولى وفيهــا المخـيم

﴿وَكُلَا﴾ أمر إباحة ﴿مِنۡهَا﴾ أي من الجنة.

﴿رَغَدًا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: أكلًا رغدًا، أي: أكلًا هنيئًا واسعًا طيبًا، مريئًا لا عناء فيه، ولا تنغيص ولا كدر.

﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي: في أي مكان شئتما من هذه الجنة، ومن أي مأكول شئتما، ومتى

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر «حادي الأرواح» ص (٣١).

شئتما، وفي هذا إكرام من الله ﷻ لآدم وزوجه، وامتنان عليهما، بإسكانهما الجنة، وإباحته لهما ما فيها من النعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في هذا امتحان من الله ﷻ لآدم وزوجه، وحكمة الله أعلم بها، أي: ولا تأكلا من هذه الشجرة، والنهي عن قربها أبلغ من النهي عن الأكل منها؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، كما جاء في الحديث[1]، فالنهي عن قربها نهي عن الأكل منها من باب أولى.

و«أل» في الشجرة للعهد الحضوري؛ لأن الله أشار إليها بإشارة القريب «هذه» من أشجار الجنة، والله أعلم أي شجرة هي.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي، والفاء للسببية، أي: فيتسبب عن قربكما لها كونكما من الظالمين المعتدين؛ لفعلكما ما نهاكما الله عنه وحرمه.

والظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

أي: فإن قربتما هذه الشجرة التي نهيتكما عنها كنتما من الظالمين لأنفسهم المعتدين على حرمات الله- تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ حمزة «فأزالهما» بمعنى: فنحاهما الشيطان، ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنة.

وقرأ الباقون: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقعهما في الزلل وهو الخطأ، والضمير في «عنها» يعود إلى الشجرة أي: فأوقعهما الشيطان في الزلل والخطأ والمعصية بسبب الأكل من الشجرة، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير ﷺ البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) وأبو داود في البيوع (٣٣٢٩) والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤).

مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الآيات: ٢٠- ٢٢]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [الآيتان: ١٢٠، ١٢١].

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ الفاء للسببية، و«ما» موصولة، أي: فتسبب في إخراجهما من الذي كانا فيه من رغد العيش وطيب المسكن وسعة الرزق والراحة والأمن وقرة العين، إلى دار التعب والنصب والمكابدة والمجاهدة.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الآية: ٢٤].

والهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل، أي: انزلوا من الجنة إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ [البقرة: ٣٨].

والخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وزوجه وإبليس- وقد تقدم ذكرهم- ولهذا قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ بواو الجمع، ويؤكد هذا قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ أي: إبليس وذريته أعداء لآدم وحواء وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما بدليل قوله تعالى بعد هذا: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الآيتان: ١٢٣، ١٢٤].

وقيل الخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء، وخوطبا بالجمع لأن أقل الجمع اثنان، كما قال تعالى بعد أن ذكر حكم داود وسليمان- عليهما السلام- قال: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ [الأنبياء: ٧٨] بضمير الجميع، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة طه: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [الآية: ١٢٣] بالتثنية.

والأظهر أن الخطاب في قوله ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء وإبليس، والخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ بالتثنية لآدم وإبليس- وحواء تبع لآدم فيما خوطب به، كما أن ذرية آدم تابعة له فيما خوطب به من التكليف والاتباع.

ويقوي كون خطاب الجمع ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء وإبليس، وخطاب التثنية لآدم وإبليس قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ لأن المراد بالعداوة عداوة إبليس لآدم وزوجه وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وهي العداوة التي أكدها القرآن الكريم في مواضع عدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

قال ابن القيم(١) في معرض ترجيح أن المراد بقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ آدم وزوجه وإبليس، قال: «وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]، فهذا خطاب لآدم وحواء، وقد جعل بعضهم لبعض عدوًا، فالضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ إما أن يرجع لآدم وزوجته، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١١- ٣١٢).

وأما على الأول وهو رجوعه إلى آدم وزوجه- فتكون قد اشتملت على أمرين: أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط، والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس؛ ولهذا أتى بضمير الجمع، في الثاني دون الأول ولابد أن يكون إبليس داخلًا في حكم هذه العداوة قطعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال لذريته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع، دون التثنية. وأما الإهباط فتارة يذكر بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الآية: ١٣]، وكذلك في سورة ص[1]، وهذا لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم، وحيث ورد بلفظ التثنية فإما أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة، وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبوا الثقلين، وأصلا الذرية، فذكر حالهما ومآل أمرهما؛ ليكون عظة وعبرة لأولادهما. والذي يوضح أن الضمير في قوله: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لآدم وإبليس أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم، دون زوجه، فقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢١- ١٢٣] وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم وإبليس الذي زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعًا، فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذِكْرُ أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط، وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة، فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر حال أبي الإنس وأمهم فتأمله، وبالجملة فقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله: ﴿اهْبِطَا﴾ من غير موجب».

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: ولكم في الأرض مسكن وموضع استقرار، وهذا

(١) يعني قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧].

بعد قوله ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ يدل على أنهم قبل ذلك لم يكونوا في الأرض، وأن منتهى إهباطهم إليها كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: ٦٤]، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: ولكم في الأرض متاع تتمتعون به، والمتاع: ما يتمتع به من رزق، من مأكل ومشرب وملبس ومركب وفرش وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى وقت معيَّن وأجل محدَّد، وهو انقضاء آجالكم وقيام الساعة، وانتقالكم إلى الدار الآخرة التي هي دار الحياة حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [الكهف: ٦٤].

وهو متاع قليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال ﷺ: **«مالي وللدنيا إنما كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»**[(١)].

ولهذا قال ﷺ: **«لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»**[(٢)].

وفي الآية ما يوجب الحذر من الشيطان فإنه كما أخرج الأبوين من الجنة فإنه ساع سعيًا حثيثًا بخيله ورجله إلى حرمان ذريتهما من دخولها، وإلى زجهم معه في نار جهنم؛ وذلك بتزيين الكفر والبدع والمعاصي لهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾.

قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ قرأ ابن كثير بنصب «آدمَ» ورفع «كلماتٌ»، وقرأ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٣١٠٩)- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

الباقون برفع ﴿ءَادَمُ﴾ ونصب ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ بكسر التاء.

أي: فتلقن آدم وأُلهم من ربه كلمات ألقاهن الله إليه ووفقه لقولهن، بفضل ربوبيته ﷻ الخاصة له وامتنانه عليه، قالها آدم وزوجه وتوسلا إلى الله بها، وهذه الكلمات ما جاء في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الآية: ٢٣].

وفي هذه الكلمات توسل آدم وحواء- عليهما السلام- بربوبية الله ﷻ، واعترافهما بأنهما ظلما أنفسهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وتضرعهما إلى الله ﷻ بأن يغفر لهما ويرحمهما، وإعلانهما تحقق وتأكد كونهما من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما ويرحمهما.

وهذه الكلمات من جوامع الدعاء، ومن أعظم أسباب قبول التوبة، لما فيها من التوسل بربوبيته ﷻ، والاعتراف بالذنب وظلم النفس، والتضرع إلى الله بطلب المغفرة والرحمة، وإيقان الخسران والهلكة إن لم يعفو الله ﷻ عن العبد ويغفر له ويرحمه.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: فتاب ربه عليه، بأن وفقه للتوبة بهذه الكلمات، ثم قبل توبته فعفا وتجاوز عنه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

كما تاب على زوجه حواء، ولم تذكر هنا- والله أعلم- لظهور أنها تبع له في سائر أحواله بدليل قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

وصار حال آدم وحواء بعد توبة الله ﷻ عليهما أفضل من حالهما قبل المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

فجمع الله ﷻ لمن تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا بين ما له من حسنات هذه الأعمال وغيرها وبين الحسنات التي أعطيت له بدل السيئات وبهذا صار حاله بعد التوبة الصادقة النصوح أفضل من حاله قبل المعصية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، أي: فتاب ﷻ على آدم؛ لأنه سبحانه هو التواب الرحيم.

وضمير الفصل «هو» للتوكيد والحصر، أي: هو التواب الرحيم وحده لا غيره.

و«التواب» اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من التوبة، يدل على أنه ﷻ ذو التوبة الواسعة.

و«التواب» على وزن «فعَّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على كثرة توبته ﷻ على العبد، وكثرة من يتوب عليهم من عباده.

وتوبة الله على العبد الرجوع به من المعصية والمخالفة إلى الطاعة والموافقة، وهي تنقسم إلى قسمين: توفيقه العبد للتوبة، كما قال تعالى في قصة الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبول توبة عبده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤].

و «الرحيم» اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من الرحمة على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ﷻ: رحمة هي صفة ذاتية ثابتة لله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهيمهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فرحمته ﷻ للكافرين وغيرهم من البهائم في الدنيا ما يتمتعون به من نعم الله ﷻ التي لا تحصى، ورحمته لهم في الآخرة، العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء- كما جاء في الحديث[1].

ورحمته ﷻ للمؤمنين في الدنيا هدايتهم وتوفيقهم للطريق المستقيم- إضافة إلى ما يتمتعون به من النعم مما هو دون ذلك، ورحمته لهم في الآخرة هدايتهم إلى طريق الجنة

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وإدخالهم جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [الآية: ١٢٣].

قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ توكيدًا، وليرتب عليه ما بعده وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة.

وقال ابن القيم[1]: «﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول، وهو إهباط من السماء إلى الأرض، الأول: إهباط من الجنة، وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولًا فوق السماء وجنة الخلد».

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: حال كونكم جميعًا، والمراد بذلك آدم وحواء وإبليس.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الفاء استئنافية، و«إما» مكونة من «إن» الشرطية، و«ما» الزائدة من حيث الإعراب، المؤكدة من حيث المعنى، أي: فأيَّ وقت وزمان جاءكم مني هدى.

و﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾: فعل الشرط بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والتي فيها توكيد إتيان الهدى.

﴿مِّنِّي هُدًى﴾ الهدى: البيان والإرشاد والعلم، أي: فإما يأتينكم مني هدى مما أوحيه إلى رسلي وأنبيائي وأنزله في كتبي من العلم والبيان، كما قال تعالى في وصف القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في وصف التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالى وصف الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٠).

وليس في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ ما يدل على احتمال عدم إتيان الهدى، بل إن في تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ دلالة، بل تأكيد على مجيء الهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، وقال تعالى بعد أن ذكر خلق الإنسان وإيجاده بعد أن كان عدمًا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وهذا مقتضى حكمة الله ﷻ في خلق الثقلين لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وفي قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ دليل على عدم المؤاخذة إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهدى والبيان، كما قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

كما أن فيه دلالة على أن الهدى حقًا هو ما كان من الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنِّى هُدًى﴾، ولأن الله ﷻ أضافه إليه فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

ولهذا لا يجوز أن يتعبد لله إلا بهداه الذي شرعه في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه ورسله ومن تعبد لله بغير ذلك فهو على ضلال.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ جواب الشرط «إن»، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، و«من» شرطية، و«تبع» فعل للشرط.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ ولم يقل: «فمن تبعه»، ولم يقل: «الهدى» بالتعريف بـ «ال» بل أضافه إليه فقال: ﴿هُدَاىَ﴾ تعظيمًا لهداه ﷻ، وترغيبا في إتباعه، وبهذا الإظهار والإضافة صارت هذه الجملة مستقلة بنفسها.

وأضاف ﷻ الهدى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه، ويوصل إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والمعنى: فمن اتبع هداي الذي أرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، بأن آمن

بذلك فصدق بها أخبرت به، وامتثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي سورة طه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قرأ يعقوب ﴿فَلَا خَوْفُ عَلَيْهِمْ﴾ حيث وقعت بفتح الفاء: «فلا خوفَ»، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ جواب الشرط «مَنْ»، و«لا»: نافية، والخوف: الهم مما يستقبل، أي: فلا خوف عليهم فيما يستقبلون في حياتهم؛ لإيمانهم واعتمادهم على ربهم ورضاهم بقدره وثقتهم بكونه معهم يسددهم ويعينهم ويحفظهم ويدافع عنهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلون بعد مماتهم من عذاب القبر وأهوال القيامة وعذاب النار، بل هم آمنون، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فلهم الأمن التام يوم القيامة في جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، ولهم أيضًا: الأمن والاطمئنان النفسي والاجتماعي في الدنيا بحسب إيمانهم؛ لأنهم محفوظون بحفظ الله تعالى، كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(٢).

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، والحزن هو الغم والتحسر على ما مضى وفات.

وقد يطلق الحزن على الخوف مما يستقبل كما في قوله ﷺ لأبي بكر: «**لا تحزن إن الله معنا**» أي: لا تخف.

والمعنى: ولا هم يحزنون على ما مضى وفاتهم من أمورالدنيا، ولا على ما خلفوا

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١: ٢٩٣، ٣٠٣) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ.

فيها بعد موتهم من أهل ومال وولد؛ لإيمانهم بانتقالهم إلى ما هو خير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وهذا بخلاف حال المكذبين كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٤- ٥٦].

والحزن على ما مضى مما أقضَّ مضاجع كثير من المحتضرين. فقد رُوي أن تميم بن جميل[١] لما جيء به ليُقتَل وقال له الخليفة: إن كان لك من حجة فأدل بها أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ عما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل عليَّ السيف فيه وأسكت

إلى أن قال:

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية إن تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الأذى عنهم وإن مت موتوا

فرق له الخليفة وخلى سبيله، وقال: اذهب فقد تركتك للصبية، وعفوت عنك من أجل الصبية.

وكما قال مصطفى السباعي من قصيدة له بعنوان «وداع راحل»[٢]:

---

(١) انظر «ديوان تميم بن جميل» ص (٣٥)، «الفرج بعد الشدة» (٤/ ٨٩- ٩٠)، «المستجاد من فعلات الأجواد» ص (١١٧- ١١٩)، وكان من قصة تميم أنه أحدث حدثاً، وفر هارباً، فأرسل الخليفة بطلبه فجيء به، وأدخل على الخليفة، وإذا السيف معلق، والنّطع الذي يقتل عليه الرجال أمامه، وقال له الخليفة: أدل بحجتك.

(٢) انظر: «شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث» (٢/ ٤٦).

وإنــما حــزني في صــبية درجــوا غفــل عــن الشــر لم توقــد لهــم نــار

قــد كنــت أرجــو زمانًــا أن أقــودهم للمكرمــات فــلا ظلــم ولا عــار

واليــوم قــد ســارعت دربي إلى كفــن يومًــا سيلبســه بــر وفجــار

بــالله يــا صــبيتي لا تهلكــوا جزعًــا عــلى أبــيكم طريــق المــوت أقــدار

تــركتم في حمــى الــرحمن يكلــؤكم مــن يحمــه الله لا تدركــه أوزار

وأنــتم يــا أهيــل الحــي صــبيتكم أمانــة عنــدكم هــل يهمــل الجــار

ومن سلم من الخوف في المستقبل، ومن الحزن على ما فات ومضى فإنه يكون في غاية السعادة والطمأنينة والأمن، وقد صور هذا المعنى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- عندما دخل عليه أناس وهو في مرض موته، فقالوا له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء، لا شيء لهم، فقال: أدخلوهم عليَّ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بني ما منعتكم حقًا هو لكم ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ثم قال: قوموا عني، أو قوموا مغفورًا لكم[1].

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ذكر ﷻ جزاء من اتبع هداه، وهو عدم الخوف وعدم الحزن، ثم أتبع ذلك بذكر جزاء الكافرين المكذبين بآيات الله وهو ملازمة النار والخلود فيها، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، ليجمع العبد في طريقه إلى

(١) انظر: «العقد الفريد» (٥/ ١٧٤- ١٧٥)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤٠- ١٤١).

الله بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الآيات: ١٢٤- ١٤٧].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: والذين كفروا بالله، واستكبروا عن طاعته، وأبوا الانقياد لشرعه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: كذبوا بآيات الله الشرعية المنزلة على رسله وأعظمها القرآن الكريم، فلم يصدقوا ما دلت عليه من أخبار، وجحدوا ما دلت عليه من أحكام، ولم يستدلوا بآياته الكونية على وجوب توحيده وإخلاص العبادة له.

و«آيات» جمع «آية»، وهي لغةً: العلامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى في معجزات موسى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢].

قال النابغة الذبياني[1]:

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

أي: توهمت علامات لها.

وأطلقت على القطعة من كلام الله ذات بداية ونهاية معلومة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي الحديث قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**ألا تكفيك آية الصف التي في آخر سورة النساء**: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]»[2].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣١.

(٢) أخرجه مسلم في الفرائض (١٦١٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٢٧٢٦)، وأحمد (١/ ٢٦، ٣٨)- من حديث عمر- رضي الله عنه.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي ما أنزل الله من الوحي على أنبيائه ورسله، وأعظم ذلك القرآن الكريم.

وسمي القرآن آيات؛ لما فيه من الهدى والإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وكونه صالحًا لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، دال على أنه من عند الله ﷻ الذي له الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، المستحق للعبادة وحده دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولما فيه أيضًا من الدلالة على صدق من جاء به من عند الله وهو محمد ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[1].

والقسم الثاني: آيات كونية، وهي كل ما بثه الله وخلقه في هذا الكون علويه وسفليه من المخلوقات، من السموات والأرض والملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات وسائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

فكل ما في هذا الكون من المخلوقات هو من آيات الله الدالة على وجوده وعظمته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، واستحقاقه العبادة وحده دون من سواه.

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[2]

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢).

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الإشارة للذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ساكنوها وملازموها أشد من ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم خالدين فيها خلودًا أبديًّا، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ [الآيتان: ١٦٧، ١٦٨]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول لله ﷻ، وإثبات عظمته، وإثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وفي الآيات بعدها.

٢- فضل آدم- عليه الصلاة والسلام- على الملائكة؛ لأن الله أمرهم بالسجود له، إكرامًا واحترامًا؛ وإظهارا لفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

٣- أن سجود الملائكة لآدم بأمر الله تعالى إنما هو عبادة لله تعالى؛ لأن الله هو الذي أمر بذلك- لإظهار فضل آدم- ولهذا لما امتنع إبليس عن السجود وكان من الكافرين، وليس سجودهم عبادة لآدم؛ لأن السجود لغير الله لا يجوز.

٤- مبادرة الملائكة بالسجود لآدم طاعة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

٥- امتناع إبليس عن السجود لآدم إباءً ومعصية لأمر الله، واستكبارًا عن الحق، وعلى الخلق، وكفرًا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٦- تشريف الله تعالى لآدم ﷺ بندائه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٧- فضل الله ﷻ ومنته على آدم وزوجه «حواء» في إسكانهما الجنة وإباحته لهما الأكل

منها رغدًا حيث شاءا، ومتى شاءا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

٨- أن النكاح سنة من سنن الأنبياء والمرسلين منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

٩- ظاهر الآية ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أن حواء خلقت قبل دخول الجنة، وقيل: خلقت بعد دخول الجنة

١٠- نهي الله عز وجل آدم وزوجه عن الأكل من شجرة معينة في الجنة امتحانا لهما، ولحكمة يعلمها عز وجل، وتحذيرهما من الظلم بالأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١- أن ارتكاب ما نهى الله عنه ظلم من وجهين: الأول أنه مخالفة لنهي الله عز وجل والثاني: أنه ظلم للنفس لتعريضها لعقاب الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٢- سعة فضل الله تعالى ورحمته ورفعه الحرج عن العباد، فقد أباح لآدم الأكل من الجنة مما شاء أو حيث شاء أو متى شاء، ولم يحظر عليهما إلا الأكل من شجرة واحدة، فإذا منع من شيء أباح أشياء، وإذا سد بابًا فتح عدة أبواب.

١٣- إيقاع الشيطان آدم وزوجه في معصية الله، والأكل من الشجرة بوسوسته وتزيينه لهما ذلك، وإخراجهما مما كانا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

١٤- إخراج آدم وزوجه من الجنة وإهباطهما وإبليس إلى الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الشيطان ووسوسته وفتنته وتزيينه المعاصي، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٦- الإشارة لعلو وعظم ما كان فيه آدم وزوجه في الجنة من المسكن الطيب والعيش

الرغيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

١٧- أن الجنة في مكان مرتفع عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ في الموضعين من الآيات.

١٨- أن الشيطان عدو لآدم وزوجه وذريتهما؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

١٩- أن مستقر بني آدم ومتاعهم هو هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٠- نعمة الله على بني آدم في جعل الأرض وتهيئتها لاستقرارهم وتمتعهم فيها وعيشهم عليها.

٢١- منة الله تعالى على آدم عليه السلام حيث وفقه للتوبة، ولقنه كلمات كانت بها توبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

٢٢- تشريف آدم وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّهِۦ﴾.

٢٣- نعمة الله تعالى على آدم في قبول توبته- بعد أن وفقه إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

٢٤- فضل الدعاء بهذه الكلمات التي دعا بها أبونا آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وأن الدعاء بها سبب لقبول التوبة والمغفرة والرحمة.

٢٥- إثبات اسم الله عز وجل «التواب»، وصفة التوبة على عباده بتوفيقه العبد للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله عز وجل «الرحيم»، وصفة الرحمة له عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه: رحمة خاصة وعامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٧- إهباط آدم وزوجه للابتلاء والتكليف لهما ولذريتهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الآية.

٢٨- أن الهدى هدى الله ومن الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ فمن تعبد لله بغير هداه وشرعه فليس بمهتد بل هو ضال.

٢٩- الترغيب في اتباع هدى الله والوعد لمن اتبع هدى الله بكمال الأمن والسرور، وانتفاء الخوف والحزن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فبعد أن ذكر جزاء من اتبع هدى الله وثوابه ذكر عقاب من كفر وكذب بآيات الله.

٣١- التحذير من الكفر بالله والاستكبار عن طاعته، والتكذيب بآياته، والوعيد الشديد المؤكد للكفار والمكذبين بملازمة النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٢- تحقير وانحطاط رتبة من اتصفوا بالكفر بالله والتكذيب بآياته؛ لأن الله أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾.

أمر الله ﷻ الناس بعبادته وحده، ونهاهم عن الشرك به، مذكرًا لهم بدلائل صنعه في الكون، وفي خلقه لأبيهم، وصدق رسالة النبي ﷺ ثم أقبل بالخطاب على بني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن الكريم مذكرًا لهم في هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝١٢٣﴾، بما أنعم الله به على آبائهم وأسلافهم، وما أخذ عليهم من العهود والمواثيق، ومقابلتهم ذلك بالعتو والعناد، وكفر نعم الله، ونقض العهود والمواثيق، وتكذيب الرسل أو قتلهم، وما حل بهم بسبب ذلك من العقوبات، إلى غير ذلك. وفي خطابه ﷻ لبني إسرائيل في عهده ﷺ وتذكيرهم بذلك كله دلالة واضحة على أن العهد أخذ على السابق منهم واللاحق، وأن النعمة نعمة عليهم جميعًا، كما أن النقمة عليهم جميعًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾.

هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ «يا» حرف نداء، و«بني»: منادى، وهو مضاف و«إسرائيل» مضاف إليه، و«إسرائيل» لقب «يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم السلام».

ومعنى «إسرائيل» عبد الله.

فبنو إسرائيل هم ذرية يعقوب وأولاده ذكورهم وإناثهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ لأن «بني» وإن كان في الأصل للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة أو لأمة شملت الذكور والإناث، كما يقال: بنو أمية،

وبنو العباس، وبنو تميم، ونحو ذلك.

وبنو إسرائيل هم والعرب أبناء العم؛ لأن بني إسرائيل ذرية يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، والعرب ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وبنو إسرائيل هم اليهود والنصارى، ورسلهم.

والخطاب في الآية وغيرها من هذه الآيات لبني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ، وبخاصة اليهود الذين كانوا في المدينة وما حولها، وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة، ومن يأتي بعدهم، تذكيرًا لهم بما سلف منه ﷻ إلى آبائهم وأسلافهم.

قال ابن القيم[1]: «فإنما يُذكِّرهم بنعمته على آبائهم؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة، بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده، ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها؛ ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله، ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له، ومعاداتكم إياه».

وفي ندائهم باسم أبيهم «إسرائيل» وهو يعقوب عليه السلام النبي الكريم، والعبد الصالح تهييج وحث وإغراء لهم على الطاعة والامتثال.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾: أي: اذكروا نعمتي واشكروها بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم؛ لأن ذكر النعمة يكون بالاعتراف بها باطنًا بالقلب، وبالإقرار بها ظاهرًا بالقول باللسان، والثناء على الله ﷻ والتحدث بها، وبالجوارح باستعمالها في طاعة الله تعالى وحفظها عن معصيته ﷻ.

ونعمة في قوله ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ مفرد مضاف فيعم جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم الدينية والدنيوية، والتي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٢).

[إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، ومن أعظم نعم الله على بني إسرائيل أن جعل فيهم الأنبياء والملوك والحكم، وآتاهم الكتاب والآيات العظيمة الشرعية والكونية، وفضلهم على عالمي زمانهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفجر لهم من الحجر العيون، وأنجاهم من آل فرعون، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الجملة بعد قوله ﴿نِعْمَتِىَ﴾ للتأكيد على أن هذه النعم فضل محض من الله ﷻ وحده، لا من كسبهم، ولا من كسب آبائهم، أو كسب غيرهم من الخلق.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

ذكرهم ﷻ أولًا بنعمه إجمالا؛ لأن ذلك أدعى لقبول الحق، وأقوم للحجة عليهم، ولصرفهم عن الحسد لهذه الأمة على ما آتاهم الله من فضله، ثم أتبع ذلك بذكر الأوامر والنواهي؛ لأن من طبع النفوس الكريمة محبة المنعم، وامتثال أمره.

كما قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[1]

قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ الوفاء بالعهد إتمامه والإتيان به وافيًا، أي: ائتوا بعهدي وافيا، وعهد الله الذي أخذه على بني إسرائيل هو الإيمان به وبرسله وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإقامة شرعه.

---

(١) البيتان، لمحمود الورّاق. انظر: «الكامل في اللغة» (٢/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن ذلك بيان أمر النبي محمد ﷺ أنه رسول الله، وأنهم يجدونه مكتوبا عندهم أنه نبي الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ «أوف» مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأنه جواب الطلب في قوله ﴿وَأَوْفُوا۟﴾، أي: أعطيكم ما عهدت به إليكم من الجزاء على أعمالكم وافيًا بتكفير السيئات وإدخالكم الجنات، كما قال تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الآيتان ١٥٦، ١٥٧ الأعراف].

والوفاء بعهد الله شامل لما عهد الله به إلى الخلق وألزمهم به،ولما ألزموا به أنفسهم من نذور وعهود فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم مع بعضهم بعضا، مما ليس فيه معصية لله- تعالى.

فمن وفى لله بما عاهد الله عليه وفى الله له بعهده ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وهو ﷻ أكرم من خلقه فيعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ معطوف على ما قبله، وبهذا جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

و﴿وَإِيَّٰىَ﴾: ضمير منفصل في محل نصب مفعول ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾، وقدم عليه لإفادة التخصيص والحصر، أي: فارهبوني وحدي، دون غيري، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، أي: لا نبعد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

والرهبة: شدة الخوف والخشية التي تقتضي التعظيم والانقياد والطاعة، وذكر نعم الله وشكرها؛ ولهذا عطف الأمر بها على ما قبله لأنها مع الرجاء هما السببان اللذان يحملان على الطاعة والامتثال، وهي من أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله ﷻ، كالرجاء والتوكل ونحو ذلك، أي: وإياي فاخشوني وخافوني وحدي، دون سواي.

وليس من ذلك الخوف الطبيعي، كالخوف من العدو والسبع ونحو ذلك مما يخشى منه الضرر فإن هذا أمر جبلي لا يمكن دفعه.

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام والإيمان بالقرآن، بعد أن مهد لذلك بما يهيئ نفوسهم لقبوله من تذكيرهم نعمته، وأمرهم بالوفاء بعهده، ورهبته وحده.

قوله: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ فهو من مقتضى ذكر نعمة الله عليهم وشكرها والوفاء بعهده ورهبته.

أي وصدقوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ، وانقادوا له ظاهرًا وباطنًا.

وبدأ بالأمر بالإيمان بالقرآن في تفصيله لعهده؛ لأنه لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا بالإيمان بالقرآن، وبمن أنزله الله عليه وهو محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ «مصدقًا» حال من المنزَّل، و«ما» موصولة، أي: حال كونه مصدقًا للذي معكم من التوراة والإنجيل، و«المصدق» المخبر بصدق غيره، أي: مخبرا وشاهدا بصدق التوراة، وأنها من عند الله حقًا وصدقا.

وهو أيضًا مصداق ما أخبرت وبشرت به التوراة والإنجيل من أوصاف النبي ﷺ ومن أوصاف القرآن الكريم، وهذا مما يوجب عليكم الإيمان به؛ لأنه من الإيمان بما معكم مما جاء به موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء الله- تعالى.

كما أن الكفر به وتكذيبه كفر وتكذيب بما معكم، لأن من كذب بكتاب من كتب الله، أو رسول من رسله، فقد كذب بجميع الكتب والرسل.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي: ولا تكونوا يا بني إسرائيل أول فريق كافر بالقرآن، وبمن أنزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ؛ لأن الكفر بالقرآن يستلزم الكفر بمن أنزل عليه، والكفر ضد الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أبلغ من «ولا تكفروا به» لتضمنه نهيهم عن المبادرة إلى الكفر به، وتوبيخهم على التأخر عن الإيمان به، وكونهم قدوة لغيرهم بالكفر به عكس ما كان ينبغي منهم؛ ولهذا كان كفرهم به- مع تصديقه لما معهم- أشبه بكونهم أول من كفر به، وإن سبقهم مشركوا مكة؛ لقيام الحجة عليهم أكثر من مشركي مكة، إضافة إلى ما فيه من إيحاء إلى أنهم سيكونون أول من يكفر به- حسدا وبغيا كما ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٠]؛ ولهذا عاتبهم الله تعالى في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الآية: ٧٠]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، معطوف ما قبله، فيه بيان أن سبب كفرهم، وعدم إيمانهم شراؤهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، واختيارهم العرض الدنيوي الأدنى.

أي: ولا تبتاعوا بآياتي الشرعية وتعتاضوا عنها، وعن الإيمان بها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من المناصب والرياسات والجاه ومتاع الدنيا الزائل الحقير الفاني، وقد جمع ﷻ «آيات» وأضافها إليه تعظيمًا لها، بينما حقَّر المشترى بها بتنكيره ووصفه بالقلة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وذلك- والله قليل- ولو كان الدنيا بحذافيرها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والنهي لبني إسرائيل نهي لعلماء هذه الأمة من باب أولى بالبعد عن هذا المسلك المشين؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم، كما قال ﷺ[١] ولهذا قال سفيان بن عيينة: «من حسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»[٢].

ومما يؤسف له أن جُعل كثير من العلوم- وبخاصة العلوم الشرعية- مطية للمكاسب الدنيوية، وجمع المال والشهرة ونحو ذلك، مصداق قوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى، قال: فمن ؟!»**[٣].

وليس من هذا أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله ﷻ؛ لقوله ﷺ: **«إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»**[٤].

وجمهور أهل العلم على جوازه، لهذا الحديث وغيره.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ كقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾، والمعنى: اتقوني وحدي دون غيري،

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٣١)- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٦٦٩)- من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٧)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بفعل ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه، والرهبة مما يحمل على التقوى؛ ولهذا قدم الأمر بها على الأمر بالتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: ولا تخلطوا الحق بالباطل، بإظهار الباطل وتمويهه وترويجه في صورة الحق فيلتبس أحدهما بالآخر، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

و«الحق» الأمر الثابت، من حقَّ إذا ثبت ووجب، أي: ولا تلبسوا الدين الحق، والقول الحق، وهو ما أنزله الله على رسوله ﷺ، وما عندكم من العلم بذلك.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل ضد الحق، وهو الأمر الزائل، الضائع، الزاهق المضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

قال لبيد:

ألا كل ما شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ　　　وكل نعيمٍ لا محالةَ زائلُ[1]

والمراد بـ «الباطل» هنا تكذيبهم ما جاء به محمد ﷺ، وإنكارهم شهادة كتبهم بصدقه، وزعمهم أنه خاص بالعرب ونحو ذلك، وما هم عليه من الدين المحرف.

وأكثر ضلال من ضل من الخلق بسبب تلبيس شياطين الجن والإنس عليهم الحق بالباطل، فالذين أعرضوا عن دعوة الرسل بسبب التلبيس عليهم بأنهم سحرة أو مجانين أو نحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

والذين عبدوا الأصنام من قوم نوح بسبب تزيين الشيطان لمن قبلهم نصب تصاوير أولئك الصالحين بحجة التقوِّي على العبادة، ثم ما لبث الناس أن عبدوهم.

والذين ارتدوا بعد وفاته ﷺ ومنعوا الزكاة احتجوا بأنهم كانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ طاعة له قالوا: ليس علينا طاعة لأحد بعده.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

والذين خرجوا على علي ﷺ واستباحوا دمه ودماء المسلمين قالوا: لا حكم إلا لله؛ ولهذا رد عليهم علي ﷺ بقوله: «**كلمة حق أريد بها باطل**»(١).

ومن أعظم تلبيس الحق بالباطل ما يكتبه أولئك الذين يخوضون في كثير من القضايا والمسائل الشرعية في كتاباتهم في الصحف والمجلات والمواقع على الانترنت، أو في مقالاتهم المسموعة عبر الإذاعات وعلى الشاشات، ويجادلون ويناقشون، مع قلة بضاعتهم، بل وعدم تخصصهم لا لشيء إلا لإثارة البلبلة، وتشكيك الناس حتى في ثوابت دينهم، فتجدهم يطنطنون حول حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحجابها، وعملها، وقيادتها للسيارة، وتعدد الزوجات، والطلاق، والميراث، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

وصدق الله العظيم: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وكأنهم يريدون أن يشرعوا مع الله، وكان الواجب على أمثال هؤلاء أن يعرفوا قدرهم، وأن يعطوا القوس باريها، فإن الكلام في مسائل الدين توقيع عن رب العالمين، كما أن مسائل الطب وقضاياه لا يتكلم فيها إلا المتخصصون في طب الأبدان، فمن باب أولى يجب ألا يتكلم في مسائل الشرع وقضاياه إلا المتخصصون في علم الأديان، ولكن كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]،

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨].

وقد أحسن القائل:

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(٢)

وصدق المصطفى ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٣).

وقال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٦٦)، من حديث أبي رافع ﷺ مولى النبي ﷺ.

(٢) البيت منسوب ليحيى بن علي باشا الأحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه النسائي في الأشربة (١/ ٥٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨)- من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾، الواو: عاطفة، فالجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فالفعل «تكتموا» مجزوم بما جزم به «تلبسوا» أي: ولا تكتموا الحق، فنهاهم عن كتمان الحق، كما نهاهم عن لبس الحق بالباطل.

ويحتمل أن تكون الواو «واو» المعية، فيكون الفعل «تكتموا» منصوب بأن مضمرة؛ لأن لبس الحق بالباطل يستلزم كتمان الحق، كما في قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

أي: وأنت تأتي مثله.

قال ابن القيم[2]: «وقد اختلف في قوله ﴿وَتَكۡتُمُواْ﴾ هل هو منصوب أو مجزوم على قولين مبنيين على «الواو»، هل هي «واو» عطف أو «واو» صرف، فمن جعلها «واو» عطف قال: النهي تعلق بكل واحد من الأمرين على انفراده، ولو كانت «واو» صرف لكان المنهي عنه جمعهما لا أفرادهما، ومن جعلها «واو» صرف قال: لبس الحق بالباطل مستلزم لكتمانه، كما يكتم الحق من لبسه بما يستره ويغشيه، فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالنهي عن أحدهما نهي عن الآخر بطريق اللزوم، ففي كون الواو «واو» جمع إفادة هذا المعنى، وإن كتمان الحق ملازم للبسه بالباطل لا ينفك عنه، ولا يمكن إيقاع أحدهما إلا بالآخر، وهذا شأن كل متلازمين، وهذا القول أميز من الأول وأعرب».

ومعنى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: وتخفون الحق، وهو ما عندكم من المعرفة والعلم بصدق محمد ﷺ، وما جاء به، وما في كتبكم من الشهادة بصدقه.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنكم تعلمون أن ذلك حق، وتعلمون حقيقة صنيعكم، وأنه لبس للحق بالباطل؛ ولهذا وبخهم الله تعالى، وأنكر عليهم هذا في سورة آل عمران، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [الآية: ٧١].

وصدور المعصية والمخالفة من العالم أشد وأعظم، وآكد في النهي والتحريم؛ لأن

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص ٤٠٤.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٣).

الله أخذ الميثاق على أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم، وأوجب عليهم بيان الحق وإظهاره، وحرم عليهم لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق وإظهار الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أمر في الآيات السابقة بالإيمان باطنا بما أنزل الله والتصديق به، ثم أمر في هذه الآية بالعمل ظاهرا بمقتضى الإيمان بإقامة شعائر الإسلام الظاهرة والتي أعظمها وأهمها الصلاة والزكاة.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: ائتوا بالصلاة وأدوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والمراد بالصلاة هنا ما يشمل الفرائض والنوافل، والأمر للوجوب بالنسبة للفرائض؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، فهي الركن الثاني بعدهما، وهي عمود الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»[١].

وقال ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة**»[٢].

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[٣].

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطوا الزكاة أهلها، وهم الأصناف الثمانية، طيبة بها

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩) من حديث بريدة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأبو داود في السنة (٤٦٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

نفوسكم، بلا من ولا أذى.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: وصلوا مع المصلين المسلمين، وعبر عن الصلاة بالركوع؛ لأنه من أعظم أركان الصلاة، وموضع تعظيم الرب، قال ﷺ: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب**»[(١)].

وهو تأكيد للأمر بالصلاة، وبيان لمعناها؛ لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها، قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقد استدل بعض أهل العلم بالآية على وجوب صلاة الجماعة في المساجد.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

٢- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم؛ لأن تذكر النعم أدعى لقبول الحق؛ ولهذا فالتذكير بالنعمة من وسائل الدعوة إلى الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٣- فضل الله ومنته على بني إسرائيل في إنعامه عليهم بالنعم التي لا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ونعمة مفرد مضاف إلى معرفة يفيد عموم نعم الله، وأن النعمة على الآباء والسلف نعمة على الأبناء والخلف.

٤- إثبات وتأكيد أن المنعم الحقيقي بجميع النعم هو الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٥- وجوب الوفاء بعهد الله، وأن من وفى بعهد الله وفى الله بعهده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، فمن وفى بعد الله بالإيمان بالله وطاعته، وفى الله بعهده بالثواب والجزاء العظيم ومفهوم هذا أن من لم يف بعهد الله فإنه لا يستحق ما وعد الله به بل يعاقب.

٦- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٧- وجوب الرهبة والخوف من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

٨- إيجاب الإيمان بالقرآن على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

٩- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡتُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٠- إثبات أن القرآن منزل من عند الله غير مخلوق، والرد على القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡتُ﴾.

١١- تصديق القرآن للتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية السابقة، فهو مبين أنها حق وصدق وهو مصداق ما أخبرت به؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

١٢- في بيان أن القرآن مصدق لما معهم إغراء وترغيب لبني إسرائيل بالإيمان به وتصديقه.

١٣- نهي بني إسرائيل أن يكونوا أول كافر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾، وفي هذا نهي لهم عن المبادرة إلى الكفر به في الحال التي كان ينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به، كما أن فيه إشارة إلى أنهم سيكونون من أول من يكفر وهكذا فعلوا.

١٤- نهي بني إسرائيل عن الاشتراء بآيات الله والإيمان بها وتصديقها ثمنًا قليلًا في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، وهذا نهي لهم ولغيرهم.

١٥- أن كل ما استبدل واستعيض به عن الإيمان بآيات الله فهو قليل، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾.

١٦- وجوب تقوى الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾.

١٧- تحريم لبس الحق بالباطل، ووجوب تمييز الحق عن الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

١٨- تحريم كتمان الحق ووجوب بيانه وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾.

١٩- أن كتمان الحق مع العلم به أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأن الجاهل قد يعذر.

٢٠- وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنهما من أعظم العبادات، فالصلاة أعظم العبادات البدنية فيها الإحسان في عبادة الله تعالى، والزكاة أعظم العبادات المالية، فيها الإحسان إلى عباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢١- وجوب الجمع بين الإيمان والإسلام، بين الأعمال الباطنة والظاهرة، بين أعمال القلوب والجوارح.

٢٢- تأكيد وجوب الصلاة ووجوبها جماعة مع المصلين في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

٢٣- عظم مكانة الركوع من الصلاة، لهذا عبر عنها بالركوع في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: صلوا مع المصلين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، والخطاب لأهل الكتاب وبخاصة أحبارهم وعلماؤهم، والمراد بـ «الناس» من عدا الآمر سواء كان من اليهود أو من غيرهم من المشركين ونحوهم.

و«البر»: اسم جامع لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [الآية ١٧٧ من سورة البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال ﷺ: **«البر حسن الخلق»، «البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب»**(١).

أي: أتأمرون الناس بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: وتتركون أنفسكم فلا تأمرونها بذلك، وفي هذا تنديد بحال أحبارهم وتعريض بأنهم يعلمون أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق.

أي: كيف يليق بكم يا معشر يهود- وأنتم تأمرون الناس بالبر- أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرونها بما تأمرون به الناس.

وقد كان بعض رؤساء وأحبار اليهود يأمر الناس من أقاربه وغيرهم باتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنَّ ما جاء به حق، لكنه بنفسه لا يتبع هذا الحق- حفاظا على رئاسته وجاهه.

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: **«أسلم»** فنظر إلى أبيه، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذي أنقذه من**

---

(١) سيأتي تخريجهما.

النار»[١].

﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم تتلون الكتاب.

أي تقرؤون وتدرسون «الكتاب»، يعني «التوراة» والذي فيه أمركم بفعل البر بأنفسكم، وأمر الناس بذلك، وقيام الحجة عليكم بالعلم في ذلك، وفي هذا دلالة على عظم مسؤولية العلماء.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تفقهون وتفهمون، وترشدكم عقولكم إلى خطئكم وضلالكم وقبح ما تفعلون، إذ لا يليق بالعاقل أن يأمر الناس بالبر والخير، ويترك نفسه فلا يأمرها بذلك.

فهم ذوو عقول يدركون بها، وهي مناط تكليفهم، ولولاها ما كلفوا، كما في حديث علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يبلغ**»[٢].

ولكنهم لما لم يسترشدوا بعقولهم إلى فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم صاروا كالذين لا يعقلون، كما قال تعالى عن أضرابهم من الكفار: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإنما أنكر الله ﷻ على بني إسرائيل هذا الصنيع ووبخهم عليه من جهة أنهم نسوا أنفسهم وتركوها فلم يأمروها بالبر، لا من جهة أنهم أمروا الناس بذلك؛ لأن كلا من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر.

لكن الأولى بالآمر أن يمتثل ما يأمر به، ويجتنب ما ينهى عنه، ولا يخالف فعله قوله، كما قال شعيب ﵇ لقومهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٦)، وأبو داود في الجنائز- عيادة الذمي (٣٠٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

وعلى هذا ينزل ما جاء في الوعيد على ذلك، كما في حديث أسامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: ما لك يا فلان؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

وعلى هذا فليس في الآية دلالة على أن العاصي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وإنما فيها ذم وتوبيخ وتفظيع لحال من يأمر الناس بالبر ويترك نفسه؛ ولهذا ختمت بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أن هذا العمل لا يليق بالعاقل.

قال ابن كثير(٢): «والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر- وإن ارتكبه، ولكنه- والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم».

ولا شك أن الأولى بالآمر والناهي أن يبدأ بنفسه، وذلك أحرى لقبول أمره ونهيه؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما للرجل الذي قال إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر: «قال له: «أوبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: «إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ [هود: ٨٨]، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق- من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٢٢).

بنفسك»[١].

فهذا محمول على أنه الأولى بالآمر الناهي أن لا يخالف فعله قوله، كما قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[٢]

وعلى هذا فلا يعد ذريعة لترك الأمر والنهي كون الشخص يخالف ما يأمر به، أو يرتكب ما ينهى عنه، لانفكاك الجهة؛ لأن المطلوب فعل المعروف، والأمر به، فإذا لم يفعل الشخص المعروف لم يبرر له ذلك ترك الأمر به.

كما أن المطلوب ترك المنكر، والنهي عنه، فإذا ارتكب الشخص المنكر لم يبرر له ذلك ترك النهي عنه.

ولو قيل: لا يأمر المعروف إلا من فعله، ولا ينهى عن المنكر إلا من تركه، فمن يأمر بالمعروف، ومن ينهى عن المنكر، ومن الذي يسلم من ترك المأمور وارتكاب المحظور؟!

وقد أحسن القائل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

وقال الآخر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه[٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾.

قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الاستعانة: طلب العون، أي: اطلبوا العون من

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٢٣).

(٢) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص٤٠٤.

(٣) البيت ينسب لبشار بن برد، ولعلي بن الجهم وليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «جمهرة الأمثال المولدة» ص٣٨٩.

الله ﷻ على الوفاء بعهده ورهبته، وعلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وعلى جميع أمور دينكم ودنياكم ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

والصبر في اللغة: الحبس والمنع.

وعرفه بعضهم بأنه: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو واجب، وأجره عظيم، وثوابه جسيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «**ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأفضل من الصبر**»(١)، وعن علي رضي الله عنه قال: «**عليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بار الجسد، ألا لا إيمان لمن لا صبر له**»(٢).

وهو أنواع ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله: وهو أعظم أنواع الصبر؛ لتضمنه حمل النفس على فعل الطاعات، كالصلاة والزكاة والصيام، والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، ونحو ذلك، ومنعها من التهاون بها، ومراغمة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

الثاني: الصبر عن معصية الله، وهو كف النفس عن المعاصي، كالربا والزنا والسرقة، ونحو ذلك، وفضله عظيم؛ ولهذا قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»(٣)، فصبر عن الوقوع في الفاحشة مع قوة الداعي؛ خوفًا من الله ﷻ، فأثابه الله على هذا بأن جعله من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» (١/ ٢١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاء (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، قال أحدهم: «**اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكانت من أحب الناس إلي، فراودتها عن نفسها فامتنعت، فألمت بها سنة فجاءت إلي لأعطيها شيئًا من المال، وتخلي بيني وبين نفسها، فلما جلست بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت لها ما أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه**» الحديث(١).

وإنما كان الصبر عن معصية الله في المرتبة الثانية، لأنه لا عمل فيه بل هو كف فقط، لكن بالنسبة للصابرين قد يكون بعضهم الصبر على الطاعة أهون عليه من الصبر عن المعصية والفاحشة، ومن أعظم الصابرين عن المعصية والفاحشة يوسف عليه السلام فقد ابتلي بذلك فصبر، فصرف الله عنه السوء والفحشاء.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه لما أرسلت إليه ﷺ إحدى بناته تخبره أن صبيا لها في الموت، قال: «**مرها فلتصبر وتحتسب**»(٢).

ويأتي في المرتبة الثالثة بين أنواع الصبر وفضله عظيم.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

وقال ﷺ: قال الله عز وجل: «**ما لعبدي المؤمن إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»(٣).

وفي حديث المرأة التي تصرع وتتكشف لما قالت يا رسول الله ادع الله لي قال ﷺ: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك، فقالت: بل أصبر، ولكن ادع الله لي ألا أتكشف، فدعا الله لها أن لا تتكشف**»(٤).

وإنما كان الصبر على أقدار الله في المرتبة الثالثة لأنه لا اختيار للإنسان في دفع

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٦)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

القدر، وهو نافذ، صبر الإنسان أو لم يصبر، والجزع لا يرفع المقدور إذا وقع.

أتصبر للبلوى رجاء وحسبة   فتؤجر أم تسلو سلو البهائم[(١)]

ومنه صبر نبينا محمد على ما ناله من قومه من الأذى وكذا غيره من الأنبياء عليهم السلام، ومنه صبر يوسف عليه السلام على ما فعل إخوته به، وصبر أيوب عليه السلام على المرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

والصبر من أوجب وأجل العبادات ومن أعظم ما يستعان به على أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**وأن النصر مع الصبر**»[(٣)].

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: واستعينوا بالصلاة فرضها ونفلها، فهي أعظم العبادات وعمود الإسلام وقاعدته التي تدور عليها رحاه، وأعظم أسباب العون على أمور الدين والدنيا، والتوفيق لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، والبعد عن المنهيات، وحصول الرزق، والنصر والثبات في الأمر، وقبول الأعمال وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

---

(١) البيت ينسب لأبي تمام. انظر: «الصناعتين» ص٢١٢.

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان ﷺ يوم بدر يصلي في العريش، ويناشد ربه النصر[١]، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى**»[٢].

وكان ﷺ يقول: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**»[٣].

ولسان حال كثير من المسلمين اليوم يقول: أرحنا من الصلاة- نسأل الله الهداية والتوفيق.

ولما أخبر ابن عباس رضي الله عنهما وهو في سفر بموت أخيه «قثم» استرجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين، أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[٤].

قال ابن تيمية: في «السياسة الشرعية»[٥]: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور: أحدها الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن، والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة، والثالث: الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب».

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إنها لكبيرة.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعود إلى الصلاة لأنها أقرب مذكور، أي: إن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين.

ويجوز عوده إلى المصدر المفهوم من قوله ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ وهي الاستعانة، أي: وإن الاستعانة بالصبر والصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين. وقيل: يرجع إلى المأمورات من قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لثقيلة صعبة شاقة، كما قال تعالى في تحويل القبلة: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩١٥)، ومسلم في الجهاد- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣١٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٥)- من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٦٢٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٨١).

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي: شق عليك، وقال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر.

﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ «جمع خاشع»، والخشوع الذل والخضوع لله ﷻ.

أي: وإن الصلاة أو الاستعانة بالصبر والصلاة لصعبة ثقيلة شاقة، لا تخف ولا تسهل إلا على الخاشعين الذليلين الخاضعين لله ﷻ خوفًا من عقابه ورجاء في ثوابه.

أي: أن الصلاة وأداءها والقيام بها كما شرعها الله أمر ثقيل وصعب شاق إلا على من وفقه الله لتعظيم الخالق والذل والخضوع له.

وأيضًا: الاستعانة بالصبر والصلاة أمر ثقيل وصعب وشاق إلا على من وفقه الله لتعظيم الخالق والذل والخضوع له، وهذا كما قال ﷺ لما قال له معاذ ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة...**» الحديث[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، الجملة في محل جر صفة لـ ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

ومعنى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يتيقنون ويعلمون، والظن يأتي كثيرًا في القرآن بمعنى اليقين والعلم، كما قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: تيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي: تيقنوا أنهم مواقعوها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٤).

وقال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، أي: تيقنت وعلمت.

وعن أبي هريرة ﷺ أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «**ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**»[(١)].

وإطلاق الظن على اليقين في كلام العرب كثير جدًا.

قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنّوا بألفي مدجّجٍ سَراتُهم في الفارسيِّ المَسرَّد[(٢)]

يعني: تيقنوا ألفي مدجج يأتونكم.

وقال الآخر:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيبًا مرجما[(٣)]

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنهم سيلقون ربهم ويقابلونه، ويحشرون إليه ويعرضون عليه، وفي هذا إثبات المعاد وملاقاة الله ﷻ؛ لأن الله امتدحهم بتيقنهم ملاقاته ﷻ،وفيه دليل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم ﷻ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: وأنهم إليه وحده راجعون وصائرون في جميع أمورهم في حياتهم وبعد مماتهم، وبعد بعثهم وقيامهم لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

أي: أن مرجعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم إليه ﷻ وإليه إيابهم وعليه حسابهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

ولهذا حملهم يقينهم بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه على خوف الله ﷻ وخشيته

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١/ ٦٢٤)، «الأضداد» لابن الأنباري (١٢)، لسان العرب- مادة «ظن».

(٣) البيت لعميرة بن طارق، انظر «جامع البيان» (١/ ٦٢٤)، «الأضداد» ص (١٤)، النقائض (١/ ٥٣).

ومراقبته، والذل والخضوع له، والانطراح بين يديه؛ رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه، وخفف عليهم ذلك فعل الطاعات، ومنعهم من اقتراف السيئات، ومنحهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وفي هذا تعريض بالثناء على المؤمنين، وحث لبني إسرائيل على الاقتداء بهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخهم على أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم، مع علمهم بوجوب امتثال ما يأمرون به، وقيام الحجة عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- الإنكار على من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، وأن من فعل ذلك مع العلم ففيه شبه من اليهود، وأن المسؤولية على العلماء أعظم من غيرهم.

٣- جهل بني إسرائيل وحمقهم وسفههم حيث يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهكذا يكون حكم من سلك طريقهم.

٤- الإرشاد إلى الاستعانة على أمور الدين والدنيا بالصبر والصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥- فضل الصبر والحث على الاستعانة به على أمور الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

٦- عظم أثر الصلاة في حياة المسلم، وأنها من أعظم ما يعين على أمر الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٧- إن الصلاة لكبيرة شاقة، وكذا الاستعانة بالصبر والصلاة، إلا على الخاشعين الذين يوقنون بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه، فهي سهلة يسيرة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وكل من الصبر والصلاة واجب؛ ولهذا قرن الله بين الصبر والصلاة في أكثر من خمسين موضعا في القرآن الكريم.

٨- الترغيب في الخشوع والذل والخضوع لله تعالى بالقلب والجوارح، وأن من كان لله أخشع كان له أطوع.

٩- أن من صفات المؤمنين المستعينين بالصبر والصلاة يقينهم بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه مما يحملهم على الخوف من الله ومراقبته والحياء منه، ويسهل عليهم القيام بالأعمال الصالحة؛ رجاءً في ثوابه، وخوفاً من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٠- إثبات ملاقاة المؤمنين لله تعالى ورؤيتهم له يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

١١- امتداح الله ﷻ للخاشعين والثناء عليهم، وتشريفهم بإضافة اسمه إلى ضميرهم في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم.

١٢- إثبات القيامة ولقاء الله والرجوع إليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ سبق الكلام عليه.

وأعيد خطابهم كما سبق بطريق النداء للعناية والاهتمام، وفيه تأكيد لوجوب ذكر نعمه ﷻ وشكره.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

معطوف على «نعمتي» أي: واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهو من عطف الخاص على العام؛ لأن التفضيل من أعظم نعم الله عليهم.

والمعنى: جعلتكم أفضل العالمين في زمانكم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع «عالَم» بفتح اللام، وهم في الأصل كل ما سوى الله ﷻ أي: كل المخلوقات، عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد وغير ذلك من المخلوقات، وهو مشتق من العلامة؛ لأن كل ما في الكون من المخلوقات علامة على وجود الخالق العظيم، وهو الله ﷻ، وعلى كماله في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

والمراد بـ «العالمين» في الآية كما سبقت الإشارة عالمو زمانهم، وذلك؛ لأن بني إسرائيل في ذلك الوقت هم أهل الإيمان والصلاح والاستخلاف في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

لكنهم صاروا بعد ذلك أحقر الخلق وأشرهم بعد أن لعنهم الله وغضب عليهم بسبب كتمانهم الحق، ونبذ كتاب الله وراء ظهورهم، وتحريفهم كلام الله، ونقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، واشترائهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، وعصيانهم واعتدائهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وأفضل الأمم على الإطلاق أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ **«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا»**(١) وعن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»**(٢).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ذكرهم عز وجل بنعمه وفضله عليهم؛ ليشكروه، ثم حذرهم نقمه وعذابه يوم القيامة.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ معطوف على ما قبله، من عطف التحذير على التذكير بالنعمة، وخاصة نعمة تفضيلهم على العالمين؛ لئلا يغتروا بأنه تفضيل ذاتي لا يضر معه التقصير في العمل الصالح، فحذرهم من ذلك.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تقوى الشيء في اللغة: أخذ الوقاية منه، و«يومًا» منصوب مفعول لـ «اتقوا» ونكر للتعظيم، أي: اتقوا يومًا عظيمًا ثقيلًا عسيرا قمطريرا وهو يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

والمعنى: اتخذوا وقاية من يوم القيامة وأهواله وعذابه بفعل ما أمركم الله به وترك

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران (٣٠٠)، وابن ماجه في الزهد صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

ما نهاكم عنه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تغني ولا تقضي نفس عن نفس شيئًا، فلا تجلب نفس لنفس نفعًا في ذلك اليوم، ولا تدفع عنها ضرًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨].

و «نفس»: نكرة في سياق النفي فيفيد العموم، أي: لا تجزي نفس أيًّا كانت ولو كانت من أنفس الأنبياء والمرسلين والصالحين ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ أيًّا كانت؛ ولهذا نادى ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا عباس عم رسول الله ﷺ اشتر نفسك لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا**»[(١)].

وحتى لو كان أقرب الأقربين، كما قال تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله ﴿شَيْئًا﴾ أيضًا نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء كان مهما قل أو كثر.

وهذا بخلاف ما عليه الحال في الدنيا فإن الناس يتناصرون ويتعاونون، وربما تناصروا على الباطل، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦)، والنسائي في الوصايا (٣٦٤٦) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخـــاك أخـــاك إن مـــن لا أخـــا لـــه كســـاعٍ إلى اليهجـــا بـــدون ســـلاح[١]

وقال الآخر:

ومـــا ضرنـــا أنـــا قليـــل وجارنـــا عزيـــز وجـــار الأكثـــرين ذليـــل[٢]

وقال الآخر:

لـو كنـت مـن مـازن لم تسـتبح إبـلي بنـوا الشـقيقة مـن ذهـل بـن شـيبان[٣]

ولكن في ذلك اليوم هيهات، هيهات أن يجزي أحد عن أحد شيئًا.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتاء «ولا تقبل» وقرأ الباقون بالياء ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ أي: لا تقبل من نفس عن نفس شفاعة، فلا أحد يشفع لأحد في ذلك اليوم، إلا بإذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

والشفاعة: التوسط والسعي للغير بجلب النفع له، أو دفع الضر عنه، مأخوذة من الشفع، ضد الوتر؛ لأن المشفوع له صار بانضمام الشافع إليه شفعًا بعد أن كان وترًا.

فشفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من جلب النفع، وشفاعته ﷺ فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها من دفع الضر.

ففي يوم القيامة لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة، ولا تنفعها شفاعة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال أهل النار فيما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فالشفاعة لا تقبل ممن هو ليس أهلًا للشفاعة، كما أنها لا تنفع من ليس هو أهلًا لها- هذه هي الشفاعة المنفية في الآيتين.

أما إذا كان الشافع أهلًا للشفاعة وكان المشفوع له أهلًا لذلك فهذا مخصوص من

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٢) البيت للسموأل. انظر: «ديوانه» ص٩٠.

(٣) البيت ينسب للعنبري، كما في «لسان العرب» مادة (لقط)، وينسب لقريط بن أنيف، كما في «خزانة الأدب» ٧/ ٤٤١، و«شرح شواهد المغني» ١/ ٦٨.

الآية بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

فيشفع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويشفع المؤمنون بعضهم لبعض.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»(١) وقال ﷺ: «**وأعطيت الشفاعة**»(٢).

وفي حديث الشفاعة يوم القيامة: أن الناس يأتون إليه ﷺ «**فيقول: أنا لها فيسجد تحت العرش فيقال له: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع**»(٣).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: ولا يؤخذ من أي نفس ﴿عَدْلٌ﴾ أي: فداء وعوض يعدل به عن العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قدم المسند إليه؛ تأكيدًا وتحقيقا لانتفاء نصرهم، إضافة لنفي الفعل وإسناده للمجهول، أي: ولا أحد ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله، ويدفعه عنهم، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٧)، وأخرجه البخاري مختصرا في الدعوات (٦٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)،والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) من حديث جابر ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

وجاء الكلام في قوله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بصيغة الجمع مع أن مرجعه في السياق مفرد باعتبار المعنى، فمعنى ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ أي: لا تجزي نفس أيًا كانت عن نفس أيًا كانت، إضافة إلى ما في ذلك من مراعاة فواصل الآيات.

فلا نجاة من أهوال ذلك اليوم وعذابه إلا بتقوى الله، بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، ولا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

فلا نفس تغني عن نفس شيئًا، ولا تشفع لها، ولا عدل يؤخذ منها وفدية، مقابل الخلاص، ولا أحد ينصرهم. مما يوجب التعلق بالله وحده والفرار إليه دون سواه

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾.

هذا من نعمة الله تعالى على بني إسرائيل يذكرهم عز وجل بها؛ ليشكروه عليها، وهي إنجاؤهم من آل فرعون؛ لأن النعمة على أسلافهم وآبائهم نعمة عليهم، والنعم منها ما هو جلب نعم محض، ومنها ما هو دفع نقم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٤١].

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: واذكروا إذا أنجيناكم، أي: حين أنقذناكم وخلصناكم بصحبة موسى عليه السلام من آل فرعون، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ٦].

وقوله ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وملائه وجنوده، و«فرعون» ملك مصر الذي ادعى الربوبية والألوهية في عهد موسى عليه السلام.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ حال، أي: حال كونهم يسومونكم سوء العذاب، أو مستأنفة. أي: وكانوا يسومونكم سوء العذاب، أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب

ويذلونكم، يقال: سامه خسفًا إذا أذله واحتقره.

و﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أشده وأفظعه وأقبحه، وما يسوؤهم من العذاب.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ بيان وتفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [الآية: ٦] بعطف و﴿يُذَبِّحُونَ﴾ عطفًا للخاص على العام.

قوله ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بالتشديد، المبالغة في الذبح لكثرة من يذبحون من بني إسرائيل، وتشديدهم في ذبحهم، وفي الآية الأخرى: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [الآية: ١٤١]، والتقتيل المبالغة في القتل لكثرة من يقتلون، وتشديدهم في قتلهم، والقتل هو الذبح. أو أنهم يذبحون بعضهم، ويقتلون بعضًا بغير الذبح.

والمراد بأبنائهم أطفال بني إسرائيل، فيقتلون الأبناء الذكور استئصالًا لنسل بني إسرائيل، وخوفًا من نموهم، وقيل: المراد بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الرجال، لمقابلته بقوله:

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ أي: ويستبقون نساءكم أحياء يستعبدونهن لضعفهن، فهم بين مذبوح مقتول، وبين مستبقى ذليل متسلط عليه، مرهق بالأعمال الشاقة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

وهذا مما يدل على شدة عداوة فرعون وقومه لبني إسرائيل، وخاصة بعد مبعث موسى ﷺ، كما قال فرعون لما جاءه موسى بالبينات: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ [غافر: ٢٥].

وقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولهذا قال موسى ﷺ لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقيل: إن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى أو قبل ولادته؛ لأن فرعون رأى رؤيا

مفادها أن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل، وقيل: إن الكهنة قالوا له ذلك، وقيل: غير ذلك[١].

واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء: الاختبار، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال زهير[٢]:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم — وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ ترجع إلى الإنجاء، أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء وإنعام وإحسان من ربكم يوجب عليكم شكره والقيام بأمره.

وقد تعود الإشارة إلى سوم آل فرعون لهم سوء العذاب، بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم: أي وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ليعلم مقدار صبركم.

أو يعود إلى الأمرين جميعًا؛ ليعلم من يشكر ومن يصبر ممن هو بخلاف ذلك.

قال تعالى مبينًا ما أحله من العقوبة بفرعون وقومه، ومذكرًا لبني إسرائيل بما أنعم الله به عليهم: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٦٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ

---

(١) انظر «جامع البيان» (١/ ٦٤٦- ٦٥٠).

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٠٩.

مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣- ٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦- ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآية نعمتان يُذكِّر الله بهما بني إسرائيل؛ ليشكروه وهما: فرق البحر لهم، وإنجاؤهم من الهلاك، وتخليصهم من آل فرعون بإغراقهم، وهم ينظرون إليهم.

قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي: واذكروا حين فرقنا بكم البحر، أي فلقناه، وفصلنا بعضه عن بعض، وجعلنا بينهما طريقًا عبرتموه إلى شاطئ البر.

والباء في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ للملابسة، أي: جعلنا فرقه ملابسًا لدخولكم، ويجوز كونها للسببية، أي: لأجلكم.

والمراد بـ «البحر» بحر القلزم، المسمى اليوم بـ «البحر الأحمر».

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: أنقذناكم وخلصناكم من الغرق ومن فرعون وقومه.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي وأغرقنا فرعون وجنده وأنصاره.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي حال كونكم تنظرون إليهم وهم يغرقون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم، وتنظرون إلى عظيم قدرة الله في فرق البحر لكم وبإغراق عدوكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٦].

وذلك أنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر صحبة موسى ﷺ بأمر الله له فراراً من فرعون وتعذيبه، واتجهوا نحو البحر تبعهم فرعون بجنوده، فأوحي الله ﷻ إلى موسى ﷺ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾، فضربه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: فكان كل فرق من البحر كالجبل العظيم، وصار ما بينها طريقًا، يبسا فسلكه موسى ومن معه، ولما تكاملوا خارجين من البحر دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا داخلين أمر الله ﷻ البحر فانطبق عليهم فغرقوا جميعًا.

وفي هذا آية ودلالة عظيمة على عظيم قدرة الله تعالى، ومعجزة لموسى ﷺ، وكرامة له ولبني إسرائيل، وكان ذلك يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأي اليهود يصومون يوم عاشوراء. فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله ﷻ فيه موسى وقومه فصامه موسى ﷺ فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ «**نحن أحق بموسى منكم**» فصامه ﷺ وأمر الناس بصيامه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هاتين الآيتين تذكير لبني إسرائيل بوعده ﷻ لموسى ﷺ أربعين ليلة لينزل عليه التوراة المتضمنة للنعمة العظيمة عليهم، والهدى والنور لهم.

وكان هذا بعد تخليصهم من فرعون وإنجائهم من الغرق، ومن ثم مخالفتهم أمر موسى ﷺ وعبادتهم العجل بعد ذهابه لميقات ربه ثم عفوه ﷻ عنهم لأجل أن يشكروا الله.

والمنة على الآباء والعفو عنهم نعمة عليهم وعلى الأبناء يجب على الجميع شكرها.

قوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو: «وعدنا» بدون ألف بعد الواو، وقرأ الباقون ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بألف بعد الواو، والمعنى واحد.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤) وابن ماجه في الصيام (١٧٣٤).

أي: واذكروا حين واعدنا موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة، أي: حين واعد الله موسى أربعين ليلة؛ لمناجاة ربه، وإنزال التوراة عليه، واعده أولًا ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وذلك لحكمة يعلمها الله ﷻ، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الآية: ١٤٢].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ «العجل» مفعول أول لـ«اتخذ»، والمفعول الثاني محذوف؛ لظهوره وعلمهم به، واستهجان وشناعة ذكره، تقديره: إلهًا أو معبودا.

وفي هذا إنكار عليهم، وتوبيخ لهم، أي: ثم جعلتم وصيرتم العجل إلهًا لكم من بعد ذهاب موسى لميقات ربه، أي: بعد أن غاب عنكم.

و«العجل» في الأصل: ولد البقرة. والمراد به في الآية: تمثال من ذهب على هيئة العجل، نحته وصنعه السامري في غيبة موسى ﵇، وقال لبني إسرائيل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] أي: أن موسى ضل أن يهتدي إلى إلهكم وإلهه، وهو هذا العجل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وفي قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، تشنيع عليهم، إذ كان الواجب عليهم انتظار ما يأتيهم به موسى من الشرع من عند ربه.

وفيه دلالة على سرعة نكوصهم عما عهد به إليهم، وتبديلهم ما تركهم عليه، وانتهازهم لأول وهلة فرصة غيابه عنهم- وما بالعهد من قدم- دون مبرر يدعو لذلك، كبعدٍ وتناءٍ، أو طول غيبة وانتظار، أو غير ذلك، كما قيل:

وما أدري أغَيَّرَهم تناءٍ وطولُ العهد أم مالٌ أصابوا[1]

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

قوله: ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم ظالمون بعبادتكم العجل

(١) البيت للحارث بن كلدة. انظر: «الكتاب» لسيبويه ١/ ٨٨.

والإشراك بالله؛ لأن الشرك بالله أعظم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وأنتم ظالمون لأنفسكم؛ لتعريضها لعذاب الله ﷻ، والخلود في النار، غير معذورين؛ لأن موسى ؈ قد حذركم من مخالفه أمره، ونهاكم عن الشرك، وذكركم نعم الله عليكم؛ لتشكروه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: ثم تجاوزنا عنكم فلم نعاقبكم.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ فيه إشارة إلى أن العفو إنما حصل حينما تابوا وقتلوا أنفسهم، ولما حصل منهم من اتخاذ العجل، وفيه إشارة إلى عظم ذلك أي: من بعد ذلك الذنب العظيم.

كما أن فيه دلالة على سعة حلم الله ﷻ وعفوه وعظيم نعمته عليهم، حيث عفا عنهم، وتجاوز عن عقوبتهم، وأنه لا يتعاظمه ﷻ ذنب أن يغفره ويعفو عنه، حتى الشرك بالله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لأجل أن تشكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم على ما أولاكم من النعم وما دفع عنكم من النقم.

والشكر بالقلب يكون بالإقرار والاعتراف باطنًا أن ذلك من الله وحده، والشكر باللسان يكون بالتحدث بالنعمة والثناء عليه ﷻ وحمده، والشكر بالجوارح يكون باستعمالها في طاعة الله تعالى وحفظها عن معصيته.

الفوائد والأحكام:

١ - تأكيد وجوب ذكر نعمة الله ﷻ وشكره على بني إسرائيل، ومن ذلك تفضيلهم على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٢- تحذير الله ﷻ لبني إسرائيل يوم القيامة العظيم وعذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾.

٣- لا نجاة من أهوال يوم القيامة إلا بتقوى الله تعالى فلا نفس تغني عن نفس شيئًا أو تشفع لها، ولا فدية تؤخذ منها مقابل الخلاص ولا أحد ينصرها، مما يوجب التعلق بالله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

٤- عظم يوم القيامة وشدة أهواله ووجوب الاستعداد له بتقوى الله بالعمل الصالح.

٥- لا تعارض بين إثبات الشفاعة وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾؛ لأن المراد بالشفاعة المنفية في الآية شفاعة الكافرين التي لا يتوفر فيها إذن الله للشافع ولا رضاه عن المشفوع له.

٦- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى العظيمة عليهم بإنجائهم من فرعون وتعذيبه لهم، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

٧- عظم ما لاقاه بنو إسرائيل من العذاب من فرعون وقومه، وشدة ظلمهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

٨- تذكير بني إسرائيل بفرق البحر بهم وإنجائهم من الغرق، وإغراق آل فرعون وهم ينظرون إليهم ليشفي صدورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ وهذا من أعظم نعم الله تعالى عليهم.

٩- قدرة الله تعالى التامة وآيته العظيمة في فلق البحر وإنجاء موسى وقومه وإغراق فرعون وقومه بجنس الماء الذي كان يفتخر به.

١٠- تذكير بني إسرائيل بوعد الله تعالى لموسى أربعين ليلة لميقات ربه؛ لمناجاته وإنزال التوراة عليه، وانتهازهم فرصة غيابه ونقض عهده وتغيير ما تركهم عليه بعبادتهم

العجل؛ ظلمًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

١١- جهل بني إسرائيل المطلق وحمقهم المتناهي، حيث صنعوا من الذهب تمثالًا على صورة العجل ثم عبدوه.

١٢- أن أظلم الظلم عبادة غير الله والإشراك به؛ لأنه صرف للعبادة عن مستحقها وهو الله وحده إلى غير مستحقها أيًّا كان، وهو ظلم للنفس أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

١٣- سعة حلم الله ﷻ وعفوه، بعفوه عن بني إسرائيل، بعد أن عبدوا العجل؛ ليشكروه وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

*   *   *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهي إتيان موسى الكتاب والفرقان والشريعة التي بها صلاح أمور دينهم ودنياهم، بعد إهلاك فرعون وقومه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: واذكروا حين ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعطينا موسى الكتاب.

و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود عند بني إسرائيل وهو التوراة، أعظم كتب بني إسرائيل وأعظم كتب الله بعد القرآن الكريم، كتبها الله ﷻ بيده، وأنزلها بألواح، جملة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «**أنت موسى الذي كلمه الله وكتب له الألواح بيده**»(١).

﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ «الفرقان» صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة، فعطفه عليه من عطف الصفة على الموصوف. أي: الذي فيه الفرقان أي: ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٢)، وأبوداود في السنة (٤٧٠١)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

كما سمى القرآن بـ «الفرقان» قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا بهذا الكتاب والفرقان إلى الحق، وهذا هو محل المنة والنعمة عليهم أن الله ﷻ أنزل الكتاب لأجل هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهذه نعمة أخرى يذكر الله بها بني إسرائيل، وهي توبته عليهم بعد أن ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، بعد أن ذكرهم قبل ذلك بعفوه وتجاوزه عنهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكروا حين قال موسى لقومه منبها وناصحا لهم.

وذلك أنه وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩] فقال لهم موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ الآية.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: ناداهم بهذا اللفظ- كما هي عادة الأنبياء عليهم السلام- توددًا وتحببًا إليهم، وإظهارًا لنصحه لهم، وشفقته عليهم.

وقوم الإنسان هم أصحابه وجماعته، يدخل فيهم الذكور والإناث.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب اتخاذكم العجل إلهًا ومعبودًا من دون الله، وأكدت الجملة: بـ«إنَّ»؛ لأن الشرك أعظم الظلم، كما قال لقمان لابنه فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣٠].

فهو ظلم عظيم من حيث وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها إلى غير مستحقها، وهو ظلم للنفس من حيث بخسها ونقصها حقها وتعريضها لعذاب الله والخلود في النار، وهي وديعة عند الإنسان ينبغي أن يحملها على ما فيه سلامتها ونجاتها.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، والأمر للوجوب، فالتوبة واجبة على الفور، أي: فارجعوا إلى بارئكم الذي برأكم وخلقكم، أي: ارجعوا من معصيته والشرك به إلى طاعته وتوحيده، كما قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

و«البارئ» أخص من «الخالق»؛ ولهذا أتبع به الخالق في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ومنه سميت الخليقة «البرية».

وفي قوله ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تذكير لهم بعظمته ﷻ، وبنعمة برئه وخلقه لهم وربوبيته، فكيف يعبدون غيره؟!

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الفاء تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان للتوبة المطلوبة منهم، أي: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ بأن تقتلوا أنفسكم، أي بأن يقتل بعضكم بعضًا، وقيل: بأن يقتل من لم يعبد العجل من عبده.

وليس المراد بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أن يقتل الشخص نفسه فهذا لم يأمر الله به في ملة من الملل، بل حرم قتل الإنسان لنفسه، وجعل ذلك من كبائر الذنوب وتوعد عليه بالعذاب الأليم.

لكن يؤخذ من الآية ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أن الأمة كنفس واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»[(١)].

وفي جعل توبتهم من عبادة العجل بأن يقتلوا أنفسهم بيان لما وضعه الله على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، بسبب تعنتهم وعنادهم، مما لم يجعله على غيرهم من الأمم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ الإشارة إلى التوبة إلى بارئهم بقتل أنفسهم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: خير لكم من عدم التوبة بقتل أنفسكم، وخير لكم خيريه مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم. وهذا لا يدل على عدم وجوب التوبة بل التوبة واجبة على جميع الناس.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فوفقكم للتوبة بقتل أنفسكم كما أمركم، وقبل توبتكم، فعفا عنهم لما اتخذوا العجل، ودعاهم إلى التوبة وقبل منهم؛ لأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولو كان ذلك الشرك الذي هو أعظم الذنوب.

قيل: لما تابوا وأخذ بعضهم يقتل بعضًا خاف موسى أن ينتهوا فابتهل إلى الله فتاب عليهم ورفع ذلك عنهم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أي: فقبل توبتكم؛ لأنه ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا خبر وثناء على الله وصفاته.

و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله ﷻ، ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ الذي من شأنه توفيق عباده للتوبة وقبولها منهم، وهو على وزن «فَعَّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على كثره توبته على العبد، وكثرة من يتوب عليهم من عباده.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، رحمة ذاتية ثابتة له ﷻ ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال ﷻ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وباقتران التوبة والرحمة في حقه ﷻ يزداد كماله إلى كمال، وباجتماع التوبة والرحمة لعباده زوال المرهوب، وحصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

في هاتين الآيتين يُذكِّر الله بني إسرائيل بشدة تعنتهم، وجرأتهم على الله ﷻ، وعلى رسوله موسى ﵇ بقولهم: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وعقوبتهم بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون، ثم بعث الله لهم بعد موتهم؛ لعلهم يشكرون نعمة الله عليهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: واذكروا حين قلتم يا موسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾أي: لن نصدقك، ولن ننقاد لما جئت به، والخطاب لبني إسرائيل في عهده ﷺ ،والمراد أسلافهم.

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾حتى للغاية، أي: إلى غاية أن نرى الله جهرة.

و﴿جَهْرَةً﴾ مفعول مطلق أي: إلى غاية أن نبصر الله جهرة، أي: جهارًا وعلانية، وعيانًا بأعيننا.

وهذا منهم غاية الجرأة على الله تعالى، وعلى رسوله موسى عليه السلام، يدل على شدة عنادهم وشكهم وارتيابهم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وفرق بين هذا وبين قول موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإنه إنما قاله عليه السلام شوقًا إلى الله عز وجل، وليتلذذ بالنظر إلى ربه، كما جاء في الحديث: «**وأسألك النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**»(١).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: بالموت الذي صعقتم به، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] أي: فمات من في السموات ومن في الأرض.

أو بأخذكم وإماتتكم بالصاعقة، وهي النار التي تنزل من السحاب أو الصوت الشديد الذي صعقوا به، أو الرجفة أو غير ذلك.

وقد أهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة. وسمى القرآن الكريم ذلك صاعقة كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم بسبب تعنتهم، وجرأتهم وسؤالهم ما لا يمكن؛ لأن رؤية الله- في الدنيا- ليست ممكنة؛ ولهذا لما قالت عائشة- رضي الله عنها- للنبي

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال «نور أنى أراه»، وفي رواية: «رأيت نورًا»[١].

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم تنظرون إليها، وإلى العذاب، وينظر بعضكم إلى بعض وأنتم تتساقطون وتُصعقون، وذلك؛ ليكون ألم العقوبة ووقعها عليهم أشد وأنكى، وفي ذلك إشارة إلى معاجلتهم بالعقوبة في حين إساءتهم وجرأتهم على الله تعالى بهذا القول.

وذلك أنه لما رجع موسى من ميقات ربه، بعد ما أنزل الله عليه التوراة، وجاءهم بها قالوا: ليست من الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة.

وقيل: إن موسى لما اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه، وذهب بهم وجعل يكلم الله ويكلمه الله قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة، قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾، أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم- وفي هذا دلالة على عظم قدرة الله ﷻ في إحياء الموتى، ومعجزة لموسى ﵇، ونعمة كبيرة من الله ﷻ على بني إسرائيل فيها إعطاؤهم فرصة؛ ليرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ويشكروا؛ ولهذا قال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله على نعمه عليكم، فتؤمنوا بالله وبما جاءتكم به الرسل بقلوبكم وألسنتكم، وتنقادوا لذلك بجوارحكم.

وفي الآية إثبات الحكمة لله ﷻ، فيما خلق وقدر وشرع، والتأكيد على وجوب شكر نعم الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٢)- من حديث أبي ذر ﵁.

﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٠].

وفي هذا تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم، حينما تاهوا في البرية والتيه في تظليله عليهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، وأمره لهم بالأكل من طيبات ما رزقهم امتنانًا عليهم، بعد أن ذكّرهم بما وقع عليهم من النقم، وظلمهم لأنفسهم وكفرهم وعدم شكرهم.

قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾.

و﴿عَلَيْكُمُ﴾ بالخطاب في الموضعين، وفي آية الأعراف «عليهم» بضمير الغيبة.

و﴿ٱلْغَمَامَ﴾جمع غمامة، وهو: السحاب الأبيض البارد، سمي بذلك لأنه يغم السماء، أي يواريها ويسترها، أي: جعلنا الغمام ظلا عليكم يقيكم حر الشمس، ويلطف الجو بالبرودة، وذلك حين تاهوا، وبقوا في التيه بين الشام ومصر أربعين سنة، ولا ماء عندهم ولا ظل ولا مأوى، فرحمهم الله فظلل عليهم ﴿ٱلْغَمَامَ﴾.

و«الظل» نعمة من نعم الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: ٨١].

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾، ﴿ٱلْمَنَّ﴾شيء يشبه العسل ينزل عليهم بين طلوع الفجر وطلوع الشمس يأكلون منه يومهم.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا**»[1].

وسمي ﴿ٱلْمَنَّ﴾؛ لأن الله مَنَّ به عليهم، حيث يأتيهم بدون تعب ولا مشقة؛ ولهذا قيل: إنه كل ما منَّ الله به عليهم من الطعام والشراب بلا عمل منهم ولا كد.

وعن سعيد بن زيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ : «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١١٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٧٠٢)- من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

للعين»[١].

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ طائر ناعم صغير يسمى «السُّمَّانَى». من أحسن ما يكون من الطيور وألذه لحمًا.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا، والأمر للإباحة والامتنان و«من» لبيان الجنس، و«ما» موصولة أي: كلوا مما يستلذ ويستطاب من الذي أعطيناكم ومن ذلك «المن» و«السلوى» وغيرهما.

وفي هذا بيان أن الرازق هو الله وحده، وفيه امتنان من الله ﷻ بتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى.

والأمر لهم بالأكل من طيبات ما رزقهم؛ ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥].

وفيه دلالة على جواز التمتع بما أباح الله من الظلال الوارفة والطيبات من الرزق؛ إظهارًا لنعمة الله تعالى، وشكرًا له عليها.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وأي: وما نقصونا شيئا- بمخالفتهم وعنادهم وكفرهم نعمة الله وعدم شكرها، وفيما اختاروا لأنفسهم من الكفر وعبادة العجل؛ لأن الله ﷻ لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، كما قال ﷻ في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**.... الحديث»[٢].

وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وما بعده انتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ لقصد الاتعاظ بحالهم، وفيه إشارة إلى تماديهم في غيهم وكفرهم وضلالهم، وعدم إقرارهم بظلمهم لأنفسهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، وقُدِّم المفعول

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٩) والترمذي في الطب (٢٠٦٧) وابن ماجه في الطب (٣٤٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر ﵁.

﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على الفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لإفادة الحصر، أي: لا يظلمون بكفرهم وعدم شكرهم إلا أنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليها، حيث عرضوها للعقوبات الدنيوية ولعذاب النار وحرموها رحمة الله وثوابه، كما قال تعالى عن سبأ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

فحالهم فيما اختاروا لأنفسهم. كما قال الشاعر:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[1]

وكما قيل: «يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه»[2]، «وعلى نفسها جنت براقش»[3].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير بني إسرائيل بأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي إعطاء موسى الكتاب والفرقان؛ لأجل أن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٢- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه.

٣- عظم مكان التوراة؛ لإطلاق اسم «الكتاب» عليها، أي: الكتاب المعهود والمعروف عند بني إسرائيل، ولأن الله وصفها بالفرقان.

٤- ربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٥- تذكير بني إسرائيل بنصح موسى عليه السلام لهم بظلمهم لأنفسهم، باتخاذهم العجل معبودًا من دون الله، وأمره لهم بالتوبة إلى بارئهم بقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) البيت ينسب لصالح بن عبد القدوس. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ٢٧٢.

(٢) انظر: «المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي» ٥/ ٤٧٩.

(٣) انظر: «الأمثال» للهاشمي ١/ ١٧٠، «محاضرات الأدباء» ٢/ ٧٠٣.

٦- تودد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل في خطابه لهم، عسى أن ينجع ذلك فيهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

وهكذا ينبغي للداعي إلى الله أن يسلك طريق التودد والتحبب إلى من يدعوهم؛ تأليفًا لقلوبهم.

٧- أن أعظم ظلم للنفس حملها على الشرك بالله؛ لما في ذلك من تعريضها للخلود في النار.

٨- وجوب التوبة إلى الله تعالى على الفور؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

٩- تذكر بني إسرائيل بأن الذي يستحق العبادة هو الله الخالق البارئ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾.

١٠- شدة ما وضعه الله على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، حيث جعل توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

١١- أن الأمة كنفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأن المعنى ليقتل بعضكم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

١٢- أن الخير كل الخير في التوبة والرجوع إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾

١٣- امتنان الله عز وجل على بني إسرائيل بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم، وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «التواب و«الرحيم» وصفتي التوبة والرحمة الواسعتين له- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٥- في توبته عز وجل على العبد ورحمة له جمع بين التخلية والتحلية، وبين زوال المرهوب وحصول المطلوب.

١٦- سعة فضل الله عز وجل وعفوه ورحمته وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره مما يوجب التعلق بالله عز وجل والتعرض لنفحات توبته ورحمته.

١٧- شدة عناد بني إسرائيل، وجرأتهم على الله تعالى، وعلى رسوله موسى عليه السلام في سؤالهم رؤية الله، ومعاجلتهم بالعقوبة بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وفي هذا تذكير لسلفهم وتحذير لهم ولغيرهم من هذا المسلك.

١٨- أن ألم العقوبة إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

١٩- نعمة الله تعالى على بني إسرائيل في بعثهم من بعد موتهم، وفي ذلك إتاحة الفرصة لهم لعلهم يشكرون، وتذكير الخلف منهم بذلك؛ لأن النعمة على السلف نعمة على الخلف؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى حيث أحياهم بعد موتهم.

٢١- إثبات الحكمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢- تذكير بني إسرائيل في عهده ﷺ بنعمة الله تعالى على آبائهم وأسلافهم في التيه بالتظليل عليهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، والامتنان عليهم بالأمر بالأكل من طيبات ما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٢٣- أن نعمة الظل من أعظم نعم الله على العباد؛ لهذا امتن الله بها على بني إسرائيل فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾.

٢٤-أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ ولهذا امتن الله به على بني إسرائيل، وهو طعام أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]

٢٥-في امتنان الله ﷻ بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ دلالة على أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه أن يتمتع بما أباح الله له؛ شكرًا لله تعالى، وأن يظهر أثر نعمة الله عليه، كما قال تعالى في الآية: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [الآية:٥٨].

كما أن فيه دلالة على أن المباح هو الطيب، دون الخبيث ذاتًا أو كسبًا، وأن الرزاق

هو الله وحده دون سواه.

٢٦- ظلم بني إسرائيل بكفرهم نعمة الله عليهم من الظل والمن والسلوى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾أي: لما كفروا نعمة الله عليهم.

٢٧- أن من كفر بالله ونعمه لا يضر الله، بل لا يضر ولا يظلم إلا نفسه؛ لأن الله ﷻ لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي.

٢٨- أن كفر نعم الله تعالى ظلم للنفس بتعريضها لعقاب الله وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الآيتان: ١٦١- ١٦٢].

يذكر الله ﷻ بني إسرائيل بمنته ونعمته بأمر أسلافهم بدخول بيت المقدس والأكل منها حيث شاؤوا رغدًا ودخول الباب سجدًا وقول حطة، ووعده لهم بمغفرة خطاياهم وزيادة المحسنين منهم.

وبما حصل من تبديل الذين ظلموا منهم قولًا غير الذي قيل لهم، وعقوبة الله لهم بإنزاله على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون، وبما كانوا يظلمون.

وفي هذا موعظة للخلف منهم أن يقعوا فيما وقع فيه سلفهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: واذكروا حين قلنا لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: ادخلوها للسكن والعيش فيها، بدليل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وهذا من نعمته ﷻ

عليهم، والأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ للوجوب، وهو أمر شرعي؛ لقوله ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾الآية، وكوني؛ لأن الله فتحها لهم ودخلوها.

والمراد بالقرية بيت المقدس لقول موسى فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١].

والقرية مأخوذة من القرى وهو الجمع، لاجتماع الناس وسكنهم فيها، ومنه سمي «القرو» مجمع الماء، فالقرية: البلد الذي يجتمع ويسكن فيه الناس صغيرًا كان أو كبيرًا، وقد سمى الله ﷻ مكة قرية وهي من أكبر البلدان آنذاك، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد :١٣].

كما سمى ما حولها من البلدان الصغيرة بالقرى، فقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، وفي الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَكُلُواْ﴾ للإباحة والامتنان ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾أي: في أي مكان من هذه القرية، في وسطها أوفي أطرافها أو في أي جهة منها. ﴿رَغَدٗا﴾ أي: أكلًا رغدًا هنيئًا واسعًا، من غير مكدر ولا معارض ولا ممانع.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ وفي آية الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾أي: باب القرية، أي: باب بيت المقدس، أو أحد أبوابه؛ لأن القرى يوضع لها أبواب تفتح في النهار وحال الأمن، وتغلق في الليل وحال الخوف، ﴿سُجَّدٗا﴾أي: حال كونكم سجدًا، أي: ساجدين، أي: إذا دخلتم فاسجدوا شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من الفتح والنصر.

قال الطبري[1]: «وأصل السجود: الانحناء لمن سُجِدَ له معظِّمًا بذلك، فكل منحن لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد.

(١) في «جامع البيان» (١/ ٧٥).

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة ﴿حِطَّةٌ﴾.

و ﴿حِطَّةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: سؤالنا حطة، أو دعاؤنا حطة، أو حاجتنا حطة.

والمعنى: ربنا احطط عنا ذنوبنا وخطايانا واغفر لنا، فأمروا إذا دخلوا القرية وفتحها الله لهم أن يسجدوا لله شكرًا على ذلك، وأن يسألوه مغفرة ذنوبهم، أي: أن يدخلوها خاضعين لله ﷻ بالفعل والقول.

ولهذا لما فتح الله ﷻ على نبينا محمد ﷺ مكة دخلها خاضعًا لله ﷻ وصلى ثماني ركعات في جوف الكعبة، وكذا صلى سعد بن أبي وقاص ﵁ ثماني ركعات لما دخل إيوان كسرى.

ولما أتم الله ﷻ على نبينا محمد ﷺ النصر والفتح لدينه أمره بالتسبيح بحمده واستغفاره، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ﴾ قرأ ابن عامر بالتأنيث، «تُغْفَر» بتاء مضمومة وفاء مفتوحة، وقرأ نافع وأبوجعفر بالتذكير «يُغْفَر» بياء مضمومة وفاء مفتوحة، وقرأ الباقون: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بنون مفتوحة وفاء مكسورة.

وقوله: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: نمحو ونتجاوز عن خطاياكم ونسترها.

والخطايا: جمع خطيئة، تجمع على خطايا وعلى خطيئات كما في سورة الأعراف ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ﴾ والخطايا والخطيئات هي: الذنوب والآثام.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الواو: استئنافية، وفي آية الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الآية:١٦١] بلا واو، أي: سنعطي المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله، بإخلاص العمل لله، واتباع شرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة وكف الأذى عنهم، أي: سنزيدهم على مغفرة الخطايا والذنوب بمضاعفة الأجور لهم، وفي هذا ترغيب في الإحسان بنوعيه، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾، وفي آية الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الآية:١٦٢] أي: فبدل الذين ظلموا بمخالفتهم ومعصيتهم، والتبديل: جعل شيء مكان شيء، أي: فجعلوا مكان القول الذي أمروا أن يقولوه بقوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾جعلوا مكانه قولًا غيره، فقالوا: «حبة» أو «حبة في شعرة» مخالفة واستهانة بأمر الله، ودخلوا يزحفون على أستاههم، أي: على أدبارهم؛ استكبارًا منهم واستهزاء.

فبدلوا القول والفعل؛ ولهذا استحقوا الحكم عليهم بالظلم ووصفهم به.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم، وقالوا: حبة في شعرة**»[1].

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٢].

قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ الفاء للسببية، أي فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: عليهم.

وأظهر في الآية هنا في مقام الإضمار، فلم يقل: «فأنزلنا عليهم»، كما قال في آية الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

والغرض من هذا الإظهار تأكيد الحكم عليهم بالظلم، وأنه سبب عقوبتهم، وليشمل هذا الحكم كل من بدل،فهو ظالم مستحق للعقوبة.

وفيه تحذير من الظلم؛ لأن العقوبة نهاية كل ظالم، وفيه إظهار عدل الله ﷻ بتخصيصه العقوبة بالظالمين بسبب ظلمهم.

وقوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الرجز: العذاب، أي: عذابًا من السماء، كقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وفي الحديث قوله ﷺ عن الطاعون: «**إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به**

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠١٥).

بعض الأمم قبلكم»[1].

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المراد بالسماء العلو، أي: من فوقهم، كالصاعقة والبرد والريح والحجارة، وغير ذلك، وقيل: الطاعون، وكل ذلك نازل من السماء إما واقعًا وتقديرًا، وإما تقديرًا، كما قال ﷻ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢٠].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم، والفسق: الخروج عن طاعة الله تعالى، أي: بسبب خروجهم عن طاعة الله تعالى وظلمهم عوقبوا بما ذكر، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٢] فوصفهم الله ﷻ بالفسق والظلم، وحكم عليهم بذلك بسبب تبديلهم قول الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٠].

وهذه نعمة من الله عظيمة، يُذكِّر الله بها بني إسرائيل، وهي استسقاء موسى لهم لريهم من العطش واستجابته ﷻ له، وأمره له بأن يضرب بعصاه الحجر وانفجار اثنتي عشرة عينًا على عدد أسباط بني إسرائيل.

قوله ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكروا حين استسقى موسى لقومه بني إسرائيل، أي: طلب من ربه أن يسقيهم ماءً يشربون منه، مما ينزل من السماء أو مما يخرج من الأرض، وذلك حينما كانوا في التيه، كما استسقى نبينا محمد ﷺ يوم الجمعة على المنبر، لما قال له رجل: يا رسول الله هلك الكراع، وهلك الشاء، فادع الله أن

---

(١) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٧٤)، ومسلم في السلام (٢٢١٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

يسقينا»[(١)].

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أي: فقلنا إجابة لموسى ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ والمراد بـ «العصا» عصا موسى المعروفة التي قال الله عنها: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧- ٢١].

و «ال» في «الحجر» للجنس، أي: اضرب أيَّ حجر شئت.

وقيل: «ال» للعهد، والمراد بذلك حجر معين، والصحيح الأول وهو أبلغ وأدل على عظيم قدرة الله- تعالى.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وفي آية الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ [الآية:١٦٠] الفاء للسببية، أي: فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والانفجار: الانفتاح والانشقاق، والانبجاس: أول الانفجار.

أي: انفتحت وانشقت من هذا الحجر اثنتا عشرة عينًا عدد أسباط وقبائل بني إسرائيل، فكان لكل سبط وقبيلة منهم عينًا من هذه العيون؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

وقد جعل الله ﷻ في هذه العصا أربع آيات عظيمة ومعجزات خارقة تأييدًا لنبيه موسى عليه السلام:

الأولى: ضرب البحر بها وانفلاقه فرقين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الثانية: ضرب الحجر بها ونبع الماء منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وقوله في سورة الأعراف: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الآية: ١٦٠]

الثالثة: يلقيها فتكون حية تسعى، ويأخذها فتعود عصا، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٢)، ومسلم في الاستسقاء (٨٩٥)، وأبو داود في الصلاة (١١٧٤)، والنسائي في الاستسقاء (١٥٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧-، الشعراء ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧- ٢١].

الرابعة: تلقفها إفك السحرة وكذبهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وقال تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي : قد علم كل أناس منهم، أي: قد علم كل سبط من أسباط بني إسرائيل مشربهم، أي: مكانه، وزمانه وقدره حتى لا يزاحم بعضهم بعضًا، وربما تعادوا، وتقاتلوا من أجل ذلك.

وفي هذا دلالة على عظيم قدرة الله تعالى وكرمه، وآية من الآيات التي أيد بها نبيه موسى عليه الصلاة السلام، ونعمة عظيمة على بني إسرائيل، وتكرمه لهم في سقيهم وريهم من العطش.

وفي طي هذه النعمة نعم أخرى، منها كون السقى في مظنة عدم تحصيله، ومنها كونه بلا كد منهم ولا تعب ولا مشقة، ومنها كون العيون اثنتي عشرة عينًا، لكل سبط منهم مشرب فلا يتضايقون ولا يتزاحمون.

﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: وقيل لهم: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ والأمر للإباحة والامتنان، وقد جمع بين الأمر بالأكل والشرب؛ لأنه سبق ذكر الامتنان عليهم بإنزال المن والسلوى.

﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عطاء الله الذي أنزله وأخرجه لكم من مأكل ومشرب، بلا كد ولا تعب.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا تطغوا وتسعوا في الأرض حال كونكم مفسدين فيها بالمعاصي، فتسلبوا هذه النعمة؛ لأن المعاصي سبب

لفساد البلاد والبر والبحر، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

و«العثا» و«العثو»: أشد الفساد، والإفساد.

فامتن عليهم أولًا بالأمر بالأكل والشرب من رزق الله، ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض؛ لئلا يسلب منهم، وذلك أن النعمة قد تطغي الإنسان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يذكر الله ﷻ بني إسرائيل، بتعنت أسلافهم، وعدم صبرهم، واستبدالهم الذي هو أدني بالذي هو خير، وما عوقبوا به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله؛ بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين، وعصيانهم، واعتدائهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا حين قلتم يا موسى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي. لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد- يعنون بذلك ما مَنَّ الله به عليهم من المن و«السلوى»، وهما نوعان عن ألذ وأطيب الطعام.

وإنما قالوا «واحد» لأنه يتكرر كل يوم، فبدل أن يشكروا الله على ما مَنَّ به عليهم من هذا الطعام الذي هو من أفضل الأطعمة وألذِّها وأنفعها ضجروا وملّوا، وقالوا على وجه الاحتقار لذلك: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهذا بلا شك من كفران النعم، وقد قال الله ﷻ لهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وهذا لهم ولغيرهم.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ أي: يخرج لنا أطعمة أخرى مما هو معروف.

وفي قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بصيغة الأمر لموسى دلالة على عظم ما في قلوبهم من

التعاظم والاستكبار، كما أن في مقالتهم هذه دون أن يقولوا: «فادع لنا ربنا»، أو «فادع الله لنا» جفاءً منهم وسوءَ أدب في الخطاب، وكأنهم يسخرون بموسى وبربه، أو كأن رب موسى ليس ربًّا لهم- عياذًا بالله- وهذا كقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، «من»: تبعيضية، و«ما»: موصولة، أي: من بعض الذي تنبته الأرض.

﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ ﴿مِنۢ﴾: بيانية، و﴿بَقْلِهَا﴾ النبات الذي ليس له ساق كالكراث، ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ صغار البطيخ «الخيار» ﴿وَفُومِهَا﴾: ثومها، وهو الثوم المعروف، فيقال: ثوم بالثاء، ويقال «فوم»: بالفاء. وقال طائفة من المفسرين: «الفوم»: الحنطة.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هما العدس والبصل المعروفان، وهذه الأطعمة مما عرفوه في مصر قبل ذلك، وكلها دون ما أنزل الله عليهم من «المن والسلوى».

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام، وهو للإنكار والتوبيخ والتقريع والتعجب، أي: قال لهم موسى عليه السلام موبخًا لهم ومنكرا عليهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾، والاستبدال أخذ شيء وجعل شيء مكانه.

أي: أتختارون الذي هو أقل قيمة وأوضع قدرًا وهو ما طلبوا إخراجه لهم من الأطعمة.

﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: بالذي هو خير مما ذكر تم من حيث طعمه ولذته ونفعه وغير ذلك، وهو «المن» «السلوى» الذي أنزله الله عليهم، فجمعوا بين كفر نعمة الله وما من به عليهم مما هو أفضل الطعام، وبين سؤالهم ما هو أدنى منه قيمة وأقل قدرًا، مما يدل على تعنتهم وسفههم، ودنو هِمَمِهِم، وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن[1]

---

(١) البيت ينسب ليحيى بن علي باشا الأحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥- =

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ أي: انزلوا مصرًا، والأمر للإباحة، وفيه ما يشعر بالتوبيخ لهم، أي: إن كان هذا همكم واختياركم ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ بقرينة قوله: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾ أي: انزلوا أيَّ مصر من الأمصار، أي: أيَّ بلد من البلدان، وليس المراد مصر البلد المعروف؛ ولهذا صرف، و«مصر» البلد المعروف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ [يونس: ٨٧].

وقيل: المراد بمصر البلد المعروف، أي: انزلوا مصر التي خرجتم منها، وهذا ليس بإمكانهم، وإنما هو من باب التوبيخ أو التهديد لهم على اختيارهم ما كانوا عليه من العيش الحقير الذليل في مصر على الذي هو خير، والمعنى على هذا: إن لم تقدروا نعمة الله قدرها فـ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾.

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ الفاء: للتعقيب؛ و«ما»: موصولة، أي: فإن لكم الذي سألتموه من هذه الأطعمة لأنها موجودة في كل مصر.

والمعنى: انزلوا أيّ مصرٍ من الأمصار تجدوا الذي سألتموه فليس ذلك مما يحتاج إلى دعاء، ولا مما يستحق الدعاء؛ لكثرته في الأمصار ودناءته.

قال ابن كثير(١): «ولهذا لما كان سؤالهم من باب الأشر والبطر لم يجابوا عليه».

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي: وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وبني الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأن الذي ضرب عليهم الذلة والمسكنة معلوم، وهو الله ﷻ، تعليماً للأدب مع الله؛ كما في قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

أي: وفرضت عليهم الذلة وألزموها، وهي الذل والهوان والصغار قدرًا وشرعًا، ونزعت من قلوبهم العزة والأنفة والشجاعة، فلا يواجهون عدوًا، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ

=
٤٧٦).

(١) في «تفسيره» (١/ ١٤٦).

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

هذه هي حالهم وحقيقة أمرهم، وهم اليوم أذل وأجبن منهم بالأمس، ولكن كما قيل:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ... ونقري ما شئت أن تنقري(١)

و﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضربت عليهم المسكنة، كما قال تعالى: في آل عمران: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [الآية: ١١٢]، أي: وضربت عليهم المسكنة، وهي الفقر، بل وأشد ذلك وهو فقر القلوب؛ ولهذا صار البخل والشح والحرص والطمع سجية لهم حتى ولو كانوا أكثر الناس مالًا، وها هم اليوم يكادون يديرون دفة جميع الأموال في العالم مع ملازمة هذه الصفات الذميمة لهم، فهم أفقر الناس قلوبًا، وأقلهم بذلًا وعطاء، وأعظمهم شحًّا وبخلًا، وأمنعهم ذات يد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن كثير(٢): «يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضعت عليهم وألزموا بها شرعًا وقدرا، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون».

﴿وَبَآءُو﴾ أي: رجعوا وانصرفوا، وأكثر ما يستعمل «باء» بالرجوع غير الحميد وبالخيبة والخسران ونحو ذلك.

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: رجعوا مصاحبين غضب الله، أي: مستحقين ومستوجبين غضب الله، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» ص٤٦.
(٢) في «تفسيره» (١/ ١٤٦).

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

والغضب من الله يستوجب نقمته وعقوبته، كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [الآية: ١١٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأقرب مذكور، وهو قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الذي جازيناهم به من ضرب الذلة عليهم والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله.

﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: كانوا يجحدون آيات الله الكونية والشرعية، ويكذبون بها، فلا يستدلون بآياته الكونية على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ووجوب عبادته وحده دون سواه، ولا يؤمنون بآياته الشرعية ويعملون بما جاء فيها.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ما قبلها، قرأ بعضهم: «النبئين» مأخوذ من النبأ وهو الخبر، وقرأ آخرون: «النبيين» مأخوذ من النبأ، أو من النبوة وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم السلام مخبَرون من الله، ومخبِرون لأقوامهم، كما أنهم ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: قتلا بغير سبب يوجب قتلهم، بل بالباطل، والظلم المحض.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأقرب مذكور وهو قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾. أي: إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب عصيانهم بترك ما أوجبه الله عليهم، وارتكاب ما نهاهم الله عنه، وبسبب اعتدائهم ومجاوزتهم الحد في حق الله

بتجاوز ما أمر به، وفي حقوق عباده بالتعدي عليهم وأذيتهم ومنع حقوقهم صاروا إلى ما صاروا إليه من الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١]، فكفرهم بآيات الله سببه العصيان، وقتلهم النبيين بغير حق سببه الاعتداء.

ويحتمل أن تكون الإشارة في قوله: «ذلك» تعود إلى مرجع الإشارة الأولى، وهو ما جوزوا به من ضرب الذلة عليهم والمسكنة، ورجوعهم بغضب من الله، فيكون عصيانهم واعتداؤهم علة أخرى لمجازاتهم بما ذكر، وتأكيد لعظم جرمهم، ولاستحقاقهم ذلك العقاب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول والكلام لله ﷻ بحرف وصوت، كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ الآية.

٢- تذكير بني إسرائيل بأمر الله لهم بدخول بيت المقدس وإباحة الأكل منها من حيث شاؤوا، وأمرهم بدخول الباب سجدًا، وطلب حط ذنوبهم، ووعده تعالى لهم بمغفرة خطاياهم، وزيادة المحسنين منهم من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٣- أن من شكر نعمة الله تعالى لمن نصره الله وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع والتذلل والتواضع لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾.

٤- الحث على الدعاء بطلب حط الذنوب ومغفرتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾.

٥- وعد الله ﷻ الذي لا يتخلف بمغفرة الخطايا والذنوب لمن جاهد في سبيله وخضع له، ودعاه؛ لقوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

٦- كرم الله ﷻ وجوده بوعده بزيادة المحسنين من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٧- شدة عناد بني إسرائيل ولؤمهم حيث بدلوا ما أمرهم الله بقوله وفعله، فبدل أن يدخلوا الباب سجدًا، ويقولوا: حطة، دخلوا يزحفون على أدبارهم استهزاء، ويقولون: حبة من شعرة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾.

٨- تحريم تبديل قول الله ﷻ، وأن ذلك من أشد الظلم والفسق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

٩- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٠- في الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ تأكيد الحكم بالظلم على هؤلاء المبدلين، وأنه سبب عقوبتهم، وليشمل هذا الحكم كل من يبدل فهو ظالم مستحق للعقوبة.

١١- أن من بدل قول الله تعالى فهو ظالم فاسق؛ لأن الله وصفهم بالظلم والفسق، وحكم عليهم بذلك.

١٢- إظهار عدل الله بربط العقوبة بسببها، والتحذير من الظلم والفسق، وأنهما سبب لعقاب الله وعذابه.

١٣- أن الاستسقاء عند الحاجة للمطر سنة من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ وهكذا فعل النبي ﷺ.

١٤- حاجة الخلق وافتقارهم إلى الله ﷻ بما في ذلك الرسل وغيرهم، وأنه لا ملجأ لهم في الشدائد إلا إلى الله.

١٥- شفقة موسى عليه السلام ورأفته بقومه، حيث طلب لهم السقيا خوفًا عليهم من الهلاك.

١٦- إثبات السمع والكلام لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ﴾ والفاء للسببية، فسمع ﷻ استسقاء موسى ودعاءه، وقال له: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾.

١٧- كرم الله ﷻ وجوده العظيم وعنايته بنبيه موسى عليه السلام حيث أجاب دعاءه؛ لقوله

تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وفي هذا دلالة على فضل موسى ﷺ ومنزلته عند ربه.

١٨- قدرة الله تعالى التامة حيث فجر هذه العيون من الحجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

١٩- الآية العظيمة في عصا موسى ﷺ حيث ضرب بها بأمر الله الحجر فانفجرت منه العيون، وضرب بها البحر فانفلق، ويلقيها فتلقف إفك السحرة، ويلقيها فتكون حية، ثم يأخذها فتعود سيرتها الأولى.

٢٠- إثبات الأسباب وربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ فالله قادر على تفجير هذه العيون دون ضرب موسى الحجر بعصاه.

٢١- أن السقيا قد تكون بالمطر النازل من السماء، وقد تكون بالماء النابع من الأرض كهذه العيون، ونبع زمزم وغير ذلك.

٢٢- حكمة الله تعالى وتمام نعمته على بني إسرائيل في جعل هذه العيون اثنتي عشرة عينًا؛ ليعرف كل سبط منهم مشربه ولا يتزاحمون ويؤذي بعضهم بعضًا، وربما عادى بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

٢٣- امتنان الله ﷻ على بني إسرائيل وتذكيرهم بما أنعم الله به عليهم، من مأكل ومشرب؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، والأمر للإباحة.

٢٤- تحريم الإفساد في الأرض؛ لأن الله تعالى نهى عنه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٢٥- أن المطلوب والمشروع الإصلاح في الأرض.

٢٦- كفران بني إسرائيل لما مَنَّ الله عليهم به من المأكل والمشرب والرزق ومللهم من ذلك؛ لقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ الآية.

٢٧- سوء أدب بني إسرائيل وجفائهم؛ لقولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فكأنهم يسخرون بموسى وربه، وكأن رب موسى ليس ربًّا لهم- والعياذ بالله.

٢٨- أن من كفر نعم الله تعالى ففيه شبه من اليهود.

٢٩- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لموسى ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

٣٠- أن المُخرج للنبات والجالب للأرزاق هو الله جل وعلا؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية.

٣١- اختيار بني إسرائيل الأدنى من الطعام على الأعلى، وإنكار موسى ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾.

٣٢- لا بأس في اختيار الأطيب والأفضل من المأكل والمشرب والمسكن والمركب ونحو ذلك، ما لم يصل الأمر إلى حد الإسراف؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾.

٣٣- حل البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

٣٤- جواز إسناد الشيء إلى مكانه أو سببه؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، والمنبت حقًا هو الله ﷻ.

٣٥- التقليل من شأن مطلب بني إسرائيل في قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ الآية، وتوبيخهم؛ لأن ما سألوه لا يحتاج إلى دعاء لكثرته في الأمصار ودناءته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

٣٦- ضرب الذلة والهوان والصغار على بني إسرائيل، ولزوم ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، أي: بحبل من الله وهو الإسلام الذي به العزة لمن اعتنقه، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعهد أو أمان من المسلمين لهم، أو مناصرة ومظاهرة غيرهم من أهل الكفر لهم، كما هو الحال في مناصرة نصارى العالم لهم اليوم.

وهم مع ذلك ومع ما يملكون من أنواع الأسلحة النووية وغيرها- أذلاء جبناء ويعيشون حياة الذل والخوف والقلق، مصداق قوله ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، هذه حالهم وصفتهم اللازمة لهم.

ولا تسأل لماذا لم ينتصر المسلمون عليهم، فالجواب يعرفه كل مسلم، وهو ضعف المسلمين وبعدهم عن دينهم، واختلافهم وتناحرهم فيما بينهم وتفرق كلمتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وكما قال الموصي لأبنائه عند وفاته:

كونوا جميعًا يا بنيّ إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت آحادا(١)

٣٧- ضرب المسكنة والفقر على بني إسرائيل بل أشد ذلك وأعظمه هو فقر القلوب، حتى صاروا أفقر الخلق قلوبًا، وأشدهم بخلا وشحا، وحرصا وطمعًا، حتى ولو ملكوا الأموال الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾.

٣٨- غضب الله تعالى على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي هذا إثبات صفة الغضب لله ﷻ، كما يليق بجلاله، وإثبات ضده وهو الرضا عمن هم أهل لذلك وهم المؤمنون.

٣٩- أن ما حصل لبني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ورجوعهم بغضب الله إنما هو بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين وعصيانهم واعتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٤٠- إثبات الحكمة لله تعالى، وربط العقوبات بموجباتها، وبيان عدل الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾.

٤١- التحذير من الكفر بآيات الله، ومن العصيان والاعتداء.

(١) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٦٢، والبيتان ينسبان لمعن بن زائدة، وقيل: للمهلب بن أبي صفرة.

٤٢- أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لبيان الواقع.

٤٣- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الآية: ٦٩].

عن سلمان ﷺ قال: «سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إلى آخر الآية»(١).

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة ما عاقب به بني إسرائيل بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق- من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وغضب الله عليهم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للذين آمنوا من هذه الأمة، ومن الذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من الأجر عنده، والسلامة من الخوف والحزن، وأنه لا يضيع أجر من آمن وعمل صالحًا أيًا كان.

وفيه احتراز وتنبيه إلى أن من بني إسرائيل من آمن وعمل صالحًا، فليسوا كلهم ممن كفر وقتل النبيين وغضب الله عليهم، كما أن فيها إشارة إلى أن باب التوبة مفتوح لمن تاب وآمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من أي طائفة كان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إنَّ» للتوكيد وتحقيق الخبر والمراد بـ «الذين آمنوا» أمة محمد ﷺ، وإنما خصهم الله بهذا الوصف؛ لأنهم هم الذين يستحقون اسم ووصف

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٢٦).

الإيمان المطلق، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وكل ما أوجب الله الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وابتدأ بذكر الذين آمنوا من هذه الأمة اهتمامًا بشأنهم؛ لفضلهم وكونهم القدوة لغيرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، أي: اليهود، وهم المنتسبون إلى شريعة موسى عليه السلام «شريعة التوراة»، ومعنى «هادوا»: تابوا، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا إليك.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: الذين ينتسبون إلى النصرانية دين عيسى عليه السلام، سموا نصارى لتناصرهم فيما بينهم، ويقال لهم أنصار، كما قال عليه السلام: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾، قرأ نافع بياء ساكنة بعد الباء «والصابين» على أنه جمع «صابٍ» منقوصًا، وقرأ الباقون بهمزة بعد الباء ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ جمع «صابئ» بهمزة في آخره، وهم من لا دين لهم، وقيل: هم من جملة فرق النصارى، وقيل: هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وقيل غير ذلك.

قال ابن كثير[١] بعد ما ذكر عددًا من الأقوال في المراد بالصابئين: «وأظهر الأقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى، ولا المجوس والمشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين لهم مقرر يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من آمن بالصابئ، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض».

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ أي: من آمن من الطوائف المذكورة ولم يقل:

(١) في «تفسيره» (١/ ١٤٩).

«من آمن منهم»؛ ليشمل الوعد كل من آمن بالله واليوم الآخر، منهم ومن غيرهم.

أي: من آمن من أمة محمد ﷺ، ومن اليهود والنصارى والصابئين بالله، أي: بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: وآمن باليوم الآخر، يوم القيامة وما فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيرًا ما يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله- دون بقية أركان الإيمان؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان، وهو الذي يحمل الناس على العمل لما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: وعمل عملًا صالحًا، وحذف الموصوف وهو «عملًا» لأن المهم كون العمل صالحًا، والعمل إنما يكون صالحًا بالإخلاص لله ﷻ، وموافقة شرعه كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو محسن متبع للشرع.

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الجملة خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقرن بالفاء لمشابهة الموصول وهو المبتدأ للشرط.

وقدم المبتدأ وهو قوله: «لهم» على الخبر وهو «أجرهم»، وسمى ثوابهم أجرًا؛ لتأكيد تحقيق ذلك لهم، أي: فلهم ثواب إيمانهم وعملهم الصالح مؤكدًا محققًا.

وإنما سمى الله ﷻ ثوابهم أجرًا؛ لأنه ﷻ أوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه «**أتدري ما حق الله على العباد وماحق العباد على الله؟ قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠]، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه =

وهو- سبحانه وتعالى- إنما أوجب ذلك وأحقه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، لأنه سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء لخلقه، بل هو صاحب الفضل والإنعام عليهم، قال ابن القيم[1]:

مـا للعبـاد عليـه حـق واجـب ... هـو أوجـب الأجـر العظـيم الشـان

كـلا ولا عمـل لديـه ضـائع ... إن كـان بـالإخلاص والإحسـان

إن عـذبوا فبعدلـه أو نعمـوا ... فبفضـله والفضـل للمنـان

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند خالقهم ومالكهم ومربيهم بنعمه العظيمة، فهو عنده ومنه سبحانه وتعالى، وفي هذا تعظيم لأجرهم، وبيان ضمانه ﷻ وتكفله لهم بذلك.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا خوف عليهم فيما يستقبلون و«خوف» نكرة في سياق النفي فيعم نفي أيّ خوف.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي:ولا هم يحزنون على ما فاتهم، ولا على ما يخلفون بعد مماتهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وعد الله ﷻ في الآية السابقة كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من سائر الأمم بالأجر العظيم- مع انتفاء الخوف والحزن عنهم، ثم عاد الكلام في الآيات إلى تذكير بني إسرائيل بأخذ ميثاقهم ورفع الطور فوقهم؛ تخويفًا لهم؛ ليؤمنوا، وتوليهم بعد ذلك، وتفضل الله عليهم ورحمته لهم بتوبته عليهم بعد ذلك.

=

في الزهد (٤٢٩٦).

(١) في «النونية» (ص١٤٩، ١٥٠).

ووجه الخطاب لبني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن؛ لأن الميثاق الذي أخذ على أسلافهم هو ميثاق عليهم.

وهذا الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«إذ» ظرف بمعنى حين. والميثاق العهد المؤكد الغليظ الثقيل، أي: واذكروا حين أخذنا عهدكم الموثق المؤكد المغلظ بواسطة موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٣- ٨٥].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: ورفعنا فوق رؤوسكم الطور، كما قال تعالى في سورة النساء ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [الآية: ١٥٤].

والطور الجبل المعروف الذي نادى الله موسى من جانبه، كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

عن ابن جريج قال: قال لي ابن عباس: «الطور: الجبل الذي أنزلت عليه- يعني: على موسى- التوراة، وكانت بنو إسرائيل أسفل منه»[1].

رفعه الله عز وجل فوق بني إسرائيل؛ تهديدًا وتخويفًا لهم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧١].

وهذا من أعظم آيات الله الكونية الدالة على تمام قدرته عز وجل.

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: قائلين لهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: خذوا واقبلوا جميع الذي أعطيناكم من الكتاب والتوراة أي: آمنوا به واعملوا بمقتضاه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٥).

﴿بِقُوَّةٍ﴾ الباء للمصاحبة، أي: مصحوبًا بقوة، أي: بحزم وعزم ونشاط وجد واجتهاد في الامتثال والعمل، دون ضعف أو تهاون أو توانٍ، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: واذكروا الذي فيه من الأحكام والأوامر والنواهي، والأخبار والوعد والوعيد والمواعظ وغير ذلك، واتلوه وتعلموه واعملوا به.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تتقوا الله، أو لتكونوا من أهل التقوى

فأخذ الله ﷻ ميثاقهم، ورفع فوقهم الطور؛ تخويفًا لهم، وأمرهم بأخذ الكتاب بقوة، وذكر ما فيه، لأجل أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وهذا يدل على شدة عتوهم وعنادهم وتكبرهم وتجبرهم حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم، فحينها آمنوا، كما قال موسى ؏: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

فهم دعوا إلى السجود ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه، ويقال: إن هذا ما زال هو سجودهم إلى اليوم، فإيمانهم وسجودهم أشبه بإيمان وسجود المكره؛ ولهذا سرعان ما تولوا، كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾، أي: ثم توليتم بأبدانكم، وأعرضتم بقلوبكم عن طاعة الله تعالى وتقواه.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾أي: من بعد أخذ ميثاقكم ورفع الطور فوقكم وإنابتكم وقت ذلك، فنقضتم العهد والميثاق.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ «لولا»: حرف امتناع لوجود، واللام واقعة في جواب «لولا» أي: فلولا فضل الله عليكم موجود لكنتم من الخاسرين، أي: فلولا تفضل الله عليكم ورحمته لكم بعفوه عنكم وتوبته عليكم بعد توليكم، ونقضكم الميثاق لكنتم من الخاسرين الخسارة العظمى.

خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة النفس والأهل والولد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

هذا مما يُذَكِّر الله به بني إسرائيل، مما يعلمونه ومما تقرر عندهم من أمر الذين اعتدوا منهم في السبت، ومسخهم الله قردة خاسئين؛ ليأخذوا من ذلك العظة والعبرة ويحذروا من المخالفة والعصيان.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم، ولام القسم، و«قد». والخطاب لبني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن.

أي: والله لقد علمتم يا بني إسرائيل الذين تجاوزوا منكم حد الله، وارتكبوا ما نهاهم عنه يوم السبت، وما حل بهم، وفي هذا توبيخ لهم على عدم الإيمان مع علمهم بما حل بأسلافهم، وتحذير لهم من عقاب الله ﷻ.

و«السبت» في الأصل: القطع والراحة، والمراد بـ«السبت» أحد أيام الأسبوع، وسمي بالسبت قيل: لأنهم كانوا ينقطعون فيه عن العمل.

ومعنى ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: في حكم السبت، أي: فيما حكم الله به عليهم يوم السبت من تحريم العمل والصيد فيه ليتفرغوا للعبادة، وقد ابتلاهم الله بإتيان الحيتان شُرَّعًا، أي: بكثرة في هذا اليوم دون غيره من أيام الأسبوع، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الآية: ١٦٣].

فاحتالوا بوضع الشباك لها يوم الجمعة وأخذها يوم الأحد- فجمعوا بين التحايل على فعل المحرم، وبين ارتكاب المحرم، وهذا أشد اعتداء وأعظم جرمًا من فعل المحرم

على وجه صريح، لما فيه المخادعة وإظهار المحرم بصورة المباح؛ ولهذا المسلك- وهو الخداع والتحايل- كان المنافقون أشد الناس جرمًا، وأشدهم عذابًا، لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: صيروا قردة خاسئين. و«القردة» هي الحيوانات المعروفة التي هي من أخس الحيوانات؛ ولهذا قال: «خاسئين» أي: أذلة صاغرين، فمسخوا قردة خاسئين مسخًا حقيقيًا لصورهم، ومعنويًا لقلوبهم بأمر الله تعالى؛ عقوبة لهم؛ بسبب استخفافهم بحكم الله تعالى وتحايلهم عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

فعوقبوا بجنس عملهم؛ لأن الذي ارتكبوه بهذه الحيلة قد يبدو بأن صورته صورة المباح، وهو في الحقيقة محرم غير مباح، وكذلك عوقبوا بمسخهم على صورة القردة التي هي أشبه شيء بصورة الآدمي، وليست بآدمي. والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال ابن كثير(١) : «فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القرود، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم».

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

الضمير في «فجعلناها» مفعول أول لـ «جعل» يعود للعقوبة المذكورة، و«نكالًا» مفعول ثانٍ، أي: فصيرنا عقوبتهم بمسخهم قردة خاسئين نكالًا.

ويحتمل عود الضمير في «جعلناها» إلى القرية بدليل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ [الآية:١٦٣].

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٥٠).

والنكال: العقوبة التي يعاقب بها مرتكب المعصية، فتكون نكالًا له من العود إلى المعصية مرة أخرى، ونكالًا لغيره من فعلها، أي: ما يرتدع به وينزجر ويمتنع عن مثل ذلك الفعل هو وغيره، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] والنكل والنكال: القيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ [المزمل: ١٢] أي: لدينا قيودًا.

﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾«ما»: موصولة، أي: للذي بين يدي القرية، أي: للذي أمامها وحولها وقريبًا منها من القرى وأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾أي: والذي خلفها، أي: بعيدًا منها من القرى وأهلها.

ويحتمل أن المعنى ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾من القرى الحاضرة آنذاك وأهلها، ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾من يأتي بعدهم، ويكون ﴿خَلۡفَهَا﴾ هنا بمعنى: أمامها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم.

وعلى احتمال أن الضمير يعود إلى العقوبة يكون معنى ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾أي: ما كان حاضرًا وقت العقوبة، ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾: من يأتي بعد ذلك،

وقيل: المعنى: وجعلنا هذه العقوبة ﴿نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾ أي: لما قارنها من معاصيهم ﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾ أي: وما سبقها.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾أي: عظة وعبرة كونية قدرية، وتذكرة للذين يتقون الله. وإنما خصهم بالموعظة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات دون من عداهم، فهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤].

والسعيد من وعظ بغيره، فالحِيَل لا تجعل من الحرام حلالًا، بل تضاعف الجرم والإثم والعقوبة، وإذا كان الله ﷻ عاقب بني إسرائيل بهذه العقوبة المشينة بسبب احتيالهم في السبت، فليحذر الذين يتحايلون من المسلمين اليوم بأنواع الحِيَل على فعل الحرام وأخذه من الربا وغيره من التعاملات المحرمة والمشبوهة، مما قد يفوق ما فعله بنو إسرائيل من الاعتداء في السبت، وفي الحديث: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود**

فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[1].

الفوائد الأحكام:

١- كمال عدل الله ﷻ وأنه لا يظلم أحدًا، بل يجازي كلًا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢- الاحتراز في القرآن الكريم؛ لأن الله ﷻ بعد أن ذكر ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وغضبه عليهم بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين وعصيانهم واعتدائهم، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية؛ لبيان أن من آمن منهم ومن غيرهم من الأمم بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأن باب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم.

٣- فضل هذه الأمة على سائر الأمم؛ لأن الله قدمهم في الذكر في الآية، وخصهم باسم «الذين آمنوا».

٤- إن الإيمان بالله هو أصل الإيمان وأعظم أركانه؛ لأن الله قدمه على الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

٥- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان؛ لأن الله ﷻ قرنه بالإيمان به سبحانه وتعالى، وخصهما بالذكر من بين أركان الإيمان به، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل على العمل.

٦- لابد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الجوارح، بين إيمان الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، وفي هذا الرد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٧- أن من شرط قبول العمل كونه صالحا؛ خالصًا لله تعالى وفق شرعه.

---

(١) ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٥١٣). وذكر إسناده، وقال: «هذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي» وانظر «عون المعبود» مع شرح ابن القيم (٩/ ٣٤٠)، وكذا جوّد إسناده ابن كثير، انظر «تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٤).

٨- عظم ما أعده من الأجر والثواب لمن آمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومما يزيد في عظمة هذا الأجر كونه عند ربهم سبحانه، وفي هذا كله ترغيب بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٩- إثبات ربوبية الله الخاصة لمن آمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٠- أن جزاء المؤمنين منه ما هو جلب محبوب، ومنه ما هو دفع مكروه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وإذا جُلِبَ المحبوب وهو: الأجر وأنواع النعيم، ودُفِعَ المكروه وهو: الخوف والحزن، كملت السعادة.

١١- تذكير الله لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من الميثاق، ورفع الطور فوقهم؛ تخويفًا لهم، وأمرهم بالأخذ والعمل بالتوراة بقوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

١٢- شدة عتو بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، كأنه ظلة، أشبه بإيمان المكره.

١٣- في رفع الطور فوقهم آية عظيمة من آيات الله ﷻ، وتدل على كمال قوته وتمام قدرته سبحانه.

١٤- أن الهدف من أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وأمرهم بالأخذ بالتوراة أن يتقوا الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١٥- تولي بني إسرائيل عن الإيمان بعد أخذ الميثاق عليهم، وزوال تخويفهم برفع الجبل فوقهم، مما يدل على عنادهم، وعدم استقرار الإيمان في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

١٦- فضل الله ﷻ ورحمته لبني إسرائيل بما آتاهم من الآيات، وبعفوه عنهم وتوبته عليهم بعد نقضهم الميثاق، وتوليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١٧- إثبات الفضل والرحمة لله ﷻ وأن التوفيق بيده، وإثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١٨- توبيخ بني إسرائيل في عهده ﷺ، على عدم الإيمان به، وتحذيرهم من الاعتداء والمخالفة والعصيان، بتذكيرهم بما يعلمون من حال أسلافهم الذين اعتدوا في السبت بالتحايل على أخذ الصيد فيه، وعقوبة الله تعالى لهم بمسخهم قردة وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

١٩- السعيد من وعظ بغيره.

٢٠- تحايل اليهود على محارم الله ﷻ، فقد حرم الله عليهم صيد السمك في السبت فوضعوا لها الشباك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد.

٢١- شدة تحريم التحيُّل لتحليل الحرام؛ لأن الله سمى فعل بني إسرائيل اعتداءً ومسخهم بسببه قردة خاسئين؛ لأن فيه جمعًا بين فعل المحرم والخداع.

٢٢- أن التحيُّل لا يجعل من الحرام حلالًا.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل فحيث ارتكب اليهود المحرم، وصوروه بالحيلة بصورة الحلال عاقبهم الله بمسخهم قردة تشبه الآدمي وليست بآدمي.

٢٤- تمام قدرة الله تعالى، وأنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

٢٥- إثبات القول والكلام لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ الآية.

٢٦- حقارة القردة، وأنها أخس الحيوانات.

٢٧- جعل الله ﷻ هذه العقوبة التي عاقب بها بني إسرائيل، وهي مسخهم قردة خاسئين نكالًا لغيرهم من ارتكاب مثل ما ارتكبوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾.

٢٨- أن العقوبات والتعزيرات والحدود الشرعية نكال وزجر للفاعل، ونكال وزجر لغيره من ارتكاب فعله.

٢٩- أن فيما عاقب الله به بني إسرائيل عظة وعبرة لمن اتقى الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٠- فضل التقوى لأن أهلها هم الذين يتعظون ويعتبرون وينتفعون بالمواعظ، ولهذا خصهم بها.

٣١- أن العبر والعظات والآيات منها ما هو شرعي كآيات القرآن الكريم، ومنها ما هو كوني كمسخ الذين اعتدوا في السبت قردة، وكالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه القصة يُذَكِّر الله بني إسرائيل بما حصل منهم من المكابرة والعناد والتعنت، والتشديد على أنفسهم مما كان سببًا لتشديد الله عليهم.

قال ابن القيم(١) في ذكر العبر من هذه القصة: «إن بني إسرائيل فُتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل. والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل، ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وإنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

وذلك أن بني إسرائيل قتل منهم قتيل، قيل: كان ذا مال كثير، فقتله ابن أخيه؛ ليرثه، واختلفوا في قاتله وتخاصموا في ذلك، واتهمت كل قبيلة منهم الأخرى، وكادت

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٩- ٣٢٠).

تثور بينهم فتنة وقتال بسبب ذلك، فرأوا أن يأتوا إلى نبي الله موسى ﷺ؛ ليخبرهم من القاتل- كما يدل على هذا قوله تعالى في أثناء القصة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وقد أكد لهم ذلك بـ«إِنَّ» وعظَّمهُ ببيان أن الآمر بذلك هو الله ﷻ، ولم يقل: آمركم أو اذبحوا.

وجملة ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾في محل جر، أي: بأن تذبحوا بقرة، أي: بذبح بقرة، أيّ بقرة كانت، ولو فعلوا لأجزأهم ذلك، وحصل المقصود، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم»[١].

أي: لكنهم اعترضوا وأنكروا على موسى ما قاله، فقالوا:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، قرأ حفص بإبدال الهمزة واوًا «هزوًا»، وقرأ حمزة وخلف: «هُزْءًا» بإسكان الزاي، وقرأ الباقون بالهمز «هُزُؤًا». والاستفهام للإنكار.

أي: أتجعلنا هزوًا، أي: مهزوءًا بنا، أي: محل استهزاء، والهزء: السخرية، وإنما قالوا هذا- والله أعلم- لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سببًا لمعرفة القاتل وزوال ما بينهم من المدارأة، وعدم معرفتهم وجه الحكمة في أمرهم بذلك، وكان الواجب عليهم التسليم لأمر الله وأمر رسوله.

قال ابن القيم[٢] في ذكر العبر من هذه القصة: «ومنها أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قابلوا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك».

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل والسَّفَه وعدم العلم الذين يستهزئون بعباد الله، فالجهل السَّفه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٩٨، ١٠٠).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٨).

﴿ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، أي: بسفه، والجهل: ضد الحلم، قال عمرو بن كلثوم[1]:

ألا يجهلـن أحـدٌ علينـا فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

والجهل ضد العلم، كما قال النابغة؛ وليس جاهل شيء مثل من علما.

وقال السموأل[2]:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواءً عالم وجهولُ

ولما علموا صدق موسى فيما قال لهم من أمر الله لهم بذبح بقرة سألوه عن سنها تشددًا وتعنتًا منهم، قال تعالى:

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بهذا اللفظ خاطبوا موسى عليه السلام ثلاث مرات في هذه القصة، وفي هذا من الاستكبار والجفاء والسخرية وسوء الأدب ما لا يخفى كما سبق بيان ذلك في الكلام على قولهم: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ «ما»: استفهامية في محل رفع مبتدأ، و«هي»: ضمير في محل رفع خبر، والتقدير: أيُّ شيء هي من حيث السن، بدليل قوله في جوابه لهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾.

وهذا سؤال لا وجه له؛ لأنهم إنما أمروا بذبح بقرة، فلو ذبحوا أي بقرة لأجزأهم ذلك، وحصل المقصود، لكنهم تعنتوا وتشددوا فشدد الله عليهم بقوله:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: قال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾، أي: لا مسنة كبيرة هرمة، بدليل مقابلتها بقوله: ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾.

وسميت «فارض»؛ لأنها فرضت سنها، أي: قطعته، والفرض: القطع.

﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾، أي: ولا صغيرة، لم يقرعها الفحل ولم تلد، وهي الفتية مشتقة من

(١) انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٩٢).

البُكرة، وهي أول النهار؛ لأن البكر في أول السنوات من عمرها.

﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط، ونَصَف بين الفارض والبكر، أي: متوسطة السن، وهي أنفس وأحسن ما يكون، وأقوى وأشد ما يكون من البقر والدواب.

﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ هذا من قول موسى لهم حثًا على الامتثال، أي: فافعلوا الذي تؤمرون، أي: امتثلوا الذي أمركم الله به، من ذبح بقرة تكون وسطا بين الفارض والبكر، فحصروا في سن معيَّن؛ تشديدًا عليهم؛ لتشددهم في السؤال عن سنها، ولو ذبحوا بقرة بهذا السن، لأجزأهم ذلك وحصل المقصود، ولكنهم تعنتوا وتشددوا مرة ثانية بالسؤال عن لونها، فشدد الله عليهم.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ قوله: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾، كقوله: ﴿مَا هِيَ﴾، والتقدير: أي شيء لونها؛ أهي بيضاء، أو سوداء، أو صفراء، أو غير ذلك؟

وهذا سؤال أقل وجاهة من سابقه، إذ ما الفائدة في معرفة اللون، وما أثر ذلك إلا العناد والتعنت والتشديد على أنفسهم.

﴿قَالَ﴾: أي: قال لهم موسى:﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾: أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾: أي: لونها أصفر.

﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: أي: صافٍ لونها، شديد الصفرة، ليس فيه ما يشوبه ويخرجه عن الصفرة.

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: أي: تسر الناظرين إليها، أي: تعجبهم من حسن لونها ومنظرها، أي: تدخل السرور عليهم، وليست صفرتها صفرة مستكرهة تسوء الناظرين وتجلب الغم.

فكان في تعنتهم وتشديدهم مرة أخرى بالسؤال عن لونها أن شدد الله وضيق عليهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون صفراء اللون فلا يجزئ ما عدا الأصفر من الألوان، وهذا تضييق في الألوان.

الثاني: أن يكون لونها فاقعًا، أي: صاف الصفرة شديدها، ليس فيه ما يشوبه ويخرجه عن الصفرة، وهذا تشديد وتضييق عليهم في صفة وماهية صفرتها.

الثالث: أن تكون صفرتها صفرة تسر الناظرين، من حسن لونها ومنظرها، وهذا تشديد وتضييق عليهم في حسن اللون والمنظر.

ولو ذبحوا بقرة بالسن المذكور واللون المذكور أجزأهم ذلك، وحصل المقصود ولكنهم تعنتوا، وتشددوا مرة ثالثة بالسؤال عن عملها فشدد الله عليهم في ذلك.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي: أي شيء هي من حيث العمل، أي: ميزها وصفها لنا من حيث العمل بدليل قوله تعالى في جوابه لهم: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: إن البقر تشابه والتبس علينا لكثرته، فلا ندري ما شبه البقرة المطلوب ذبحها، أو أي بقرة تذبح، وكأن هذا اعتذار منهم عن سبب تكرير وإعادة السؤال.

وهذا إنما هو تعنت منهم وتشديد ثالث على أنفسهم، وإلا فأين التشابه، وقد بين لهم أنها بقرة وبين لهم سنها وأنها ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، وبين لهم لونها وأنها ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أكدوا مقالتهم هذه بثلاثة مؤكدات: «إنَّ» ولام التوكيد في قوله: ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾، وكون الجملة اسمية.

وقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن هذا منهم من تفويض الأمر إلى الله ﷻ؛ ولهذا قال بعض السلف: «لو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا إليها أبدا»[1].

وفي هذا ما يشعر بالوعد منهم والطمأنة لموسى ؈.

ويحتمل أن قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: إن الله لم يشأ أن نهتدي، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا

---

(١) روي هذا عن جمع من السلف انظر «جامع البيان» (٢/ ٩٨- ١٠٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٤١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٩).

عَبَدْنَهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: قال لهم موسى عليه السلام مجيبًا لهم ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

وفي هذا ما فيه من التشديد والتضييق عليهم.

ومعنى قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لا هي مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ تحرثها وتقلبها للنبات ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: ولا هي بسانية يستخرج عليها الماء لسقي الحرث.

والمعنى: لا هي مذللة بالعمل بإثارة الأرض وحرثها، ولا باستخراج الماء وسقي الحرث عليها، بل هي مكرمة مدللة لا مذللة.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: صحيحة لا نقص فيها ولا عيب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف لونها، فهي صفراء خالصة الصفرة، لا يخالط صفرتها لون آخر من سواد أو بياض أو غير ذلك.

وفي هذا تشديد وتضييق عليهم أيضًا من أربعة أوجه:

الأول: أن لا تكون مذللة بإثارة الأرض وحرثها.

الثاني: أن لا تكون مذللة بسقي الحرث واستخراج الماء.

الثالث: أن تكون صحيحة لا نقص فيها ولا عيب.

الرابع: أن تكون خالصة الصفرة لا يخالط صفرتها لون آخر.

فشددوا فشدد الله عليهم وقد قال ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه**»(١).

﴿قَالُوا﴾: أي: قالوا بعد هذا التعنت والتشديد على أنفسهم، وبعد أن شدد الله عليهم.

﴿ٱلْـَٔـنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ «الآن»: اسم زمان، يشار به للوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وهذه الساعة ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أتيت بالقول الحق، أي الآن يا موسى أتيت بالقول

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- الدين يسر (٣٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والأمر الثابت، ومفهوم كلامهم هذا أنك لم تأت بالحق قبل ذلك، بل جئت بالباطل، يدل على هذا قولهم في أول الأمر: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ قال ابن القيم: «فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر».

وقيل معنى قولهم: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾أي: الآن بينت لنا البيان التام في أمر البقرة وأوصافها فعرفناها، وهذا من جهلهم؛ لأنه قد جاءهم بالحق أول مرة.

قال ابن القيم[١]: «فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق أول مرة».

وقال أيضًا في ذكر العبر المأخوذة من القصة: «ومنها أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة الأسئلة، بل كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أيِّ بقرة اتفقت، فإن الأمر لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هي بمنزلة قوله: «أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، فإن الآية غنية عن البيان المفصل، مبينة بنفسها، ولكن تعنتوا وشددوا فشُدِّد عليهم».

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: فذبحوا البقرة بعد العثور عليها بأوصافها السابقة بعد الجهد الجهيد المضني في طلبها، والمشقة الشديدة في البحث عنها، وذلك ثمرة تشديدهم على أنفسهم، ولهذا نهى النبي ﷺ عن كثرة السؤال، وقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»[٢].

وكما في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله كره لكم ثلاثًا، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[٣].

﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم ما كادوا يفعلون، و«ما»: نافية، أي: وما قاربوا أن يفعلوا لشدة تعنتهم وعنادهم وتشديدهم على أنفسهم، بالسؤال عن سنها، ثم عن لونها، ثم عن عملها، وتباطؤهم وتأخرهم عن الفعل لكنهم في النهاية

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٧- ٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣).

فعلوا؛ لقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: فذبحوها مكرهين، أو كالمكرهين؛ لما أظهروا من المماطلة.

و«كاد» كغيرها من الأفعال، نفيها نفي، وإثباتها إثبات، يقال: كاد المطر أن ينزل، أي: قارب وأوشك أن ينزل، ويقال: ما كاد المطر أن ينزل، أي: ما قارب وما أوشك أن ينزل.

وقوله في الآية: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لا شك أنه نفي، أي: وما قاربوا أن يفعلوا، وإنما استفدنا أنهم فعلوا من قوله قبل ذلك ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

فيكون المعنى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: وما قاربوا أن يفعلوا لشدة تعنتهم وعنادهم، لكنهم في النهاية فعلوا بدليل ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

ذكر الله ﷻ في هاتين الآيتين السبب في أمر الله لهم بذبح البقرة، وجاء ذكره- والله أعلم- في نهاية القصة للمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا حين قتلتم نفسًا ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: فتدافعتم فيها واختلفتم، كل قبيلة تتهم الأخرى بقتلها، وتنفي التهمة عن نفسها، وكاد يكون بينهم قتال وفتنة بسبب ذلك، فأتوا موسى لعله يخبرهم، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

وقد ذكر في القصة أن نفرًا من اليهود قتلوا ابن عمهم الوحيد؛ ليرثوا عمهم، وطرحوه في محلة قوم، وجاؤوا إلى موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتانا، وأنكر المتهمون، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، الواو: اعتراضية، و«ما»: موصولة، أي: والله مظهر للناس الذي كنتم تخفونه في أنفسكم من معرفة القاتل.

وهذه الجملة اعتراض بين قوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ لتقرير وبيان أنهم مهما حاولوا كتمان الحقيقة، وإخفاء القاتل، فإن الله مظهره للناس؛ لأن الله ﷻ لا تخفى عليه خافية، والسر والعلانية عنده سواء، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ

مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، أي: يظهره.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»(١).

وفي الأثر: «وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، وكما قيل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٢)

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ القائل هو الله ﷻ، أي: فقلنا لهم بما أوحيناه إلى نبينا موسى: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

والضمير في قوله: ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾ يعود إلى القتيل المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، والضمير في قوله: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يعود إلى ما عاد إليه الضمير في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ وهي البقرة المأمور بذبحها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

أي: اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة، أي: بجزء منها، أو بعضو منها، فضربوه ببعضها فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى محذوف للإيجاز، أي: فضربوه ببعضها فأحياه الله، أي: مثل إحياء الله تعالى هذا القتيل يحيي الله ﷻ الموتى، كما قال ﷻ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: وكذلك يظهر الله لكم آياته الكونية والشرعية، الدالة

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وقال: «حديث غريب».

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

على عظمته ﷻ، فإحياء القتيل بضربه بجزء من البقرة آية من آيات الله الكونية.

وأمر الله ﷻ لموسى بأمرهم بذبح بقرة، وضرب القتيل ببعضها، وحياته بذلك وإخباره بقاتله إظهار وبيان لصدق ما جاءهم به موسى من هذه الآيات ومعجزة وكرامة له.

وقد ذكر الله ﷻ ما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع من هذه السورة:

في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٦]، وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [الآية: ٢٤٣]، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الآية:٢٥٩]، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية: ٢٦٠].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لأجل أن تعقلوا عن الله ﷻ آياته وتتفهموها وتتأملوا فيها وتتدبروها، وتنتفعوا بها منحكم الله من عقول.

وفي الإخبار بهذه القصة علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، ودلالة على نبوة موسى عليه الصلاة والسلام، وعلى قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وإثبات المعاد، وتحذير من التشدد في الدين وعواقبه الوخيمة، ومقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا، فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله وهتكه وحرمه ميراث المقتول(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾.

في هذه الآية توبيخ وتقريع لبني إسرائيل في قسوة قلوبهم بعدما مَنَّ الله عليهم به من النعم الجليلة، وما رأوا من الآيات العظيمة، من إحياء الموتى، وبيان القاتل وغير ذلك.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم صلبت وتحجرت قلوبكم، فلم تؤثر فيها الموعظة، والخطاب لبني إسرائيل.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما تقدم من مشاهدتهم آيات الله تعالى في إحياء الموتى، والإنعام عليهم ببيان القاتل، وكف ما بينهم من المدارأة في ذلك، مما يستوجب الشكر ورقة القلوب لا قسوتها.

رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن القوم بعد أن أحيى الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد إذ رأوه، فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الآية»[1].

والآية أعم من هذا.

﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل» أي: فقلوبكم في قسوتها مثل الحجارة، وهي الصخور الصلبة التي هي أقسى شيء، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه أمر معنوي وهو عدم قبول قلوبهم للحق وإعراضها عنه كلية بأمر حسي وهي الحجارة الصلدة الصلبة التي لا تلين أبدا.

﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ «أو» يحتمل أن تكون لتحقيق ما سبق، أي: أنها كالحجارة في القسوة إن لم تكن أشد قسوة منها، أي: أن قسوتها لا تنقص عن قسوة الحجارة، فإن لم تزد عليها لم تكن دونها، قال ابن القيم[2]: «وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق».

وقريب من هذا قول من قال: «أو» بمعنى الواو، أي: فهي كالحجارة وأشد قسوة.

ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى «بل» فتكون للإضراب، أي: بل هي أشد قسوة من الحجارة.

وهذا أظهر؛ لأنه أبلغ في وصف قساوة قلوبهم، ولأن الحجارة منها ما يهبط من خشية الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، ومنها ما يخشع ويتصدع من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ١٢٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٢٠).

﴿ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقيل: إن «أو» بمعنى الواو، أي: فهي كالحجارة وأشد قسوة. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: وكفورًا، ومن هذا قول جرير[1]:

نال الخلافة أو كانت له قدرًا ... كما أتى ربَّه موسى على قدر

أي: وكانت له قدرًا.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

لما ذكر ﷻ قسوة قلوب بني إسرائيل، وأنها كالحجارة أو أشد قسوة، وفي هذا دلالة على أنه لا أمل فيها ولا خير فيها البتة أتبع ذلك ببيان أن من الحجارة ما هو خير من قلوبهم القاسية من وجوه عدة، فمنها ما يتفجر منه الماء، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذه الجملة وما عطف عليها في محل نصب على الحال، أي: والحال إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار... إلى آخره.

أو هي اعتراض بين قوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أو استئنافية.

﴿لَمَا﴾ اللام للتوكيد، و«ما»: اسم موصول في محل نصب اسم «إن» والضمير في قوله: ﴿مِنۡهُ﴾ يعود إلى الاسم الموصول، أي: وإن من الحجارة للذي يتفجر منه الأنهار ﴿يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: يتفتح وتخرج وتجرى منه الأنهار، أي: أنهار المياه، كما قال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا﴾ [الآية: ١٦٠] والتَفَجُّر أبلغ وأقوى من التشقق؛ ولهذا قدم عليه.

(١) انظر «ديوانه» (ص ١٦).

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي: وإن من الحجارة للذي يشقق فيخرج منه الماء، كما في أحجار الآبار تتشقق ويخرج وينبع منها الماء وإن لم يكن جاريًا.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: وإن من الحجارة للذي يهبط من خشية الله، أي: يخضع ويخشع ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب خشية الله وخوفه وتعظيمه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى لموسى ﷺ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وخلف بالياء: «يعملون» على الغيبة، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ حالية، و«ما»: نافية، والباء في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للنفي، و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أن الله ليس بغافل عن الذي تعملون، أو عن عملكم.

والغفلة في الأصل سهو يعتري الإنسان لضعفه، بسبب قله التحفظ والتيقظ، أما الله ﷻ فلا يعتريه سهو ولا غفلة، لكمال علمه وإحاطته، ودوام رقابته وقيوميته.

ففي نفيه ﷻ عن نفسه الغفلة عن عملهم إثبات كمال علمه وإحاطته بعملهم وحفظه وإحصائه له، وأنه سيجازيهم عليه.

والصفات المنفية يؤتى بها لنفي تلك الصفات وإثبات كمال ضدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ففي قوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ إثبات كمال حياته.

والخطاب في الآية لليهود قُساة القلوب، وفيه تهديد ووعيد لهم، كما قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

كما أن فيه تهديدًا ووعيدًا لغيرهم من قساة القلوب؛ ولهذا نهى الله ﷻ المؤمنين أن يكونوا مثل أهل الكتاب فتقسوا قلوبهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير بني إسرائيل بما حصل من أسلافهم من المكابرة والعناد والتعنت والتشديد على أنفسهم في أمر البقرة مما كان سببًا للتشديد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات.

٢- تعظيم موسى لربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ بصيغة الغائب، ولفظ الجلالة «الله» الدال على التعظيم.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام وأنه مرسل من عند الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾.

٤- شدة جهل بني إسرائيل، حيث أنكروا على موسى ما قاله لهم مع أنه أخبرهم أن الذي أمرهم بذبح البقرة هو الله ﷻ، وكان الواجب عليهم التسليم لأمر الله وإن خفي عليهم وجه الحكمة في ذلك؛ لقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

٥- أن الاستهزاء بالناس من الجهل والسفه؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٦- لا منجا ولا ملجأ لجميع الخلق من الرسل وغيرهم للحفظ من الشرور إلا إلى الله ﷻ؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٧- استكبار بني إسرائيل وجدالهم وسوء أدبهم وسخريتهم في قولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فلم يقولوا: «ادع لنا ربنا» أو «ادع الله لنا» ونحو ذلك. وكأنَّ رب موسى ليس ربًّا لهم- عياذًا بالله.

٨- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم بالسؤال عن سن البقرة بقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، ولو ذبحوا أي بقرة أجزأهم ذلك وحصل المقصود، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ﴾.

٩- تأكيد الأمر لبني إسرائيل بفعل ما أمرهم الله به، لقول موسى عليه السلام: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

١٠- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم ثانيًا بالسؤال عن لون البقرة، مما لا مبرر له ولا فائدة إلا المكابرة والعناد؛ لقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

١١- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم ثالثًا بسؤالهم عن البقرة أهي عاملة أو غير عاملة؟ بقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

١٢- تعليق الأمر بمشيئة الله- تعالى؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾، فلا شيء يقع إلا بمشيئة الله عز وجل، ولعل هذا هو السبب في اهتدائهم إليها في النهاية وذبحها، كما قال بعض السلف، لكن لا يجوز الاحتجاج على الفعل أو الترك بالمشيئة، كما قال المشركون: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

١٣- التحذير من التشدد في الدين، فإن من شدد، شدد الله عليه، فبنو إسرائيل كان المطلوب منهم ذبح أيّ بقرة، لكنهم تشددوا فسألوا عن سنها، فَقُيِّدوا بسن معين محدد، بأنها: ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط بين ذلك، وليتهم فعلوا، لكنهم تشددوا مرة ثانية، فسألوا عن لونها، فقيدوا بلون محدد، وهو أنها: ﴿بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، وليتهم فعلوا، لكنهم تشددوا مرة ثالثة، فسألوا عن عملها، فقيدوا بأنها: ﴿بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾.

١٤- شدة عناد بني إسرائيل وتباطؤهم وتلكؤهم عن تنفيذ أمر الله- تعالى.

١٥- جُرأة بني إسرائيل على إنكار ما جاءهم به موسى من عند الله والطعن فيه؛

لقولهم: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فكأنهم يرون أن ما قبله ليس بحق، ويدل على هذا قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾.

وعلى احتمال أنهم أرادوا بقولهم: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالبيان التام في أمر البقرة، فإن في هذا دليلًا على شدة جهلهم؛ لأنه قد جاءهم بالحق والبيان من أول مرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾، فلو ذبحوا أي بقرة أجزأهم ذلك، وحصل المقصود.

١٦- ذبح بني إسرائيل للبقرة بعد العناد والتشدد والجهد الجهيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، أي: فذبحوها على مضض وكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾؛ لشدة تعنتهم وعنادهم.

١٧- وجوب المبادرة إلى امتثال أمر الله وترك العناد والمكابرة، فإن المخالفة لأمر الله أو التباطؤ في تنفيذه قد تكون سببًا للتشديد في الأمر، أو الوقوع في مخالفة أعظم.

١٨- أن سبب أمر بني إسرائيل بذبح بقرة هو قتلهم نفسًا وتدارؤهم فيمن قتلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾.

١٩- إقدام نفر من اليهود على قتل رجل منهم واتهام كل قبيلة منهم الأخرى بقتله، وفي هذا ارتكاب ذنبين كبيرين؛ الأول: قتل النفس بغير حق، والثاني إنكار القتلة أنهم قتلوا واتهامهم للآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا﴾.

٢٠- أن من أقدم على ارتكاب القتل أو اتهام الآخرين فيه شبه من اليهود.

٢١- عدم قدرة الخلق على علم الغيب لعدم معرفة أهل القتيل من قتله.

٢٢- حرمة القتل العمد في جميع الديانات السماوية؛ لما يترتب عليه من إزهاق النفوس بغير حق.

٢٣- علم الله ﷻ الغيب وجميع ما يكتم الخلق، وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

٢٤- التحذير من كتمان الحق وإخفائه؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية، والسر عنده علانية.

٢٥- لا ينبغي التكلف في تحديد البعض من البقرة الذي ضرب به القتيل؛ لأن الله أمرهم بضربه ببعضها، أي: بأي بعض منها، ولم يحدد هذا البعض توسعة وتيسيرًا

عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ وهذا أوسع لهم وأيسر في التنفيذ من لو حدد هذا البعض.

٢٦- في إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة دلالة على قدرة الله ﷻ التامة على إحياء الموتى، وآية عظيمة من آياته الكونية يريها ﷻ بني إسرائيل؛ لأجل أن يعقلوا عن الله ﷻ آياته، ويتفهموها وينتفعوا بها منحهم الله ﷻ من عقول؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٢٧- ربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والله قادر على إحيائه بدون ذلك.

٢٨- نعمة الله ﷻ على بني إسرائيل في بيان القاتل، وإظهار الحق في هذه القضية، وفي بيان آياته لهم؛ لأجل أن يعقلوها ويهتدوا إلى الحق.

٢٩- توبيخ بني إسرائيل على قسوة قلوبهم من بعد ما مَنَّ الله به عليهم من النعم الجليلة، وما رأوا من الآيات العظيمة من إحياء الموتى، وبيان القاتل وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٣٠- شدة قسوة قلوب بني إسرائيل فهي كالحجارة في القسوة أو أشد قسوة من الحجارة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٣١- تشبيه المعقول بمحسوس؛ لزيادة الإيضاح والبيان، وأن الحجارة أشد شيء في القسوة.

٣٢- أن قسوة القلوب من صفات اليهود، مما يوجب الحذر من ذلك؛ ولهذا نهى الله ﷻ المؤمنين أن يكونوا كأهل الكتاب، فتقسوا قلوبهم.

٣٣- أن من الحجارة ما هو خير وألْيَن من قلوب بني إسرائيل القاسية، بتفجر الأنهار منها أو بتشققها وخروج الماء منها، أو هبوطها من خشية الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

٣٤- قدره الله ﷻ التامة في تفجير الماء من الحجارة، وشقها وإخراج الماء منها.

٣٥- أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وفي هذا دلالة على طاعة الجمادات وانقيادها لله ﷻ وعبادتها له، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

٣٦- إثبات عظمة الله ﷻ ووجوب خشيته وتعظيمه؛ لأنه إذا كانت الحجارة والجمادات تخشاه وتعظمه فالعقلاء أولى بخشيته وتعظيمه، وذلك عليهم أوجب.

٣٧- إحاطة الله ﷻ التامة وعلمه بأعمال العباد وعدم غفلته عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ففي هذا إثبات كمال إحاطته وعلمه.

٣٨- التهديد والوعيد لقساة القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنه سيحصيه ويحاسبكم ويجازيكم عليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

بين ﷻ في الآيات السابقة قسوة قلوب اليهود وأهل الكتاب وأنها كالحجارة أو أشد قسوة، ثم أتبع ذلك بقطع طمع المؤمنين في إيمانهم.

قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به الاستبعاد والتيئيس والإنكار والتعجب. والخطاب للمؤمنين، والطمع: هو الرجاء مع الرغبة الأكيدة الشديدة في حصول الشيء.

والمعنى: أفترجون أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: أن يؤمن لكم اليهود، أي: أن يقروا لكم ويصدقوكم وينقادوا لكم بالطاعة، وقد شاهد آباؤهم آيات الله العظيمة وتمتعوا بنعمه الجسيمة، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك، هذا أمر في غاية البعد، وكيف يكون هذا؟!

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ الواو: حالية، و«قد»: للتحقيق، أي: والحال أنه كان فريق منهم، أي: طائفة منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يسمعون كلام الله المنزل عليهم في التوراة، وكلامه الذي أسمعهم لما كلم موسى ﵇ حين اختار منهم سبعين رجلًا لميقات ربه، وكذا كلامه ﷻ

في القرآن الكريم. وفي الآية إثبات صفة الكلام لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته صفة ذاتيه ثابتة له ﷻ وصفة فعلية مرتبطة بمشيئته. فهو يتكلم متى شاء بحروف وكلمات وألفاظ، بصوت مسموع، ومعنى مفهوم: لأنه لا معنى للكلام المسموع إلا هذا.

وفي هذا رد على من ينفي صفة الكلام عن الله ﷻ أو يؤولها بالمعنى القائم بالنفس من أهل البدع.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ التحريف: مصدر حرَّف الشيء إذا مال به إلى الحرف وعن جادة الطريق، أي: ثم يحرفون كلام الله، أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلون معناه ويغيرونه ويميلون به عن وجهه ومعناه إلى غيره، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ «ما» مصدرية، أي: من بعد عقلهم ووعيهم له، وفهمهم له على الجلية.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون أنهم يحرفون كلام الله، وأن ذلك محرم، فارتكبوا الإثم والمخالفة على بصيرة، فحرفوا كلام الله بعد ما عقلوه وفهموه، وتركوا الحق بعد ما عرفوه، فاستحقوا بذلك لعنة الله وغضبه، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وقال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإذا لقي هؤلاء اليهود وقابلوا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاء به ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: قالوا بألسنتهم نفاقًا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: دخلنا في الإيمان، أي: آمنا مثلكم بمحمد وبما جاء به، فأظهروا الإيمان بألسنتهم مع ما تنطوي عليه بواطنهم من الكفر؛ ولهذا قال:

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: وإذا انفرد بعضهم ببعض، وكانوا في خلاء من الناس، ولم يكن عندهم أحد من غيرهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به الإنكار والتوبيخ والتعجب، والضمير الهاء يعود إلى المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ، أي: كيف تحدثون المؤمنين بما فتح الله عليكم، أي: لا تحدثونهم بذلك.

﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: كيف تخبرون المؤمنين بالذي فتح الله عليكم مما في كتابكم من نعت محمد ﷺ مما يدل على صحة رسالته، وأخذ الميثاق عليكم بإتباعه، وغير ذلك، أي: لا تحدثوهم، ولا تخبروهم بذلك، وهذا نفاق منهم، وكتمان للحق.

﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهاية أنهم يحاجوكم ويخاصموكم، بما حدثتموه به عند ربكم.

أي: فيكون ذلك حجة لهم عليكم يوم القيامة عند ربكم، لماذا لم تؤمنوا بمحمد ﷺ، ولماذا رددتم ما جاء به من الحق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وقال السعدي[١]: «أتظهرون لهم الإيمان، وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم به عند ربكم».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: التوبيخ، أي: أليس لكم عقول تعرفون بها أنكم إذا حدثتموهم بما عندكم من العلم بصدق رسالة محمد ﷺ كان ذلك حجة لهم عليكم عند ربكم، فأين عقولكم؟ وما علموا أن العقل كل العقل في اتباع الرسول ﷺ وما جاء به، والشهادة بصدقة كما جاء في كتبهم، وأن عدم العقل هو عدم الإيمان به، وكتمان ما في كتبهم من تصديقه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) في «تفسير الكريم الرحمن» (١/ ١٠٠).

ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتبكيت والوعيد لليهود؛ لتحريفهم كلام الله، وكتمانهم ما عندهم من الشهادة بصدق ما جاء به محمد ﷺ، وتمالؤهم على ذلك، أي: أو ليسوا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

و«ما» مصدرية أو موصولة في الموضعين، أي: أن الله يعلم إسرارهم أو الذي يسرون، ويعلم إعلانهم أو الذي يعلنون.

والمعنى: أن الله يعلم الذي يخفون في أنفسهم، وفيما بينهم من كتمان ما في كتبهم من الشهادة بصدقه ﷺ، ومن التكذيب له والكفر بما جاء به، وما يظهرون لعامة الناس من الإيمان به كذبًا وغير ذلك، أي: يعلم سرهم وعلانيتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة حال فريق من أهل الكتاب، وهم الذين يسمعون كلام ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وفهموه وهم يعلمون، وفي هذه الآية ذكر الفريق الثاني المقابل لذلك وهم الأميون الجهلة الذين لا يعلمون الكتاب، ويتكلمون بالظن وبلا علم، ففريق عرفوا الحق وحرفوه وتركوه، وفرق جهلة لم يعرفوا الحق، فكيف يطمع في إيمانهم؟!

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ عطف الحال على الحال. أي: ومن أهل الكتاب، أي بعضهم وفريق منهم.

﴿أُمِّيُّونَ ﴾: جمع أمّي، وهو من لا يكتب ولا يقرأ، كما قال ﷺ: **«إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، والنسائي في الصوم (٢١٤٠)، وأبوداود في الصوم (٢٣١٩) – من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى في وصف العرب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وسمي من لا يكتب ولا يقرأ بالأمي نسبة إلى أمه، أي: إلى الحالة التي فارق عليها أمه حين خرج من بطنها، وهي الجهالة، أو نسبة إلى الأمة وهي عامة الناس، فهو يرادف «العامي».

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: لا يعرفون الكتاب ولا يفقهونه، ولا يدرون ما فيه، والمراد بالكتاب «التوراة» و«ال» فيه للعهد.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب؛ لأن التوراة مكتوبة في ألواح، كتبها الله ﷻ بيده، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وفي الحديث: «**وكتب لك التوراة بيده**»(١).

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قرأ أبوجعفر: «أماني» بتخفيف الياء، وقرأ الباقون بتشديدها: «أمانيَّ».

والاستثناء منقطع، أي: إلا علم أماني. و«الأماني» جمع «أمنية» وهي التلاوة والقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢) في رثائه لعثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر

والمعنى: ومن أهل الكتاب أميون لا يعلمون التوراة إلا قراءة دون فهم وفقه للمعنى، فهم بحكم من لا يقرأ ولا يكتب، وبحكم العوام، وليسوا من أهل العلم، وإن تمنوا ذلك وزعموه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وفي هذا ذم لليهود في كونهم يقرؤون الكتاب مجرد قراءة بلا فهم للمعنى، كما أن

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٠١) وابن ماجه في المقدمة (٨٠)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٧.

فيه ذمًا لمن سلك مسلكهم من هذه الأمة في قراءة القرآن بلا فهم ولا تدبر، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ولهذا لما ذكر عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه يختم القرآن في كل ليلة، قال له النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر، فلما قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال له: اقرأه في كل سبع ليال»[١]، وفي رواية: فقال: «اقرأ القرآن في كل شهر، قال: إني أطيق أكثر، فما زال حتى قال: في ثلاث»[٢].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» نافية بمعنى: «ما»، «إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا يظنون، وذلك لعدم فهمهم المعنى، فليس عندهم إلا الظن: وهو الوهم والشك والقول بلا علم، والمعنى: ما هم إلا يتخرصون ويقولون بلا علم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

والقول بالظن والحكم به محرم لا يجوز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وفي الحديث «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[٣].

وما وقع كثير من الخوارج فيما وقعوا فيه من التكفير والخروج على أئمة الإسلام واستباحة دماء المسلمين، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا، ممن قال عنهم الرسول ﷺ: «**يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[٤] إلا بسبب الظن والجهل، وعدم العلم والفهم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)- من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٢) أخرجها البخاري في الصوم (١٩٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨) عن حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة فريقين من أهل الكتاب، وهم الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، والأميين الذي لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ثم أتبع ذلك بذكر الذين ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾، وهؤلاء يحتمل أنهم ضمن الفريق الأول الذين ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾، فالأولون يحرفون كلام الله من حيث المعنى، وهؤلاء يحرفونه من حيث اللفظ وهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويزعمون كذبًا أنه من عند الله لإضلال الناس وأكل أموالهم بالباطل.

قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾، «ويل»، أي: وعيد وتهديد وحسرة وعذاب شديد، لأحبار اليهود وعلمائهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يزعمون كذباً أنه من عند الله.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب، أي: يكتبون كتبًا ويضعونها من عند أنفسهم، ويبدلون فيما أنزله الله، ويزيدون وينقصون.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿يَكْتُبُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وكقول القائل: «سمعت بأذني، وأبصرت بعيني» ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثم يقولون كذبا وزورا ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الكتاب نزل من عند الله، أي: هذه التوراة التي أنزلها الله افتراء على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لأجل أن يأخذوا به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا قليلًا زهيدًا من المال والرئاسة والجاه ونحو ذلك من حظوظ الدنيا الزائلة الحقيرة.

وكل ما أخذ مقابل ترك أمر الله، ومقابل ثواب ذلك في الدنيا والآخرة فهو قليل، ولو كان ذلك العوض الدنيا كلها بما فيها فهو قليل حقير زهيد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[١] وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[٢].

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فويل لهم من كتبهم، أو من الذي كتبت أيديهم من الكتاب والتحريف والباطل، ونسبوه إلى الله كذبًا وزورًا، وأضلوا به عباد الله.

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: وويل لهم من الذي يكسبون أو من كسبهم السحت الذي يأخذونه من الناس مقابل ذلك.

فتوعدهم أولًا بوعيد عام، ثم أكّده وفصَّله إلى وعيدين: وعيد على الوسيلة، وهي كتابتهم الكتاب بأيديهم، وقولهم: هذا من عند الله، ووعيد على الغاية وهي ما يكسبون من السحت الذي يأخذونه من أموال الناس مقابل ذلك؛ لأنهم جمعوا بين الافتراء والكذب على الله، وبين الكذب والتدليس على الناس، وتضليلهم عن الحق، وأكل أموالهم بالباطل.

وإذا كان الله ﷻ توعد اليهود في كتابتهم التوراة وتحريفها بهذا الوعيد الشديد المؤكد، فإن الوعيد أشد وأعظم وآكد لمن يجترئون على أعظم كتب الله القرآن الكريم ويطعنون فيه بالزيادة أو النقصان ويزعمون أن فيه تحريفًا وتبديلًا وتغييرًا- من أهل البدع وغيرهم، وقد أجمعت الأمة في القرون المفضلة وبعدها إلى يومنا هذا- ولله الحمد- على أن ما بين دفتي المصحف هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ بلا زيادة ولا نقصان، وكيف لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٠)- من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

هذا وقد تكفل الله ﷻ بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

كما أن الوعيد يشمل الذين يلوون نصوص الكتاب والسنة؛ لتوافق أهواءهم وآراءهم الفاسدة، وما في قلوبهم من أمراض الشبهات والشهوات، ويؤلفون في ذلك الكتب، وينشرون المقالات، ويزعمون أنهم يستندون فيما يكتبون إلى أدلة الكتاب والسنة، تمويهًا على الناس- مع ما تنطوي عليه كتاباتهم من الرغبة في إثارة البلبلة وتشكيك الأمة في ثوابتها وأغلى موروث لديها، والرغبة في التصدر وتوجيه أنظار الناس إليهم، ونحو ذلك ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾.

ذكر ﷻ في الآيات السابقة تحريف فريق من أهل الكتاب كلام الله، وجهل فريق منهم بالكتاب، وقولهم بالظن بلا علم، وتوعد ﷻ الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، ثم ذكر أنهم مع ما هم عليه من الباطل يزعمون أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة تزكية منهم لأنفسهمن فجمعوا بين الإساءة والأمن، ثم ردَّ ﷻ عليهم، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآيتين: ٢٤، ٢٥].

قول: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي: وقال اليهود زعمًا منهم كاذبًا وادعاءً باطلًا:

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي: لن تصيبنا النار، أي: نار الآخرة التي أعدت لتعذيب الكافرين ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أيامًا قليلة تعد بالأصابع، وكل معدود فهو قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

قيل: إنهم يقولون: إنما هي سبعة أيام، وقيل: أربعون يومًا، وهي الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم نخرج منها، ويخلفنا فيها محمد وأمته.

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي

ﷺ: «اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود، فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت، قال: فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: مَن أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا...»[١].

فهم يقرون بدخولهم النار، وهذا حق دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة بالنسبة لجميع الكفار.

أما قولهم: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ فهذا مجرد دعوى لا دليل عليها، وإنما حملهم عليها الكبر والحسد، والغرور حيث يقولون: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: لنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، ويقولون فيما حكي عنهم: نحن شعب الله المختار، ويزعمون أن بقية الناس خلقوا لخدمتهم كالحمير. وقد قيل:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء[٢]

ولهذا قال الله ﷻ تحديًا لهم وردًا عليهم:

﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾، الاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ والتبكيت لهم، و«العهد»: الوعد والميثاق المؤكد، أي: أخذتم عند الله وعدًا وميثاقًا أن لا تمسكم النار إلا أيامًا معدودة.

قال السعدي[٣]: «﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل».

﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ أي: إن كنتم اتخذتم عند الله عهدًا بما تقولون فلن يخلف الله عهده، لكمال صدقه وتمام قدرته على الوفاء بعهده ووعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٩).

(٢) البيت ينسب لشرف الدين البوصيري. انظر: «موسوعة الشعر العربي» (ص١٤).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٠٢).

﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١].

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «أم»: يحتمل أن تكون هي المتصلة التي بمعنى «أو» ويكون ما بعدها معادلًا لما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] أي: يستوي عليهم إنذارك أو عدمه.

فيكون معنى الآية هنا: قل هل اتخذتم عند الله عهدًا بذلك، أو تقولون على الله ما لا تعلمون، فحصرهم في أحد هذين الأمرين، وحيث انتفى الأول، فلم يبق إلا الثاني وهو القول على الله بغير علم.

ويحتمل أن تكون «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، وما بعدها منقطع عما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] أي: بل هم قوم طاغون.

فيكون معنى الآية على هذا: قل اتخذتم عند الله عهدًا، بل أتقولون على الله ما لا تعلمون، فأبطل الأول، وحصرهم في الثاني وهو القول على الله بغير علم.

وسواء كانت «أم» متصلة أو منقطعة، فالحقيقة أنهم لم يكن لهم عهد عند الله أن لا تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وإنما هم يقولون على الله ما لا يعلمون.

قال ابن القيم: «فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من الله، وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا قائله كاذب على الله- تعالى»[1].

وهذا دأب اليهود القول على الله بلا علم، وهو قرين الشرك، بل وأعظم منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ويؤخذ من الآية تحريم الفتوى بلا علم.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٢١).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وبيَّن بطلان قولهم وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ثم أتبع ذلك بذكر حكم عام لكل أحد من بني إسرائيل وغيرهم، وهو أنه كل يجازى بعمله فمن أساء وأحاطت به خطاياه فهو من أصحاب النار هم فيها خالدون، ومن آمن وعمل صالحًا فهو من أصحاب الجنة هم فيها خالدون وليس بالأماني، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ «بلى» حرف جواب مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال ما نفوه بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون بل ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، «من» شرطية، و«كسب» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويجوز أن تكون «من» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع مبتدأ، وخبره جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وقرن بالفاء لشبه الموصول بالشرط في العموم.

﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي: عمل سيئة، والكسب: العمل وثمرته المترتبة.

و«سيئة»: نكرة في سياق الشرط، فيعم كل سيئة وكل ذنب من الشرك فما دونه.

والسيئة تطلق على الصغيرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] يعني الصغائر، وتطلق على الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

وسميت السيئة سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره في

الحال إذا كانت متعدية، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر بالجمع (خطيئاته)، وقرأ الباقون ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ بالإفراد، وهي بمعنى الجمع؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أي: وأحاطت به خطيئته، فلم يكن له حسنة، واكتنفته خطاياه وذنوبه المتنوعة الكثيرة ومات على الشرك والكفر من غير توبة، بدليل قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها ملازمة دائمة أشد من ملازمة الغريم لغريمه؛ لهذا قال بعده: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم فيها ماكثون مقيمون إقامة أبدية، كما دلّ على ذلك القرآن في عدة مواضع، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم أن النار لا تفنى ولا يفنى أهلها.

وإنما قدم ذكر أهل النار؛ لأن السياق في الآية في الرد على زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار؛ لبيان أنهم من أهلها؛ ولهذا فإن في الآية تعريضًا بحالهم السيئة، في مصيرهم الذي هو بئس المصير.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عنه سعيد بن جبير أو عكرمة: «﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾»[1].

وفي الآية قصر مفاده أن المتصفين بما ذكرهم أصحاب النار الخالدون فيها، ومفهوم ذلك أن من كسب سيئة ولم تحط به خطيئته، فإنه ليس من أصحاب النار

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٧٨) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ١٥٧- ١٥٩).

الخالدين فيها، لكنه يعذب بقدر ما عليه من السيئات، إن لم يعف الله عنها، وقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على المرء حتى يهلكنه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

بعد ما ذكر عز وجل من تمسهم النار ويخلدون فيها ذكر الفريق المقابل وهم أهل الجنة المخلدون فيها على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والبشارة والنذارة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بكل ما أوجب الله الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، فلابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بحذف الموصوف وهي الأعمال، والاكتفاء بالصفة، وهي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، والعمل لايكون صالحًا إلا بالإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]؛ أي: أخلص العمل لله، وهو متبع للرسول ﷺ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أولئك أهل الجنة وملازموها، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم.

والجنة هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، دار السلام، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] دار الفوز العظيم وألوان النعيم، كما

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦١)، وأخرجه أحمد أيضًا (٥/ ٣٣١) والطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٠) «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبدالوهاب بن الحكم وهو ثقة». وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٣٧): «إسناده حسن» وأخرجه أحمد أيضًا (٦/ ٧٠، ١٥١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وكذ ابن ماجه في «الزهد» (ص ٤٢٤٣).

قال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول بإجماع المسلمين لتوافر أدلة الكتاب والسنة في الدلالة على ذلك، وفي الآية قصر مفاده أن المتصفين بما ذكرهم أصحاب الجنة الخالدون فيها دون من عداهم.

الفوائد والأحكام:

١- قطع طمع ورجاء الرسول ﷺ والمؤمنين في إيمان اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين، وبيان لعتو اليهود، وأنه لا مطمع في إيمانهم.

٢- حرص الرسول ﷺ والمؤمنين على إيمان أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ فهم يرجون ويحبون أن يؤمن هؤلاء، وهكذا ينبغي لكل مؤمن أن يحرص على إيمان الخلق، ويعمل لتحقيق ذلك ويحبه، فالدين النصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم(٢).

٣- إثبات الكلام لله ﷻ بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فالكلام صفة ذاتية ثابتة له ﷻ وصفة فعلية تتعلق بمشيئته، فهو يتكلم متى شاء.

٤- تحريف فريق من اليهود لكلام الله ﷻ بعد سماعهم له، وعقلهم وفهمهم له وعلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٥- بُعد هؤلاء اليهود عن الإيمان بسبب تحريفهم كلام الله بعد أن سمعوه وعقلوه وهم يعلمون ذلك عقوبة لهم؛ لأن المعصية تجر إلى ما هو أعظم منها.

٦- تحريم تحريف كلام الله ﷻ؛ لأن الله رتب عليه عدم الإيمان وهو من صفات اليهود.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث تميم الداري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧).

٧- أن الوقوع في المخالفة والذنب بعد عقل الأمر وفهمه والعلم به أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

٨- نفاق هؤلاء اليهود حيث إنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٩- لوم بعض اليهود بعضًا على إظهار الحق مما في كتبهم من نعت محمد ﷺ وإيجاب اتباعه ونحو ذلك، وتواطؤهم على كتمان الحق وجحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٠- أن العلم والإيمان من الفتح الذي يفتح الله به على من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

١١- المحاجة بين المؤمنين والكافرين عند الله يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة، وإقرار اليهود بذلك، لقولهم: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾.

١٣- تسفيه اليهود لمن يقول الحق منهم ووصفه بعدم العقل؛ لقولهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٤- الوعيد لليهود وتوبيخهم والإنكار عليهم في تحريفهم كلام الله تعالى: وكتمانهم الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

١٥- إثبات وتقرير علم الله التام بما يسر الخلق وما يعلنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ مما يوجب مراقبته ﷻ.

١٦- ذم بعض من اليهود في كونهم أشبه بالأميين لا يعلمون التوراة إلا مجرد قراءة فقط دون فهم للمعنى، وإن تمنوا ذلك وزعموه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، وفي هذا ذم لمن يقرؤون القرآن بلا تدبر ولا فهم من هذه الأمة

١٧- إطلاق وصف الأمية على من يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا قراءة بلا فهم.

١٨- اعتماد هؤلاء اليهود على الظن والشك والقول بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهكذا حال من لا علم عنده.

١٩- ذم الحكم بالظن؛ لأنه قول بلا علم، ومن صفات اليهود.

٢٠- الوعيد للذين يكتبون الكتاب بأيديهم من اليهود وغيرهم ثم يقولون: هذا من عند الله، كذبًا وافتراءً على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كما فعل اليهود وحرفوا التوراة وكتبوا بدلها كتابا بأيديهم، ونسبوه لله.

وهكذا يفعل اليوم الرافضة- أخزاهم الله- الذين يزعمون تحريف القرآن ويزيدون وينقصون فيه، بل ويزعمون أن هناك قرآنًا غيره عندهم في السرداب.

٢١- أن غاية ما يريده الذين يتجرؤون على الكذب على الله مما يكتبون بأيديهم ويقولون: هذا من عند الله أن يعتاضوا بذلك ثمنًا قليلًا من الرئاسة والمال والجاه ونحو ذلك من حظوظ الدنيا الفانية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢٢- ذم الدنيا بما فيها وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢٣- تأكيد الوعيد وتشديده لمن فعل ذلك لكذبهم على الله ﷻ وتضليلهم الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

٢٤- أن الجزاء بحسب العمل وبسببه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

٢٥- أن ما أخذ على الفعل المحرم من كسب فهو محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنه مقابل فعل محرم.

٢٦- إقرار اليهود بالآخرة والجنة والنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

٢٧- تزكية اليهود لأنفسهم؛ لزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، أو أن النار لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ مع ما هم عليه من تحريف كلام الله، والكذب على الله ﷻ، فجمعوا بين الإساءة والأمن، بل

والتزكية لأنفسهم.

٢٨- تكذيب اليهود والإنكار عليهم في زعمهم هذا إذ لا عهد من الله لهم بذلك، وإنما يقولون على الله ما لا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٩- أن الله لن يخلف وعده؛ لكمال صدقه وتمام قدرته على الوفاء بعهده ووعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾.

٣٠- بلاغة القرآن وقوة أسلوبه في إفحام الخصم، وإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣١- جرأة اليهود على القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- تحريم القول على الله بلا علم وأن ذلك من صفات اليهود، مما يوجب الحذر من الفتوى بلا علم.

٣٣- الرد على اليهود في زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، ببيان أن الثواب والعقاب إنما هو بحسب العمل، فكل يجازى بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وليس ذلك بحسب النسب أو الدعاوى ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٤- أن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فخفت موازين حسناته ومات على الكفر أو الشرك فهو من أصحاب النار الخالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٥- أن من كسب سيئة ولم تحط به خطيئته فإنه ليس من أصحاب النار، وهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه بسيئاته، وإن شاء عفا عنه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الآية، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨- ١١٦].

٣٦- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن من آمن وعمل صالحًا فهو من أصحاب الجنة الخالدين فيها، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. نسأل الله من فضله.

٣٨- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد الإيمان.

٣٩- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا، لهذا حذف الموصوف فلم يقل: «وعمل عملًا صالحًا» واكتفى بالصفة وهي قوله: «صالحًا» بل ذلك شرط لقبول العمل، وهو أن يكون صالحا: خالصا لله ﷻ، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٤٠- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا بإجماع المسلمين.

٤١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب بذكر أصحاب النار ثم ذكر أصحاب الجنة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: واذكروا حين أخذنا في التوراة ميثاق بني إسرائيل آبائكم وسلفكم أي: حين أخذنا عهدهم المؤكد.

وتكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»[(١)].

وفي الإظهار في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بدل الإضمار حيث لم يقل: «وإذا أخذنا ميثاقكم» إشارة إلى الرابط بين السابق منهم واللاحق نسبًا ودينًا، وأن العهد على السابقين منهم عهد على اللاحقين.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

هذا بيان وتفصيل للميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل وتحته ثمان وصايا، وهي: إخلاص العبادة لله، والإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى ذي القربى،

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

والإحسان إلى اليتامى، والإحسان إلى المساكين، وأن يقولوا للناس حسنًا، وأن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، وبهذا أمر الله ﷻ وأوصى جميع خلقه.

قوله: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء «لا يعبدون»، وقرأ الباقون بالتاء: «لا تعبدون» أي: لا تعبدون سوى الله، أي: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا.

وبهذا أرسل الله جميع الرسل، وبه أمر جميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا هو أول الحقوق وأعلاها، وأعظمها وأبينها حق الله ﷻ، وهو توحيده وعبادته وحده لا شريك له، والذي لا تقبل الأعمال بدونه، وضده الشرك الذي هو أعظم الذنوب وأظلم الظلم.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ بعد أن ذكر حقه ﷻ الذي هو أعظم الحقوق- ذكر حقوق خلقه، وبدأها بحق الوالدين الذي هو من أعظم وآكد الحقوق، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، والإحسان نهاية البر، وذلك بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة: قولًا وفعلًا وبذلًا، وغير ذلك، وهذا يتضمن النهي عن الإساءة إليهما من باب أولى.

و«الوالدين» هما الأب والأم، أما الأم فهي الوالدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأما الأب فسمي والدًا من باب التغليب؛ لأن الولد منه ومن الوالدة(١).

ويدخل في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ الأجداد والجدات، لكن كلما كان الوالد أقرب كان حقه أعظم وأوجب.

وقد قرن الله ﷻ حق الوالدين بحقه في هذه الآية، وفي مواضع كثيرة في القرآن الكريم؛ لعظيم حقهما، وسيأتي بسط الكلام في ذلك في سورة النساء في الكلام على قوله

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٧٤).

تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الآية: ٣٦]. وفي سورة الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الآية: ٢٣].

﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا بذي القربى واليتامى والمساكين، إحسانًا بالقول والفعل والبذل، وكف الأذى.

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾: صاحب القرابة، وعطفه على «الوالدين» من عطف العام على الخاص؛ لأن الوالدين أقرب القرابة، وأعظمهم حقًا، وكلما كان الشخص أقرب، فحقهُ أعظم وأوجب.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم أو يتيمة، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»[1]، مأخوذ من «اليتم» وهو الانفراد، ومنه سميت «الدرة اليتيمة». أي: وأحسنوا باليتامى، بالعطف عليهم وتوجيههم ومساعدتهم وحفظ أموالهم، والدفاع عنهم وأداء حقوقهم.

وقد أوصى الله ﷻ باليتامى، وأكد على وجوب رعايتهم والعناية بهم لشدة حاجتهم إلى من يعولهم وينفق عليهم ويربيهم، ويدافع عنهم ويحفظ أموالهم وحقوقهم، ولاسيما عندما تطغى الأنانية وحب الذات، ويشتد الجشع والطمع وتضيع حتى حقوق كثير من الأقوياء فكيف باليتيم الذي لا حول له ولا طول إلا برحمة أرحم الراحمين.

و﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: جمع مسكين وهو الفقير، المعدم، أو الذي لا يجد كفايته، سموا مساكين أخذًا من السكون وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم؛ أي: وأحسنوا بالمساكين بمساعدتهم والعطف عليهم ونحو ذلك. وسيأتي بسط الكلام بأوسع من هذا على حقوق اليتامى والمساكين في مطلع سورة النساء.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قرأ حمزة الكسائي ويعقوب وخلف بفتح الحاء والسين «حَسَنًا»، وقرأ الباقون بضم الحاء وإسكان السين ﴿حُسْنًا﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٣) من حديث علي رضي الله عنه.

بعد أن أمر بالإحسان المطلق إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وذلك يشمل نوعي الإحسان القولي والفعلي، أمر بالإحسان القولي لجميع الناس حيث أنه مستطاع لكل أحد، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يسع الناس بماله فلا يعدم الإحسان بقوله الطيب الحسن وخلقه الحسن، وفي الحديث: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسن الخُلق**»[1].

قال المتنبي[2]:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليُسعد النُّطق إن لم يُسعد الحال

أي: وقولوا للناس قولًا حسنًا طيبًا لينًا، ويدخل في ذلك دعوتهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويدخل فيه أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وكل كلام طيب، والبعد عن الكلام القبيح والفاحش والبذي مع الناس، حتى مع الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وفي الحديث: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[3]، وقال ﷺ: «**إن الله لا يحب الفاحش أو يبغض الفاحش والمتفحش**»[4].

وفي الحديث: «**لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»[5].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: وأقيموا الصلاة إقامة تامة فرضها ونفلها بشروطها

---

(١) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيما ذكره ابن حجر في شرحه لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا» في كتاب الأدب (٦٠٣٥)، وقال ابن حجر عن حديث أبي هريرة: «بسند حسن».

(٢) انظر: «ديوانه» بشرح العكبري ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجهد والسير (٢٨٩١)،ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٥)- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٨) وقال «حديث حسن غريب».

وأركانها وواجباتها وسننها.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها.

وفيه دلالة على فرض الصلاة والزكاة على بني إسرائيل ممن كان قبلنا، وخص الصلاة والزكاة لمكانتهما من العبادة والإحسان، وكونهما من أعظم ما يعين على ذلك، ففي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ الخطاب لبني إسرائيل جميعًا بتغليب أخلافهم على أسلافهم، أو للمعاصرين منهم، فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف، كما أنه تعميم للتولي بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ[1].

و«التولي» يكون بالبدن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ بقوا على العهد والميثاق.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم معرضون، والإعراض يكون بالقلب، فجمعوا بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب، والمعرض بقلبه- في الغالب- لا أمل في رجوعه؛ قد سد أذنيه خوفًا من سماع الحق، فلا فائدة فيه.

والمعنى: ثم توليتم بأبدانكم حال كونكم معرضين بقلوبكم عن العمل بما أمرتم به في هذا الميثاق الذي أخذ عليكم، من إخلاص العبادة لله تعالى، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وقول الحسنى للناس، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا ميثاقكم، أي: عهدكم المؤكد.

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ بيان وتفصيل للميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا، وهو أنه أخذ عليهم الميثاق في التوراة بأمرين: أن لا يسفكوا

(١) انظر «روح المعاني» (١/ ٣٠٩).

دماءهم، وأن لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم.

قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا تريقون دماءكم،وسفك الدم سفحه وصبه وإراقته بالقتل.

والمعنى: لا يرق بعضكم دماء بعض، بقتل بعضكم بعضًا؛ لأن قتل الواحد لأخيه بمثابة قتله لنفسه من أهل الملة الواحدة.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أي: ولا يخرج بعضكم بعضًا من دياركم؛ لأن إخراج الواحد من أهل الملة الواحدة لأخيه بمثابة إخراجه لنفسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»[1].

والإخراج من الوطن الذي ولد فيه الإنسان ونشأ وترعرع على ترابه وأرضه ليس بالأمر الهين على النفس، بل قد يكون أشد عليها وأشق من القتل؛ ولهذا وقف صلوات الله وسلامه عليهم على «الحزْوَرَة[2]» مخاطبًا بلده مكة قائلًا: «**والله إنك لخير أرض، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[3].

وقال الشاعر:

ولي وطـــن آليــت ألا أبيعــه ... ولا أرى غـيري لــه الــدهر مالكــا

عمــرت بــه شرخ الشـباب مُـنَعَّما ... بصُــحبة قــوم أصــبحوا في ظلالــك

وحبــب أوطــان الرجــال إلــيهمُ ... مــآرب قضّــاها الشــباب هنالــك

إذا ذكــروا أوطــانهم ذكّــرتهمُ ... عهــود الصــبا فيهــا فحنّــوا لــذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) «الحزْوَرَة»- على وزن «قسْوَرَة»-: موضع في مكة. انظر: «النهاية» مادة «حزر».

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة (٣٩٢٥)- من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

فقد ألفته النفس حتى كأنه ... لها جسد إن بان غودر هالكا[1]

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي: ثم أقررتم بهذا الميثاق، واعترفتم به، وبقيتم عليه، والتزمتم به ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الجملة حالية، أي:والحال أنكم تشهدون عليه، أي: تشهدون على صحة هذا الميثاق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، و﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى؛ أي: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: خبر المبتدأ، والخطاب لليهود الموجودين وقت نزول القرآن؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك ورضوا به، أي: ثم أنتم يا هؤلاء تنقضون العهد.

و﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضًا.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: وتضطرون وتلجئون طائفة منكم إلى الخروج والجلاء من ديارهم، وفي هذا توبيخ لهم على نقض العهد.

قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثة قبائل: بنو قينقاع، وبنوا النضير، حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه في دينه ونص كتابه ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» ٥/ ١٨٢٦.

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٧٣).

وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍ﴾.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء «تظاهرون»، وقرأ الباقون بتشديد الظاء «تظَّاهرون»، وأصلها تتظاهرون، أبدلت التاء الثانية ظاءً ثم أدغمت بالظاء الأصلية.

وعبر بالمضارع في قوله: ﴿تَقۡتُلُونَ﴾ ﴿وَتُخۡرِجُونَ﴾ و﴿تَظَٰهَرُونَ﴾للدلالة على الاستمرار، وأن ذلك من شأنكم.

ومعنى ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾ التظاهر معناه التعالي، أي: تتعالون عليهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٨] أي: علا أمر الله، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف ٩] أي: ليعليه.

ويأتي التظاهر بمعنى التعاون، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وعلى هذا فيكون معنى ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي: تتعاونون عليهم. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فهم يتعالون على من يقتلون ويخرجون من ديارهم ويتعاونون عليهم ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ «الإثم»: الذنب والمعصية، وما يؤثم، و«العدوان»: الاعتداء على الغير بغير حق.

والعدوان أخص من «الإثم»، فكل عدوان إثم، وليس كل إثم عدوانًا، اللهم إلا في حق النفس، فإن الآثام كلها عدوان على النفس وظلم لها؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه نجاتها وسلامتها في الدين والدنيا والآخرة، ويحرم عليها أن يعرضها للعطب والهلاك والعذاب.

واليهود في قتل وإخراج بعضهم لبعض قد جمعوا بين الأمرين: الإثم والعدوان؛ لأن القتل والإخراج للغير إثم واعتداء.

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ الواو: يجوز أن تكون عاطفة، ويكون هذا من جملة ما وبخوا عليه من نقض العهد، ويجوز أن تكون واو الحال، والجملة حال من قوله: ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا﴾ أي: والحال أنهم إن ﴿يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ قرأ حمزة:

«أَسْرَى تَفْدُوهم»، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وخلف: «أَسَارَى تَفْدُوهم»، وقرأ الباقون: ﴿أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾.

أي: وإن يجيئوا إليكم ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ ، أي: حال كونهم أسارى، والأسارى جمع «أسير» يقال في جمعه: «أسرى» وجمع الجمع منه «أسارى»، والأسير الذي أخذه عدوه واستولى عليه، وهو «فعيل» بمعنى «مفعول»؛ أي: مأسور؛ لأنه في الغالب يؤسر ويربط ويوثق مخافة أن يهرب، والإسار هو السَّير من الجلد الذي يوثق به المسجون والموثوق.

﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وعاصم والكسائي ويعقوب: ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ بضم التاء وألف بعد الفاء. وقرأ الباقون بفتح التاء وسكون الفاء من غير ألف: «تَفْدوهم»، ومعنى ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ أي: تفكوهم وتخلصوهم من الأسر بفدية تدفعونها لمن أسرهم مقابل فكه وتخليصه لهم.

والمعنى: ثم أنتم هؤلاء تقتلون بعضكم وتخرجون طائفة منكم من ديارهم، تتعالون وتتعاونون عليهم بالإثم والعدوان، والحال أنهم إن يأتوكم حال كونهم أسارى تفادوهم، أي: تخلصوهم من الأسر.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه محرم عليكم إخراجهم في كتابكم، ولم يقل: «وهو محرم عليكم قتلهم وإخراجهم» مع أن كلاً من القتل والإخراج محرم عليهم، وذلك- والله أعلم- لأن الإخراج هو سبب الأسر، وعليه يكون المعنى: كيف تخرجونهم وتتسببون في أسرهم ثم تفادونهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتهديد.

أي: أفتصدقون ببعض الكتاب- يعني التوراة- وتعملون به، كما في فداء الأسارى، وتكفرون ببعضه كما في كفركم في نهيكم فيه عن سفك دمائكم وإخراج فريق منكم من ديارهم؟ فهذا تناقض منكم؛ لأن الأخذ والإيمان ببعض الكتاب يوجب الأخذ والإيمان بجميعه، كما أن الكفر ببعض الكتاب كفر بجميعه، بل إن الإيمان يوجب الإيمان بجميع الشرائع والكتب والرسل، والكفر ببعضها كفر

بجميعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وكما قال تعالى في وصف الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: نافية، و«الجزاء» يطلق على العقاب، ويطلق على الثواب، والمراد به هنا العقاب، و«من»: موصولة، أي: فما عقاب أو عقوبة الذي يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، وفي التعبير بالمضارع «يفعل» دلالة على استمرارهم على هذا الفعل.

والإشارة تعود إلى ما أنكر عليهم قبل هذا من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، أو إليه وإلى ما قبله من قتل وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم والتظاهر عليهم بالإثم والعدوان.

﴿مِنكُمْ﴾: الخطاب لبني إسرائيل.

﴿إِلَّا خِزْىٌ﴾ «إلا»: أداة حصر، والخزي: الفضيحة والذل والهوان والصغار، أي: فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا الفضيحة والذل والهوان والصغار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس لهم جزاء إلا ذلك، وقد حصل لهم ذلك فأخزاهم الله وسلط رسوله ﷺ عليهم فأجلى بني النضير عن ديارهم، وقتل بني قريظة، وسبى من سبى منهم وكتب الله عليهم الذل بين الأمم أين ما كانوا بسبب كفرهم وعتوهم.

والحياة الدنيا هي هذه الحياة التي نحن فيها، سميت دنيا من الدنو والقرب؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا، ومن الدناءة والحقارة؛ لأنها لا قيمة لها، ولا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(١).

ونام ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه قال عبد الله بن مسعود ﷺ: فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(٢).

و«يوم القيامة»: يوم البعث والمعاد والحساب الجزاء على الأعمال.

وسمي هذا اليوم يوم القيامة، لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [يس: ٥١].

ولقيامهم بين يدي الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٤٠] أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ.

ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الملائكة والروح فيه صفًا لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يُرَدُّونَ﴾ أي: يرجعون من خزي الدنيا وهوانها وذلها.

﴿إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي: إلى أعظم العذاب، من حيث كمه وكيفه ومدته، وغير ذلك؛ لنقضهم الميثاق، وكفرهم بالله، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، ابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوبكر ويعقوب وخلف «يعملون» بياء الغيبة، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾.

وقد سبق الكلام على هذه الآية، وفيها تأكيد للوعيد السابق وتخويف وتهديد.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لليهود الذين نقضوا الميثاق، وقتل وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: اختاروا الحياة الدنيا على الآخرة، فبذلوا الآخرة ثمنًا للحياة الدنيا، رغبة في الدنيا وزهدًا في الآخرة، ومن ذلك عونهم حلفاءهم من المشركين على قتل وإخراج بعضهم.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: فلا يُهوَّن عنهم العذاب، لا من حيث وقته، بأن يرفع عنهم بعض الوقت، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

ولا يخفف عنهم العذاب من حيث عظمته وشدته بأن يُهوَّن عليهم من شدته، بل هو عذاب أليم عظيم شديد دائم مستمر مقيم، كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد ينصرهم فيمنع عنهم العذاب وينقذهم منه ويدفعه عنهم؛ لا بقوته، ولا بشفاعته ولا غير ذلك، فهم آيسون من تخفيف العذاب، ومن نصرتهم وإنقاذهم منه.

وما توعد الله به بني إسرائيل من الخزي والعذاب على ما ارتكبوه من القتل وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم والتظاهر عليهم بالإثم والعدوان، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، واختيار الحياة الدنيا على الآخرة فيه تحذير لهذه الأمة من

ارتكاب ما ارتكبه بنو إسرائيل، وسلوك طريقهم؛ لأن من فعل ذلك فمصيره مصيرهم.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بما أخذه الله ﷻ من ميثاق على بني إسرائيل في التوراة بألا يعبدوا غير الله، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، ويقولوا للناس حسنًا، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية.

٢- أن أول وأعظم واجب على الخلق هو عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وبالأمر بهذا جاءت جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٣- شدة خطر الشرك والتحذير منه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٤- وجوب الإحسان إلى الوالدين بأداء حقوقهما الواجبة والمستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى والإساءة عنهما لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٥- وجوب الإحسان إلى القرابة بأنواع الإحسان من الصلة والزيارة لهم والمساعدة والنصح لهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

٦- عظم حق الوالدين وفضلهما على سائر القرابة؛ لأن الله قدمهم وخصهم بالذكر من بين القرابة.

٧- وجوب الإحسان إلى اليتامى بالعطف عليهم، وتوجيههم، وحفظ أموالهم، ومساعدتهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٨- وجوب الإحسان إلى المساكين بمساعدتهم والعطف عليهم ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

٩- وجوب القول الحسن للناس، وذلك يشمل دعوتهم إلى الإيمان، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، بالتي هي أحسن، وغير ذلك من الكلام الطيب لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ومفهوم هذا النهي عن القول السيئ للناس.

١٠- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١١- اتفاق الشرائع السماوية على أصول الأديان من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والأمر بالإحسان إلى الخلق، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

١٢- أن الصلاة والزكاة مما شرع على من كان قبلنا لكن لا يلزم موافقة صفة ذلك لما جاء عندنا.

١٣- تولي بني إسرائيل وإعراضهم عن العمل بما أخذه الله عليهم في التوراة من ميثاق إلا قليلًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٤- أن من جمع بين التولي والإعراض فلا أمل في رجوعه، بخلاف من تولى ببدنه ولم يعرض بقلبه فإنه قد يرجع.

١٥- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس، فالأكثرون ليسوا على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

١٦- تذكير بني إسرائيل بما أخذ الله عليهم من ميثاق، بأن لا يسفك بعضهم دماء بعض، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ ؟؟.

١٧- إقرار بني إسرائيل بهذا الميثاق وشهادتهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

١٨- نقض بني إسرائيل العهد، وقتل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم، وتظاهرهم على بعض بالإثم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

١٩- أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فمن يقتل غيره أو يخرجه فكأنه فعل ذلك في نفسه، وفي هذا تنفير من ارتكاب ذلك.

٢٠- حرمة القتل وإخراج الناس من ديارهم بغير حق، والتعالي عليهم، وأن ذلك من

الإثم والعدوان.

٢١- مفاداة بني إسرائيل لمن جاءهم أسيرًا أخذًا بما جاءهم في التوراة في حين أنهم يقتل ويخرج بعضهم بعضًا مخالفين لما أخذ عليهم فيها من الميثاق، فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

٢٢- الوعيد لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٣- وجوب الإيمان بجميع الكتاب، فإن من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه فليس بمؤمن.

٢٤- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

٢٥- كمال علم الله ﷻ، وإطلاعه على أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٦- التهديد لمن نقضوا الميثاق وخالفوا أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٧- تحقير الذين اشتروا الحياة الدنيا واعتاضوا بها عن الآخرة؛ من اليهود وغيرهم، وذمهم؛لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٢٨- حقارة الحياة الدنيا وأنها ليست بشيء بالنسبة للآخرة؛ لهذا سميت «دنيا».

٢٩- شدة عذاب المذكورين وخلودهم فيه، بلا ناصر ينصرهم ويدفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٣٠- لا ناصر لمن حاد الله وخالف أمره يدفع عنه عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

في هذه الآية امتنان من الله ﷻ على بني إسرائيل في إيتاء موسى التوراة وإتباعه بالرسل الذين يحكمون بها إلى أن ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها بيان أن بني إسرائيل كما قابلوا موسى عليه السلام بالعصيان والتعنت والاستكبار والتكذيب كذلك كانت حالهم مع بقية رسلهم إلى آخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فدأبوا على مخالفة الحق ورده، والإعراض عنه، هذا ديدنهم مع جميع الرسل.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الواو: استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، أي: والله لقد آتينا موسى الكتاب، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و«قد»، وذلك لأهمية الخبر.

وموسى هو نبي الله: موسى بن عمران عليه السلام، أي: أنزلنا على موسى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، أنزله الله عليه جملة واحدة بألواح، وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: أتبعنا من بعده بالرسل من بني إسرائيل الذين يحكمون بشريعته، أي: جعلناهم يقفونه، أي: يأتون بعده، أي: بعد موته، كما قال

تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

فموسى عليه الصلاة والسلام أول أنبياء بني إسرائيل، وأفضلهم، وكل من جاء بعده من الرسل هم من بني إسرائيل، ويحكمون بشريعته؛ وآخرهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. أي: وأعطينا عيسى ابن مريم البينات، أي: الآيات والمعجزات البينات، وفي هذا إثبات رسالة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

وحذف الموصوف «الآيات» واكتفى بالصفة وهي «البينات»؛ لأن المهم في الآيات أن تكون بينات، أي: واضحات ظاهرات الدلالة على صدق من جاء بها وصحة ما جاء به.

والمعنى: وآتينا عيسى ابن مريم الآيات البينات الواضحات الدالة على صدقه وصحة رسالته: الآيات الشرعية، وهي الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠].

والآيات الكونية: من كونه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، ويخبر بني إسرائيل مما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي خلق عيسى عليه السلام آية؛ لأن الله خلقه من أنثى بلا ذكر، وهي مريم ابنة عمران من سبط يهوذا، وذلك آية من آيات الله القدرية الكونية؛

ولهذا يذكر عيسى عليه السلام غالبا في القرآن الكريم منسوبًا إلى أمه؛ للتذكير بعظيم قدرة الله تعالى حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، بينما لا يذكر نسب غيره من الأنبياء حتى ولا لآبائهم.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [الآية ١١٠ المائدة] ومعنى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أي: وقويناه وشددنا عضده ونصرناه، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] وقال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ روح القدس: جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**»[1].

وفي رواية: «**اللهم أيده بروح القدس**»[2].

كما يسمى جبريل عليه السلام بـ«الروح» قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وعلى هذا فـ«روح القدس» من إضافة الموصوف إلى صفته، فالروح هو جبريل، و«القدس»: الطهر، أي: وأيدنا عيسى- عليه الصلاة والسلام- بروح القدس والطهر جبريل- عليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقيل المراد بـ«روح القدس» الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥)، والنسائي في المساجد (٧١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يؤيد الله به عباده.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتعجب، والفاء عاطفة، و«كلما»: ظرفية حينية متضمنة معنى الشرط، تفيد التكرار، أي: هذا ديدنكم وعادتكم. ﴿جَاءَكُمْ﴾: فعل الشرط، أي: أفلكما جاءكم رسول من الله.

﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي لا تحبه ولا تميل إليه أنفسكم، أي: بما يخالف هوى أنفسكم؛ ولهذا اشتد تكذيب بني إسرائيل لعيسى ابن مريم ﷺ، وعنادهم له لمخالفته التوراة في بعض الأحكام، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فهم لا يقبلون من الشرع إلا ما وافق أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾: جواب الشرط، ويدل ترتيب الجواب على الشرط هنا على مبادرتهم بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، دون تروٍ أو تأنٍ، أو تأملٍ فيما جاؤوا به.

و﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أبلغ من «تكبرتم»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

والمعنى: استكبرتم عن الإيمان، وعن قبول الحق والطاعة والانقياد للرسل واتباعهم؛ تكبرًا وترفعًا منكم، وإعجابًا بأنفسكم، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقال ﷺ: «**الكبر بَطَر الحق، وغمط الناس**»[1] أي: رد الحق واحتقار الناس وتنقصهم، فكل من استكبر عن اتباع الحق بعد معرفته ففيه شبه من إبليس ومن اليهود.

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة للسببية أو للتفصيل، و«فريقًا»: مفعول مقدم «لكذبتم» أي: ففريقًا من الرسل كذبتم، أي: كذبتموهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ الواو: عاطفة، «فريقًا»: مفعول مقدم لـ«تقتلون» أي: فريقًا من الرسل تقتلون، أي: تقتلونهم، وقدم المفعول في الموضعين للحصر، ومراعاة الفواصل.

والفريق: الطائفة والجماعة، وعبر بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لاستحضار الصورة وبشاعتها؛ والإشارة إلى استمرارهم على قتل الرسل، حتى أنهم هموا بقتل آخر رسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام، فرفعه الله إليه، وأشاعوا بأنهم قتلوه، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، كما هموا بقتل محمد ﷺ وسَمُّوه[١].

إضافة إلى ما في التعبير في المضارع من مراعاة فواصل الآي فحصر موقفهم من رسل الله بأحد أمرين: إما التكذيب، وإما القتل الذي سببه غالبًا التكذيب، وبهذا انتفى عنهم الأمر الثالث، وهو: الإيمان والطاعة، فكان ديدنهم وعادتهم المبادرة إلى الاستكبار، فلا يقبلون من الشرع إلا ما وافق أهواء أنفسهم، مع التكذيب للرسل وقتلهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ هذا كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية: ١٥٥].

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: وقال بنو إسرائيل اعتذارًا وتعليلًا لردهم ما جاء به الرسول ﷺ وتهكمًا به، وقطعًا لطمعه في إسلامهم.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «غلُف» بضم اللام، وقرأ الباقون: ﴿غُلْفٌ﴾ بإسكانها، و«غلف»: جمع «أغلف» وهو الذي عليه غلاف، أي: غطاء شديد يمنع من وصول الشيء إليه، أي: قلوبنا مغلَّفة، أي: عليها أغلفة وأغطية، فلا تعي ولا تفقه، ولا تعلم ما تقول يا محمد، وهذا كقولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقد أبطل الله حجتهم هذه فقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل أبعدهم الله وطردهم عن رحمته وعن الخير وحرمهم التوفيق والتبصر في آيات الله، ودلائل صدق الرسول ﷺ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم» وقد سبق تخريجه.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم، وعدم إيمانهم، وأطلق «كفرهم»؛ لأنهم كفروا بكل ما أوجب الله الإيمان به، حتى ولو ادعوا الإيمان ببعض ذلك، فإن ذلك لا ينفعهم، وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]

أي: ليست قلوبهم غلف كما يزعمون، لا تفقه ولا تعي؛ لأن القلوب بفطرتها تقبل الحق، وليست غلفًا، بل لعنهم وأبعدهم عن الخير وعن توفيقه بسبب كفرهم.

قال ابن القيم[1]: «والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفًا، لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهون، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها».

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: فقليلًا إيمانهم.

والمراد بالقلة- والله أعلم- العدم؛ لقوله قبل هذا: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كما يقال: «قلما رأيت مثل هذا قط»، تريد: ما رأيت مثل هذا قط.

فحصرهم بأحد هذين الأمرين: التكذيب، أو القتل للأنبياء، دون الإيمان.

وقد تحمل القلة هنا على ظاهرها بأن منهم من يؤمن ولكنهم قلة، وإيمانهم قليل. أي: فقليلًا المؤمن منهم، أو فقليلًا إيمانهم، بالنسبة لما كفروا به مما جاء به محمد ﷺ، ومما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآيتين السابقتين استكبار بني إسرائيل عن اتباع ما جاءهم من الحق

---

(١) انظر: «بدائع التفسير (١/ ٣٢٥).

على لسان موسى عليه السلام والأنبياء بعده إلى عيسى عليه السلام وتكذيبهم وقتلهم لهم، ثم أتبع ذلك بذكر كفرهم بالقرآن الكريم؛ مكابرة منهم وبغيًا وحسدًا، وتكذيبهم لمحمد ﷺ- كما هو ديدنهم مع أنبيائهم.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلاَّم بن مِشْكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: ولما جاء اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم، الذي نزل على محمد ﷺ. ونكر «كتاب» للتعظيم، أي: ولما جاءهم كتاب من الله، أي: جاءهم كتابه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٢٩].

فهو من عند الله، وهو من الله، وهو كتاب الله، وفي ذلك كله تعظيم له، وتأكيد أنه كلامه عز وجل.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: مصدق للذي معهم من التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل المنزلة عليهم أي: مبيِّن لصدقها، وأنها حق من عند الله، وهذا يدل على فضل القرآن الكريم على جميع الكتب السماوية؛ لأنه المصدق لها والحاكم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٨).

وأيضًا: هو مصداق الذي أخبرت وبشرت به التوراة والإنجيل، إذ جاء مطابقًا لما أخبرت وبشرت به؛ لأن التوراة والإنجيل أخبرتا بنعته ﷺ ونزول القرآن عليه كما قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ الجملة حالية، فائدتها استحضار حالتهم العجيبة وتناقضهم أي: والحال أنهم، أي: اليهود من قبل مجيء القرآن الكريم وبعثته ﷺ ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الاستفتاح ظاهره طلب الفتح، أي: النصر، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومعنى قوله: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أن اليهود من قبل بعثته ﷺ في قتالهم مشركي العرب من الأوس والخزرج وغيرهم يستنصرون عليهم بسؤالهم الله أن يبعث الرسول الموعود به في التوراة، ويقولون: سيبعث نبي وينزل عليه كتاب، وسنتبعه وسيكون لنا الفتح والنصر عليكم؛ لأنهم يعرفون أن هذا النبي ستكون له الغلبة.

قال ابن كثير[1]: «وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم».

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: شرطية، و«ما»: موصولة، أي: فلما جاء هم الذي عرفوا، وهو القرآن المصدق لما معهم، والرسول الذي كانوا يستفتحون به، ورأوا أنه من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: كذبوا به وجحدوه، وأنكروا رسالته ﷺ، وكذبوا ما جاء به

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٧٨).

من الوحي من عند الله؛ بغيًا منهم وحسدًا للعرب، وقد نهاهم الله ﷻ عن ذلك بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

قال ابن القيم[1]: «فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به، وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقًا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة».

فكان قيام الحجة عليهم أشد من وجهين: الأول: كون القرآن مصدقًا لما معهم من كتب الله، والثاني: كونهم من قبل يستفتحون على الذين كفروا ببعثته ﷺ ومعرفتهم له.

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: فحقت لعنة الله ووجبت على الكافرين، وهي طردهم وإبعادهم عن رحمته.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «عليهم» تأكيدًا لوصفهم بالكفر، وبيان أنه سبب لعنة الله لهم، وبيان استحقاق جميع الكافرين للعنة الله ووجوبها عليهم مع مراعاة الفواصل.

وعلى هذا فيجوز لعن الكافرين ونحوهم على وجه العموم كما لعنهم الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩٠﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة كفر اليهود بالقرآن الكريم ومن جاء به، واستحقاقهم لعنة الله، ثم أتبع ذلك بذم مسلكهم وتقبيحه، وما اختاروه لأنفسهم من الكفر بما أنزل الله بغيًا منهم وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وما باءوا به من

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٢٥).

الغضب والعذاب المهين.

قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ «بئس»: فعل ماض جامد يفيد الذم، و«ما»: نكرة موصوفة في محل نصب تمييز للضمير المستتر في «بئس»، أي: بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم، أو موصولة : أي: بئس الذي اشتروا به أنفسهم.

والاشتراء يحتمل أن يكون على بابه، أي: بئس ما اشتروا وابتاعوا به أنفسهم، ويحتمل أن يكون ﴿اشْتَرَوْا﴾ بمعنى «باعوا» أي: بئس ما باعوا به أنفسهم.

والمعنى: قبح وساء الشيء الذي اشتروا به أنفسهم، واختاروه، وهو الكفر بدل الإيمان.

﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر تقديره: كفرهم، وهو المخصوص بالذم، وهو في محل رفع مبتدأ مؤخر، وخبره جملة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي أنزله الله- أي: بالقرآن الكريم، فهو منزل من عند الله ﷻ وهو كلامه وصفة من صفاته- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ «بغيا»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، والبغي في الأصل: العدوان والظلم، والمراد به هنا- والله أعلم- العدوان المشرب بالحسد، أي: بغيًا وعدوانًا بسبب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال الشاعر:

وأظلم خلق الله من بات حاسدًا لمن بات في نعمائه يتقلب[(١)]

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص١٨٥.

و«أن» في قوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ سببية. والفضل: زيادة العطاء والخير، والمراد بقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إنزال الوحي والقرآن الكريم الذي به حياة القلوب والأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والمشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: على الذي يشاء من عباده من الرسل وأممهم بحكمته وفضله، والمراد هنا محمد ﷺ وأمته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢- ٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: أن جعله الله من غيرهم»(١).

فحملهم البغي والحسد على رد الحق وهم يعرفونه، لا لشيء إلا أن الذي بعث به هو محمد ﷺ النبي العربي الهاشمي، وكانوا يظنون أنه سيبعث النبي من بني إسرائيل، وهذا من أعظم الكبر أن يرد الحق؛ لأنه جاء به فلان من الناس بغيًا وحسدًا، قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٢) أي: رد الحق وانتقاص الناس.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: فرجعوا وعادوا، يقال: باء بكذا، أي: رجع بأمر غير حميد، كما يقال: باء بالفشل.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٩).
(٢) سبق تخريجه.

والباء في قوله ﴿بِغَضَبٍ﴾ للمصاحبة، أي: مصطحبين غضبًا على غضب، أي: بغضب من الله عليهم فوق غضب، غضب متراكم مضاعف عظيم؛ ولهذا نكَّره في الموضعين، غضب لا حق على غضب سابق بسبب تراكم موجباته من الذنوب، من كفرهم بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه مصدقًا لما معهم؛ بغيًا منهم وحسدًا، وكفرهم بما أنزل عليهم، وتكذيبهم لأنبيائهم وقتلهم لهم، واستكبارهم عن اتباع الحق، وتحريفهم كلام الله، وعبادتهم العجل، وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «**فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما ضيعوا من التوراة وهي معهم؛ وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم**»[1] ولهذا استحقوا وصفهم بالمغضوب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وغير ذلك.

وفي الآية إثبات صفة الغضب لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة، وهو سبب العقوبة والانتقام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: وللكافرين المكذبين لله ورسله وكتبه الجاحدين لشرعه عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم، بسبب بغيهم وحسدهم، وبسبب استكبارهم، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

عذاب مهين في الدنيا معنوي ينصب على القلوب من الحيرة والقلق وفقدان الطمأنينة والسعادة، وعذاب حسي بما يصيبهم من المصائب الدنيوية ومن القتل والجراح ونحو ذلك على أيدي المؤمنين.

وعذاب مهين في الآخرة، عذاب معنوي ينصب على القلوب من التبكيت والتقريع والتيئيس من الخروج من النار ونحو ذلك، وعذاب حسي من اصطلاء النار

(١) أخرجه ابن إسحاق، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٩).

ومعاناة حرها وحميمها وزمهريرها وغير ذلك.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: «ولهم»؛ لبيان كفرهم، وسبب تعذيبهم، وأنه الكفر، وتأكيد ذلك، وأن ذلك عام لهم ولغيرهم من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإذا قيل لليهود، وأبهم القائل لبيان أن هذا موقفهم من كل من قال لهم هذا القول سواء كان الرسول ﷺ أو غيره.

﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ بقلوبكم وانقادوا له واتبعوه بجوارحكم.

﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قال اليهود إجابة على أمرهم بالإيمان بالقرآن.

﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ «ما»: موصولة في الموضعين، أي: نؤمن ونصدق بالذي أنزل علينا، وهو التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

وفي التعبير بالمضارع في قوله: ﴿نُؤْمِنُ﴾ دلالة على الاستمرار، أي: ندوم على الإيمان بما أنزل علينا ويكفينا ذلك.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ تصريح بما عرضوا به من قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: ولا نؤمن بغيره، أي: ويكفرون بالذي وراءه، أي: بالذي سوى التوراة من الكتب وخصوصًا القرآن، وجاء التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك.

وهم متناقضون في هذا؛ لأن إيمانهم بما أنزل عليهم- إن كانوا صادقين- يوجب عليهم الإيمان بكل ما أنزله الله، وهو الإيمان النافع المقبول أما الإيمان ببعض الكتب والرسل دون بعض فليس بإيمان، بل هو عين الكفر، كما أن الكفر ببعض الكتب والرسل كفر بجميع ذلك، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواو: حالية، والضمير «هو» يعود إلى، «ما» في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: والحال أن القرآن هو الحق الثابت، وكان الواجب عليهم الإيمان به واتباعه؛ لأن الحق أحق أن يتبع، فإذا كانوا يؤمنون بما أنزل عليهم لأنه حق، وجب أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ لأنه حق.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: حال كونه مصدقًا لما معهم من التوراة، أي: مخبرًا بصدقها، ومصداق ما أخبرت به، وهم يعلمون أنه الحق من ربهم مصدق لما معهم، وبذلك قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

فوجب عليهم الإيمان به من وجهين، الأول: كونه الحق الثابت، والثاني: كونه مصدقا لما معهم، فالكفر به وتكذيبه كفر وتكذيب بما معهم.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا تكذيب لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ والخطاب في: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

﴿فَلِمَ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط، واللام حرف جر، و«ما»: اسم استفهام حذفت ألفها تخفيفًا بسبب الجر، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والتعبير بالمضارع «تقتلون» لاستحضار الحالة الفظيعة.

أي: قل لهم: فلم تقتلون أنبياء الله الذين بعثوا فيكم من قبل بعثة محمد ﷺ، والذين جاؤوكم بتصديق التوراة، والحكم بها إن كنتم مؤمنين بما أنزل إليكم، صادقين في قولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: لو كنتم صادقين في ذلك ما قتلتم أنبياء الله المبعوثين فيكم، فقتلكم لأنبياء الله من قبل دليل على عدم إيمانكم بما أنزل عليكم، كما أن كفركم بما أنزل الله على محمد ﷺ وهو القرآن دليل آخر على عدم إيمانكم بما أنزل عليكم؛ لأنكم لو آمنتم بما أنزل عليكم حقًّا ما قتلتم الأنبياء، ولآمنتم بما أنزل على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

ﭐلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الآية: ١٥٧ الأعراف]. ومحصلة هذا أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم ولا بما أنزل على محمد ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى- عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- تعظيم التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتاب العظيم؛ لأن التوراة أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

٣- أن من جاء بعد موسى عليه السلام من الرسل تبع له، يحكمون بشريعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾.

٤- إثبات رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه آخر رسل بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فأعطاه الله عز وجل الآيات البينات الشرعية، في الإنجيل، والآيات البينات الكونية، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك.

٥- إثبات تمام قدرة الله عز وجل في خلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فنسب عليه السلام إلى أمه للتنبيه على قدرة الله عز وجل في خلقه من أنثى بلا ذكر.

٦- أن من لا أب له ينسب شرعًا إلى أمه؛ لأن الله عز وجل نسب عيسى عليه السلام إلى أمه.

٧- تأييد الله عز وجل لنبيه عيسى عليه السلام بروح القدس جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٨- شدة عتو وعناد بني إسرائيل واستعصائهم على من جاءهم من الرسل بما لا تهوى أنفسهم، ومبادرتهم إلى الاستكبار عن الحق، والتكذيب به، أو القتل للرسل، فهذا ديدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

٩- التحذير من اتباع الهوى والاستكبار؛ لأن ذلك سبب الحقد.

١٠- تعليل بني إسرائيل واعتذارهم كذبًا في ردهم الحق بأن قلوبهم مغلَّفة، لا تعي ولا

تفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

١١- تكذيب الله لهم في دعواهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ليست قلوبهم غلفًا كما يقولون، بل منع وصول الحق إليها لعن الله لهم بسبب كفرهم.

١٢- أن القلوب بفطرتها ليست غلفا، بل هي مهيأة لقبول الحق، وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه**»(١).

١٣- أن الكفر والمعاصي قد تعمي عن الحق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

١٤- أن الإيمان في اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- تعظيم القرآن الكريم وإثبات أنه من عند الله ﷻ وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فنكر «كتاب» تعظيمًا له وبين أنه من عند الله تعالى وكلامه.

١٦- تصديق القرآن للتوراة والإنجيل، والكتب السماوية السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

١٧- أن لدى اليهود علما من كتابهم بأن النبي ﷺ سيبعث وتكون له الغلبة؛ ولهذا كانوا يستفتحون ويستنصرون بذلك على الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٨- تكذيب اليهود بالنبي ﷺ وجحودهم لما جاءهم به من الحق، وهم يعرفونه بغيًا منهم وحسدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

١٩- استحقاق أهل الكتاب للعنة الله ووجوبها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

٢٠- جواز لعن الكافرين من حيث العموم، ولعن الكافر غير المعين.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٢١- ذم مسلك اليهود فيما اختاروا لأنفسهم من الكفر بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٢٢- إثبات علو الله على خلقه، بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله وكلامه، وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾.

٢٤- أن الذي حمل اليهود على تكذيب النبي ﷺ والكفر بما جاء به هو البغي، والحسد بسبب كونه ﷺ من العرب؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

٢٥- وجوب قبول الحق ممن جاء به، وتحريم رده؛ لأن فلانًا قاله، كما فعل اليهود؛ ردوا الحق؛ لأن محمدًا جاء به، كما قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

٢٦- فضل الله ﷻ على محمد ﷺ وعلى أمته في إنزال القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

٢٧- إثبات المشيئة لله ﷻ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾.

٢٨- إثبات العبودية الخاصة، وهي عبودية الرسل وأتباعهم لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

٢٩- رجوع اليهود بسبب كفرهم بالقرآن بغضب من الله على غضب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾.

٣٠- إثبات صفة الغضب لله ﷻ كما يليق بجلاله.

٣١- الوعيد للكافرين بالعذاب المهين الذي يهينهم ويذلهم ويذهب عزهم جزاء استكبارهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٣٢-وجوب الإيمان بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٣٣- كذب اليهود في قولهم : ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، فلو آمنوا بما أنزل عليهم لآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ؛ لأن كتبهم فيها الأمر بالإيمان به ﷺ وبما أنزل عليه.

٣٤- عتو اليهود وعنادهم وتكذيبهم للنبي ﷺ وكفرهم بما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

٣٥-إفحام اليهود وإبطال زعمهم الإيمان بما أنزل عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لو كنتم صادقين في دعواكم الإيمان ما قتلتم أنبياء الله؛ لأن قتلهم ينافي الإيمان.

٣٦- أن الراضي بالمعصية والمتولي لفاعلها مشارك لفاعلها؛ لأن الله خاطب اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بالقتل وهو من فعل أسلافهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

أورد عز وجل على بني إسرائيل في الآية السابقة ما ينقض دعواهم الإيمان، وهو قتلهم الأنبياء، ثم أورد عليهم في هذه الآية ناقض آخر، وهو عبادتهم العجل وكفرهم بموسى وبما جاء به.

قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و«قد»، أي: والله لقد جاءكم موسى بالبينات. والخطاب لبني إسرائيل في عهده ﷺ، والمراد أسلافهم الذين بعث فيهم موسى؛ لأنهم في الحكم سواء.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات البينات الدالة على صدق رسالته، وأنه لا إله إلا الله، كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واليد والعصا وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن السلوى، والحجر، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ «ثم» عاطفة، تفيد الترتيب مع التراخي، أي: ثم جعلتم العجل إلهًا معبودًا لكم، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه، منتهزين فرصة غيابه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾.

و «العجل» في الأصل ولد البقرة، والمراد به هنا مُجَسَّم صنعه السامري من الحلي على هيئة العجل، وجعل فيه ثقبًا تدخله الريح فيكون له صوت كخوار الثور وأمرهم بعبادته، وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ الواو: حالية، والحال أنكم ظالمون، ظالمون في صرف العبادة لغير الله، غير معذورين في ذلك.

والظلم النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ سبق الكلام عليه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وفي تكراره تأكيد لما سبق، وتنبيه على أن طريقتهم مع محمد ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى إضافة إلى ما فيه من زيادة على ما سبق، وبيان له.

قوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: واسمعوا سماع قبول واستجابة وطاعة وامتثال.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: قالوا إجابة على ما أمروا به من أخذ الكتاب بقوة وأن يسمعوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سمعنا سمع إدراك فقط بآذاننا ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ بقلوبنا وجوارحنا وأفعالنا. والمعصية: ترك المأمور وفعل المحظور.

وظاهر الآية أنهم قالوا: ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ بألسنتهم، وقد تجرؤوا على ما هو أعظم من ذلك كما في قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقيل: إنهم قالوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بلسان حالهم وأفعالهم، لا بلسان المقال، والأول أولى، وفي هذا دليل على شدة عتوهم وعنادهم، إذ لم يلتمسوا لعصيانهم عذرًا كالجهل وعدم العلم ونحو ذلك، بل كابروا وقالوا بتحدٍ سافر: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، وعبادته، أي: بلغ حبه وتأليهه منهم مبلغًا عظيمًا، وأولعوا وشغفوا به حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وأشربته وصبغها.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب كفرهم بالله ﷻ فتنوا بحب العجل وعبادته، كما قال هارون ؑ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝٩٠ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠- ٩١].

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بئس: فعل ماضٍ يفيد الذم، «ما»: نكرة موصوفة، أي: بئس شيئًا يأمركم به إيمانكم، أو موصولة، أي: بئس الذي يأمركم به إيمانكم من قتل الأنبياء وعبادة العجل.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط وجوابه يدل عليه ما سبق، والمراد بالجملة التحدي، أي: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح، أو لو كنتم مؤمنين حقًا ما أمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح من قتل الأنبياء وعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٤﴾.

يزعم بنو إسرائيل أن لهم الآخرة عند الله، وأن الجنة لهم، وأن النار لغيرهم حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١٨]، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١١١ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١- ١١٢].

كما قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ورد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠- ٨١].

وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

وفي الآية هنا تحداهم بتمني الموت إن كانوا صادقين في دعواهم أن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس.

وهذا وما قبله من قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ كله في معرض الرد على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ أو له ولغيره ممن يصح خطابه ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: وما فيها من الجنة ونعيمها، وقدم الخبر «لكم» للحصر، والخطاب لليهود الموجودين في حال نزول القرآن الكريم.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: مدخرة لكم عند الله، ﴿خَالِصَةً﴾: حال من الدار، أي: حال كونها خالصة، ويجوز كونها خبر «كان».

﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا يشرككم فيها غيركم، وخاصة بكم دون جميع الناس كما تزعمون؛ لأنهم يقولون كما سبق: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، ويقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] يعني: ثم يخرجون إلى الجنة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ﴾ أي: اطلبوا حصول الموت، أو ادعوا على أنفسكم بالموت لتخلصوا وتصلوا إلى الدار الآخرة ونعيمها؛ لأنه لا يخلص ولا يوصل إليها إلا بعد الموت.

وقد قال بعض المفسرين: إن هذا من جنس آية المباهلة، وأن معنى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: سلوه وادعوا به على الكاذب المفتري من الطائفتين، وقد اختار هذا ابن القيم وابن كثير- رحمهما الله[1].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٠- ٣٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٢).

والأول أقرب ودلالة السياق عليه أظهر، وقد كان هذا شأن بعض صحابة رسول الله ﷺ سؤال الشهادة والجنة ولقاء الله، فقد ارتجز جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يوم غزوة مؤتة، حين اقتحم على المشركين بقوله:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها[(١)]

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عند خروجه إلى غزوة مؤتة، ودعا المسلمون له ولمن معه أن يردهم الله سالمين:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة من يدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي: ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا[(٢)]

وقال عمير بن الحمام:

جريًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد[(٣)]

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس.

وفي هذا أعظم التحدي لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الآية: ٧].

فنفى ﷻ بـ «لن» و«لا» نفيًا مؤبدًا أن يتمنوا الموت، وفي هذا تكذيب لزعمهم أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة، فهم يكرهون الموت أشد من غيرهم؛ لأنهم يكرهون لقاء الله، وقد قال ﷺ: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[(٤)].

---

(١) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي ٩/ ٢٦٠.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» ١/ ١٩١.

(٣) انظر: «الاستذكار» ٥/ ١٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٦)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية أي: بسبب الذي قدمت أيديهم، أو بسبب تقديم أيديهم، والمعنى: أنهم لن يتمنوا الموت ولا يتمنونه أبدًا، ولا نطقا بألسنتهم دون مواطأة قلوبهم.

وهذا من دلائل نبوته ﷺ وذلك بسبب الذي عملوه من الأعمال السيئة من الكفر وتكذيب الرسل، والقول على الله بغير علم، والكذب والدعوى الباطلة بأن لهم الدار الآخرة خالصة، ونحو ذلك، ولما يعلمون ما لهم بسبب ذلك من المآل السيئ والعقبى الخاسرة عند الله.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الله عليم بالظالمين من اليهود وغيرهم.

أي: أنه ﷻ محيط علمًا بهم وبأعمالهم وأحوالهم، وغير ذلك، وإنما خص علمه بالظالمين تهديدًا لهم، وإلا فعلمه محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «والله عليم بكم» للتسجيل عليهم بوصف الظلم، وليشمل الوعيد أيضًا غيرهم من الظالمين، إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

نفى ﷻ في الآية السابقة نفيًا مؤبدًا تمني اليهود الموت، ثم أتبع ذلك وأكده ببيان أنهم أحرص الناس على حياة، فكيف يتمنون الموت؟!

قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: والله لتجدنهم أحرص الناس على حياة، فأكد حرصهم على الحياة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

والضمير في: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ يعود إلى اليهود، وهو في محل نصب مفعول أول لـ«تجدن»، و«أحرص»: مفعول ثانٍ، وهو اسم تفضيل، أي: أشد الناس حرصًا على الحياة والبقاء وطول العمر. والمراد بـ «الناس» جميع البشر؛ لأن الحرص على الحياة غريزة في الناس جميعًا لكنهم متفاوتون فيه، واليهود أشدهم حرصًا على الحياة.

قال أبو الطيب[١]:

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصا عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع الموت أورده الحربا

والحرص: شدة الطمع في الشيء، وبذل الجهد في حصوله، والخوف من فواته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[٢].

ونكَّر «حياة»؛ ليدل على حرصهم على أيِّ حياة كانت، ومهما كانت حالتهم فيها ولو كانت حياة بهيمية، كما يقول بعضهم: «الحياة وكفى».

وقد أحسن الحريري[٣] في قوله:

والموت خير للفتى ... من عيشه عيش البهيمةْ

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الجملة معطوفة على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي: ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا، أي: وأحرص على الحياة من المشركين، الذين لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار فلا يرجون بعثًا ولا نشورًا، ويرون أن الحياة الدنيا هي فرصتهم الأولى والأخيرة؛ لهذا كانوا من أحرص الناس على الحياة.

ومع هذا كله فاليهود مع أنهم أهل كتاب يؤمنون بالبعث والجزاء، هم أشد حرصًا على الحياة من المشركين؛ ليتمتعوا بأكبر قدر منها، وقد قال ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٤].

---

(١) انظر «ديوانه» ص٦٥ .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مقامات الحريري» ص٦٦.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢٩٥٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويحتمل أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ للاستئناف، وتكون الجملة مستأنفة، والتقدير: ومِن الذين أشركوا مَن يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ بيان لشدة حرصهم على الحياة، ومدى مبلغ طمعهم في طول البقاء، أي: يحب ويتمني أحدهم، والضمير يعود إلى المشركين على احتمال كون جملة: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ مستأنفة، والمعنى يود أحد المشركين ويتمنى لو يعمر ألف سنة.

وعلى القول بأن هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يحتمل عود الضمير في «أحدهم» إلى المشركين؛ لأنه أقرب مذكور، والمعنى عليه أبلغ وأقوى؛ لأنه إذا كان الواحد من المشركين يود أن يعمر ألف سنة، فاليهودي يتمنى أن يعمر أكثر من ذلك؛ لأنه أحرص من المشرك على الحياة.

ويحتمل أن يعود الضمير في «أحدهم» إلى اليهود، ويكون الكلام قد انقطع عند قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾.

﴿لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ «لو»: مصدرية بمعنى «أن» تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، والتقدير: يود أحدهم تعميره ألف سنة، أي: أن يزاد في حياته وعمره حتى يكون ألف سنة؛ أي: ألف عام.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية أي: وما هو بدافعه ومانعه ومبعده من العذاب ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾.

«وأن» والفعل «يعمر» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لاسم الفاعل، «مزحزح» أي: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

والمعنى: أنه لو عمر ألف سنة أو أكثر وهو مقيم على الكفر والمعصية فإن ذلك لن يدفعه ويمنعه ويبعده من العذاب، وذلك من وجهين:

أولًا: أن زيادة العمر مع الاستمرار على الكفر والمعصية زيادة في العذاب.

ثانيًا: أن عمر الدنيا كلها ليس بشيء بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قرأ يعقوب «تعملون» بالخطاب، وقرأ الباقون:

﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالغيبة، أي: والله عليم بالذي يعملون، أو بعملهم مطلع عليه خبير به، لا تخفى عليه منه خافية، وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ لأن مقتضى بصره وعلمه بعملهم أن يحاسبهم ويجازيهم عليه، قال زهير[1]:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى فمهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على بني إسرائيل بما جاءهم به موسى ﷺ من الآيات البينات ومع ذلك لم ينجع فيهم ذلك، بل اتخذوا العجل معبودًا من دون الله.

٢- سفه اليهود وضعف عقولهم حيث اتخذوا العجل معبودًا لهم مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣- أن بني إسرائيل لم يتخذوا العجل إلا بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وفي هذا دلالة على هيبته ﷺ في نفوسهم، وعلى أنهم يتحينون الفرص لمخالفته وترك ما عهد إليهم به.

٤- ظلم بني إسرائيل في عبادتهم العجل؛ لأنهم يعلمون أنه لا إله إلا الله، فظلموا بصرف العبادة لغيره عن علم منهم، وظلموا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

٥- أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتخويفهم برفع الطور فوقهم؛ ليؤمنوا ويأخذوا ما أتاهم الله من شريعة التوراة بقوة، ويسمعوا سماع طاعة وامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ﴾.

٦- شدة عتو بني إسرائيل، فما آمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، أشبه بإيمان المكره.

٧- قدرة الله تعالى العظيمة وانقياد كل شيء له من الجبال وغير ذلك، مما يوجب تعظيمه والخوف منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾.

٨- وجوب أخذ الشريعة كلها بقوة وعزم؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٨.

٩- شدة عناد بني إسرائيل ومكابرتهم؛ لقولهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

١٠- أن السمع نوعان: سمع إدراك هو مناط التكليف كما في قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾، وسمع قبول؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾، وهو مناط المدح لمن قبل وأجاب، ومناط الذم لمن عصى.

١١- افتتان بني إسرائيل وولعهم بحب العجل وتأليهه بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

١٢- أن الإيمان الصحيح لا يأمر صاحبه بارتكاب ما ينافي الإيمان من قتل الأنبياء وعبادة العجل ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بئس هذه الأفعال، ولو كنتم مؤمنين حقا ما فعلتم ذلك.

١٣- تكذيب اليهود في زعمهم أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، وتحديهم بتمني الموت وطلبه أو الدعاء على أنفسهم بالموت، إن كانوا صادقين في دعواهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٤- شدة كراهة اليهود للموت، وأنهم لن يتمنوه ولا يمكن أن يتمنوه أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر وتكذيب الرسل وقتلهم وغير ذلك ولما يعلمون ماهم من سوء المصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

١٥- علم الله الغيب وما يستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فنفى أن يقع منهم ذلك، كما قال في آية الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ [الآية: ٧].

وهذا إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة فإن أهل النار يتمنون الموت، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

١٦- علم الله ﷻ بالظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو ﷻ عليم بكل شيء، وإنما خصَّ علمه بالظالمين تهديدًا لهم؛ لأن علمه بهم يقتضي محاسبتهم ومجازاتهم على ظلمهم.

١٧- أن اليهود أحرص الناس على حياة، فهم أحرص من الذين أشركوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ حتى يود الواحد منهم أن يعمر ألف سنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

١٨- حرص المشركين على الحياة لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

١٩- لا فائدة في طول العمر إذا قضي في معصية الله تعالى لأنه لا يبعد من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾.

٢٠- لا قيمة لطول العمر ما لم يكن في طاعة الله تعالى.

٢١- إحاطة الله ﷻ وعلمه وبصره بما يعمل الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذه الآيات وما بعدها كالآيات قبلها في إبطال قول اليهود: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ فقال: إني سأل عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلي أمه؟ قال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفًا، قال: جبريل؟. قال: نعم قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾»[1].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن اليهود قالوا: جبريل عدونا من الملائكة الذي ينزل بالحرب والقتال والعدوان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾»[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قرأ ابن كثير في الموضعين «جَبرِيل» بفتح الجيم وكسر الراء من غير همزة، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء، «جَبْرَئِيل»، وقرأ الباقون بكسر الجيم والراء من غير همزة ﴿جِبْرِيل﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ «من»: شرطية، وكان: فعل الشرط، وجوابه جملة:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٢٨٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٩-١٨٠).

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، و«جبريل» هو الملك الموكل بالوحي.

أي: من كان معاديًا لجبريل عليه السلام، مبغضًا له، كما هو حال اليهود الذين يعادون جبريل عليه السلام ويبغضونه، ويقولون: إنه ينزل بالعذاب والشدة والحرب والقتال ونحو ذلك.

والعجيب أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله، ويبغضونه مما يدل على اضطرابهم في معتقدهم.

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يعود إلى جبريل عليه السلام، والضمير المنصوب في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ يعود إلى القرآن، وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ والسياق يدل عليه.

ومعنى ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: نزل القرآن الكريم من عند الله عز وجل على قلبك يا محمد، فوعاه قلبك وحفظه كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧].

والمعنى: من كان عدوًا لجبريل، فلا موجب لعداوته له إلا أنه نزَّل القرآن على قلبك بإذن الله، وكونه نزل القرآن مما يوجب موالاته لا معاداته؛ لأن موالاته على هذا موالاة لله، كما أن معاداته معاداة لله، كما دل عليه قوله بعد هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا﴾ الآية أشبه بتأكيد المدح بما يشبه الذم كقول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم … بهن فلولٌ من قراعِ الكتائبِ[1]

ولهذا يقولون: إن الذي منعهم من الإيمان بالقرآن نزول جبريل به.

وقيل: جواب الشرط محذوف، والتقدير: من كان عدوًا لجبريل فليمت غيظًا، فإنه نزل بالقرآن، ويكفيه شرفًا أَحَبُّوه أم عادَوْه.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذن الله الكوني القدري.

---

(١) البيت للنابغة. انظر: «ديوانه» ص٤٤.

وإذن الله ﷻ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني قدري كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والإذن الكوني كالمشيئة والإرادة الكونية لابد من وقوعه ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله، والإذن الشرعي كالإرادة الشرعية لا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوبًا لله ﷻ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حال كونه مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، أي: مصدقًا لما سبقه من كتب الله ﷻ كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها.

فهو مصدق لها ببيان أنها صدق وحق، وهو مصداق ما أخبرت به- كما سبق تفصيل هذا، وهذا مما يوجب موالاة من نزل به أيضًا، لا معاداته.

﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة وبيانًا وإرشادًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فالقرآن هدى، أي: هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهو هدى هداية خاصة، للمؤمنين والمتقين المتبعين له المنتفعين به، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَبُشْرَىٰ﴾ البشرى والبشارة: الإخبار بما يسر.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: للمصدقين المنقادين للحق، ظاهرًا وباطنًا، وإنما كان القرآن بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين آمنوا به وعملوا بمقتضاه، ففيه البشارة لهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، به تطمئن قلوبهم وتنشرح له صدورهم ويثقون بما وعدهم الله فيه من النعيم والفوز العظيم.

فوصف القرآن وأثنى عليه بخمسة أوصاف وهي: أنه نزل من عند الله بإذنه، وأنه

منزل على قلب الرسول ﷺ، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنه هاد أبلغ هدى، وأنه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

لما ذكر في الآية السابقة ما يدل على أن عداوة جبريل عليه السلام الذي نزل بالقرآن هي عداوة لله الذي أنزل القرآن أتبع ذلك بتأكيد أن عداوة ملائكته ورسله وجبريل هي كفر وعداوة لله تعالى، وأن الله عدو للكافرين.

قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي: من كان معاديًا لله مخالفا لأمره مرتكبا لنهيه مستكبرًا عن عبادته، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، أي: وعدوًا لملائكته.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: وعدوًّا لرسله بمخالفتهم وتكذيبهم، و«رسله» يشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوف على ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من عطف الخاص على العام تنويهًا بشرف هذين الملكين كما في الحديث: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

و«جبريل» الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص: ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ بغير همزة ولا ياء بعدها، وقرأ نافع وأبو جعفر: «وميكائل» بهمزة من غير ياء بعدها، وقرأ الباقون: «وميكائيل» بهمزة وياء بعدها.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧)- من حديث عائشة رضي الله عنها.

و «ميكال» الموكل بالقطر والنبات الذي به حياة الأرض والأبدان.

قال ابن القيم[(١)]: «وأعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما، إما لأمر اختص بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما، أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه، وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته».

وقال ابن كثير[(٢)]: «خصَّا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله أن من عادى واحدًا، فقد عادى الآخر وعاد الله أيضًا».

وأيضًا فمن عادى جبريل وميكائيل فكأنما عادى جميع الملائكة، كما أن من عادى محمدًا ﷺ أو أحد الرسل فكأنما عادى جميع الرسل.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، وفي هذا إثبات عداوة الله تعالى للكافرين.

والعداوة من الصفات الفعلية المرتبطة بالمشيئة فهو ﷻ يعادي الكافرين ويوالي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧].

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «فإني عدو له» لتسجيل الحكم بالكفر على من كان عدوًا لله، أوعدوًا لملائكته أو رسله أو جبريل أو ميكال، ولبيان عموم عداوة الله لجميع الكافرين، وأن علة عداوته لهم هي كفرهم إضافة إلى مراعاة الفواصل- كما هو معلوم.

فمن كان عدوًا لله فهو كافر، ومن كان عدوًا لملائكته، أو لرسله أو لجبريل، أو لميكال فهو عدو لله وكافر.

وإذا كانت عداوة ملائكة الله ورسله عداوة لله تعالى، فإن عداوة أولياء الله من المؤمنين بسبب إيمانهم بالله ورسله وشرعه هي عداوة لله تعالى؛ ولهذا قال ﷻ في

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٢).

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٩٠).

الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام للقسم، أي: والله لقد أنزلنا إليك آيات بينات، و«قد»: للتحقيق، والجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد»، والخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف له ﷺ وامتنان عليه، وتسليته ﷺ.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمع آية، وهي الدلالة والعلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: إن علامة ملكه.

وقال ﷺ للرجل الذي أرسله إلى وكيله في خيبر: «**إذا أتيت وكيلي بخيبر فضع يدك على ترقوته**»[(٢)]، أي: علامة على أنك مبعوث مني.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين، آيات شرعية، وآيات كونية، والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية، آيات القرآن الكريم، وفي تنكير «آيات» تعظيم للقرآن الكريم.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي: آيات واضحات مفصلات في ألفاظها ومعانيها ودلالتها وأحكامها، دالة على صدقك وصدق ما جئت به.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾ أي: وما يكفر بهذه الآيات البينات، أي: وما يجحدها ويكذب بها ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي إلا الخارجون عن طاعة الله تعالى الذين بلغوا من الفسق غايته، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وفي ذكر هذه الآية في سياق الكلام عن بني إسرائيل وعتوهم وعنادهم إشارة واضحة إلى قيام الحجة عليهم، بما أنزله الله تعالى على محمد ﷺ من آيات بينات، لا يجحدها ولا يكذب بها إلا من بلغ الغاية في الفسق مثلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه هنا التوبيخ، والواو: عاطفة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبوداود في الأقضية- الوكالة (٣٦٣٢) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

و«كلما»: أداة شرط تفيد التكرار، أي: كثرة وقوع شرطها وجوابها، وشرطها هنا ﴿عَٰهَدُواْ﴾ وجوابها ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ أي: أو كلما منهم عهد حصل من فريق منهم نبذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

«والعهد» الميثاق المؤكد، ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ أي: طرحه ونقضه ولم يفِ به.

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: فريق من اليهود، والفريق: الجماعة، أي: جماعة منهم، وهو الأكثر بدليل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي تنكير «عهدًا» إشارة وتنبيه إلى أن هذا ديدن اليهود ومسلكهم في أي عهد يعاهدونه سواء كان العهد مع الله ﷻ، أو مع عباد الله، وسواء كان ذلك فيما بينهم، أو مع المسلمين أو مع غير المسلمين.

وقد أخذ الله عليهم كثيرًا من المواثيق والعهود في التوراة، منها الإيمان بالرسول ﷺ وما أنزل عليه- كما ذكر الله ذلك في كتابه- فنقضوها، كما عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة فنقضوا العهد قبيلة تلو الأخرى كما هو معلوم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: إنما حملهم على نبذ العهد ونقضه كون أكثرهم لا يؤمنون؛ إذ لو كانوا مؤمنين ما نقضوا العهد؛ لأن الإيمان يوجب عليهم الوفاء بالعهد ويحرم عليهم نقضه.

الفوائد والأحكام:

١- عداوة اليهود لجبريل عليه الصلاة السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ وعلى هذا دلت السنة.

٢- فضل جبريل عليه السلام؛ لأن الله دافع عنه،وبين أنه نزل القرآن على قلب النبي ﷺ بإذن الله ﷻ، فهو رسول من عندا لله بالوحي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

٣- أن دور جبريل عليه السلام إنما هو واسطة ورسول فقط بين الله ورسله وأنبيائه، مؤتمن على الوحي لا يأتي بشيء من عنده.

٤- إثبات علو الله تعلى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٥- أن القرآن كلام الله منزل من عنده وبإذنه الكوني لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- وعي النبي ﷺ بقلبه لجميع القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: على سمعك، وقد قال تعالى في سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، أي: جمعه في قلبك وقراءته عليك.

٧- لا شيء يجري في الكون إلا بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٨- تصديق القرآن لما سبقه من الكتب السماوية؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فهو مصدق لها بالإخبار والشهادة بأنها صدق، وهو مصداق ما أخبرت به.

٩- أن القرآن الكريم هدى ودلالة وبشارة للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- من كان عدوًا لله تعالى فهو كافر، والله عدو للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١١- من كان عدوًا للملائكة والرسل وجبريل وميكال فهو كافر، والله عدو للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٢- أن الله عدو لجميع الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ففي هذا إظهار في مقام الإضمار يؤكد عموم عداوته ﷻ لجميع الكافرين.

١٣- إثبات صفة العداوة لله تعالى وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة كالرضا والغضب ونحو ذلك، وهي صفة كمال؛ لأنه ﷻ يعادي أعداءه الكافرين.

١٤- أن عداوة الله ﷻ للكافرين سببها كفرهم.

١٥- تعظيم الله ﷻ لنفسه لأنه العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾.

١٦- تعظيم الله ﷻ للقرآن الكريم وأنه آيات ودلالات بينات واضحات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١٧- إقامة الحجة على الخلق بإنزال القرآن وما اشتمل عليه من الآيات البينات.

١٨- أن من كفر بالقرآن الكريم فهو من الفاسقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: إلا الخارجون عن طاعة الله تعالى وعن دينه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و(لما) ظرف بمعنى «حين» متضمن معنى الشرط، ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل الشرط، والضمير يعود إلى أهل الكتاب، وبخاصة اليهود الذين فيهم سياق الآيات، أي: ولما أتاهم رسول، مرسل من عند الله، وهو محمد ﷺ.

ونكَّر ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم، فهو ﷺ أفضل الرُّسل، وسيد ولد آدم، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفّع**»[1].

وفي حديث أبي سعيد- رضي الله عنه: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر**»[2].

وفي قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه، ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ أي: مصدق بما جاء به من عند الله عز وجل.

﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ «ما» موصولة، أي: للذي معهم من التوراة والإنجيل، وغيرهما من كتبه- عز وجل- فهو مصدق وشاهد أنها من عند الله- عز وجل- قبل تحريفها، وهو

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

مصدق لما جاء فيها من البشارة به ﷺ، ومصدق لما جاء فيها من الأخبار بمطابقة أخباره لأخبارها، كل هذه براهين دالة على صدقه، وصدق ما جاء به، مع ما اقترن به من الأدلة والبراهين غير ذلك، الدالة على صدقه، والتي هي أقوى مما اقترن بجميع الكتب قبله.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ النبذ: الطرح والإلقاء للشيء بشدة، وعدم الاكتراث والاهتمام به، ومنه سمي اللقيط منبوذاً.

قال الشاعر:

نظــــرتَ إلى عنوانـــــه فنبذتَـــــه كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا[1]

﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق الجماعة والطائفة، ومفهوم هذا: أن فريقاً منهم آمن، كالنجاشي من النصارىٰ، وعبدالله بن سلام من اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من الذين أعطوا الكتاب، أي: أنزل عليهم الكتاب، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني، فاليهود أعطوا التوراة، والنصارى أعطوا الإنجيل، وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يقل: (فريق منهم) زيادة في التشنيع عليهم، وتنبيهاً على قيام الحجة عليهم، حيث أوتوا الكتاب وعرفوه، ومع ذلك ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمراد بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ القرآن الكريم، وأضافه الله- عز وجل- إليه؛ لأنه كلامه بلفظه ومعناه، وفي إضافته إليه- عز وجل- تعظيم له وتهويل لأمر نبذه والكفر به.

وسُمي القرآن كتاباً؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، ولأنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]،

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر «ديوانه» ص(٢١).

كما أنه مكتوب في المصاحف التي بأيدي المؤمنين.

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: خلف ظهورهم، وهذا كناية عن شدة نبذهم ورفضهم واطراحهم لكتاب الله تعالى وعدم مبالاتهم بما جاء فيه، وشدة إعراضهم وتوليهم، وانصرافهم عنه بلا رجعة.

وقيل: المراد بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ التوراة.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «كأن» للتشبيه، أي: أن حالهم في ذلك تشبه حال من لا علم عنده، أي: كأنهم لا يعلمون صدقه ﷺ، وأن ما جاء به من القرآن حق وصدق، يجب عليهم اتباعه، وهم في الحقيقة يعلمون ذلك؛ لما في كتبهم من البشارة به، والأمر بتصديقه، واتباعه.

وهذا من أخص صفات اليهود، ترك الحق، وكتمانه، وتكذيبه وجحده بعد معرفته كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولهذا وصفهم الله- عز وجل- بالمغضوب عليهم؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، ومثلهم مَن سلك طريقهم في ترك الحق بعد معرفته، كما قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى»(١).

ولمّا لم ينتفعوا بعلمهم صاروا كمن لا يعلم، بل أقل وأسوأ حالاً منه، كما قال تعالى فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالى عنهم وعن أشباههم من أهل الكفر: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٨٠).

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الواو: عاطفة، وضمير الواو في (اتبعوا) يعود إلى الفريق من أهل الكتاب الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وهم اليهود.

﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: الذي تتبعه شياطين الجن والإنس، وتأخذ به، وترويه، وتحدث به الناس، من الكفر والسحر، فابتلي هؤلاء اليهود عقوبة لهم على نبذ كتاب الله، باتباع ما تتلو الشياطين، وهكذا من ترك الحق مع علمه به، ابتلي وعوقب باتباع الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

والشياطين: جمع شيطان، وهو كل متمردٍ عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»[1].

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ عُدِّيَ الفعل «تتلو» بـ«على»؛ لأنه ضمن معنى «تكذب».

ويحتمل أن تكون «على» بمعنى «في» أي: في ملك سليمان، أي: في عهده.

وهو سليمان بن داود- عليهما الصلاة والسلام، وإنما قال عز وجل: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ لأن الله قد جمع له بين النبوة والملك العظيم، خلاف ما يزعمه اليهود أنه ملك فقط، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ [النمل: ١٥] أي: علم النبوة، وقال

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة (٧٠٢)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢)- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والسحر موجود قبل زمان سليمان- عليه السلام- فهو موجود في زمن موسى- عليه السلام- كما ذكر الله- عز وجل- عن سحرة فرعون؛ ولهذا جعل الله- عز وجل- من الآيات التي أيّد بها نبيّه موسى- عليه السلام- انقلاب العصا حية، وإدخال يده في جيبه ثم خروجها بيضاء من غير سوء؛ وذلك لإبطال سحرهم.

وموسى- عليه السلام- قبل سليمان- عليه السلام- بمدد طويلة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١]. وداود المذكور، هو والد سليمان عليهما السلام.

بل إن السحر كان موجوداً ومعروفاً زمن نبي الله صالح- عليه السلام- وهو قبل إبراهيم الخليل- عليه السلام- أبي الأنبياء، من بني إسرائيل، ومن العرب؛ فقد قال قوم صالح له: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين، بل قد يكون السحر موجوداً قبل ذلك في سائر الأمم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

فالشياطين كانت تأتي السحر، وتعمله قبل سليمان- عليه السلام- وتعلِّمه الناس، وإنما أخبر عز وجل عن اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوه الشياطين على عهد سليمان- عليه السلام- لأن الشياطين وأتباعهم من اليهود نسبوا ذلك إلى سليمان- عليه السلام- كذباً منهم وزوراً.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ الجملة مستأنفة، أو حالية في محل نصب، و«ما» نافية، أي: وما كفر سليمان بتعلم السحر، وتعليمه- كما يزعمه الشياطين وأتباعهم من اليهود؛ لأنه رسول من عند الله- عز وجل- معصوم من الكفر وأسبابه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«لكن» حرف استدراك.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «لكنِ» بتخفيف النون وكسرها، لالتقاء

الساكنين، و«الشياطينُ» بالرفع مبتدأ، وخبره جملة «كفروا».

وقرأ الباقون بتشديد نون «لكنَّ»، و«الشياطينَ» بالنصب اسمها، وخبرها ما بعده.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهي في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يعلمون الناس السحر.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ جملة استئنافية لبيان نوع كفرهم.

والسحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ولهذا قال ﷺ: «**إن من البيان لسحرا**»[١]؛ لأن البيان- وهو الفصاحة والبلاغة في الكلام- يؤثر في النفوس ويجذبها.

وهو في الشرع: عزائم ورقى وعقد ينفث فيها، فتؤثر في العقول والأبدان، بإذن الله عز وجل الكوني، ولا يحصل إلا بالشعوذة، ودعاء الشياطين، والاستعانة بهم، والكفر بالله.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يُقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله»[٢].

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» موصولة، بمعنى «الذي»[٣] معطوف على «السحر»، أي: يعلمون الناس السحر، والذي أنزل على الملكين من أنواعه، وهو ما يفرقون به بين المرء وزوجه.

والإنزال هنا بمعنى «الخلق»، كما قال ﷺ: «**ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له دواء، علمه مَن علمه، وجهله من جهله**»[٤].

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ استيقظ ليلة، فقال: «**سبحان الله، ماذا أُنزِلَ الليلة من الفتنة، ماذا أُنزِلَ من الخَزَائن، مَن يوقظ صواحب الحجرات، يا رُبَّ**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٠٠٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٨) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٦)، ومسلم في السلام (٢١٨٩)، وابن ماجه في الطب (٣٥٤٥)، وأحمد (٦/ ٥٠، ٦٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٥١).

(٣) وقيل: إن «ما» نافية، وتفسير الآية على هذا المعنى لا يخلو من تكلف.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤١٣، ٤٤٦)، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)- من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه.

كاسيةٍ في الدنيا، عاريةٍ في الآخرة»[١].

والمراد بـ«الملكين» ملكان أنزلا إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، وأنه جائز في حقهما، ابتلاءً وامتحاناً للناس، بعدما بيَّن لهم على ألسنة الرُّسل- عليهم الصلاة والسلام- أن ذلك لا يجوز.

قال الطبري[٢]: «فبيِّنٌ أن معنى «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ بمعنى «الذي»، وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن «الملكين».. فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلِّم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جلَّ ثناؤه عرَّف عباده جميعَ ما أمرَهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم، بعد العلم منهم بما يؤمَرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهىٰ عبادَه من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جلَّ ثناؤه علَّمه الملكين اللذين سمَّاهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده، من بني آدم، كما أخبر عنهما أنهما يقولان لَمن يتعلَّم ذلك منهما: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾؛ ليختبر بهما عباده، الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحِّص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعليمه السحر والكفر منهما، ويكون في تعليمهما مَن علَّما ذلك، لله مطيعين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه يعلمان، وقد عُبد من دون الله جماعة من أولياء الله فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناه، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحر من سحر، ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه وعِظتهما له، بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ إذ كانا قد أديَّا ما أُمِرَا به بقيلهما ذلك».

﴿بِبَابِلَ﴾ «بابل» اسم بلد في العراق قريب من «الحلة» الآن، على بُعد أميال من ملتقىٰ الفرات ودجلة، من أعظم عواصم الكلدانيين، وأقدم مدن العالم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٦)، والترمذي في الفتن (٢١٩٦).

(٢) في «جامع البيان» (٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه مرَّ بـ«بابل» وهو يسير، فجاء المؤذِّن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أُصلي بأرض المقبرة، ونهاني أن أُصلي بـ«بابل» فإنها ملعونة»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وهذا الحديث حسن، عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه، وفيه من الفقه: كراهية الصلاة بأرض «بابل»، كما تكره بديار ثمود، الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين»[(٣)].

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ بدل من الملكين، أو عطف بيان، لبيان اسميهما، فأحدهما «هاروت» والآخر «ماروت»، وهما اسمان أعجميان ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة.

فأكثر المفسرين على أن «هاروت» و«ماروت» ملكان أُنزلا إلى الأرض يعلِّمان السحر ابتلاءً واختباراً للناس.

وقد روي في سبب إنزال «هاروت» و«ماروت» إلى الأرض وما كان من أمرهما آثار غريبة جدًّا عن جمع من السلف من الصحابة والتابعين[(٤)].

بل روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ من طريق موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما- وفيه: أن الملائكة زعمت أنها أطوع لله من بني آدم، فابتلاهم الله- عز وجل- بإنزال هاروت وماروت، ومثلت لهما الزهرة بأحسن امرأة من البشر، وكان من أمرهما ما كان، من الشرك والسكر والزنا والقتل[(٥)].

وظاهر ذلك كله أنه من أخبار بني إسرائيل، التي لم يدل عليها كتاب ولا سُنَّة

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٤٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٩) مختصراً.

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٣)، ومسلم في الرقائق (٢٩٨٠)- عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم».

(٤) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٤٠-٣٤٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٨٩-١٩٢)- الآثار (١٠٠٥-١٠٠٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٤)، وفيه ابن جبير الأنصاري السلمي مولاهم الحذاء- مستور الحال- وأخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٩٩) من طريق موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه الطبري- مختصراً- من طريق معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما. انظر «جامع البيان» (٢/ ٣٤٧).

صحيحة، خاصة وأنها تتعلق بأمر يمس عصمة الملائكة الذين قال الله- عز وجل- عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

قال ابن كثير- رحمه الله[1]- بعدما ذكر ما روي عن ابن عمر: «وأقرب ما في هذا أنه من رواية عبدالله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبي ﷺ»، ثم أشار إلى رواية عبدالرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم[2]، من طريق موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر- رضي الله عنهما- موقوفاً عليه. قال ابن كثير: «فهذا أصح، وأثبت إلى عبدالله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه، من مولاه نافع، فدار الحديث، ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل».

وقال أيضاً[3] بعد أن ذكر الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين: «وقصَّها خلق كثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح، متصل الإسناد، إلى الصادق المصدوق، المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن، على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال».

قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ الجملة حالية، و«ما» نافية، أي: والحال أنهما ما يعلمان- يعني الملكين هاروت وماروت، و«من» في قوله ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: وما يعلمان أيَّ أحد من الناس.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ «حتى» للغاية، أي: حتى يقولا له، أي: إلا بعد أن يقولا له ناصحين ومحذرين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وفي الإخبار بالمصدر «فتنة» مبالغة، وأكدت بالحصر، أي: لسنا إلا فتنة محضة.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٩٩).
(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٤٣، ٣٤٤)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٩٠)- الأثر (١٠٠٦).
(٣) في «تفسيره» (١/ ٢٠٣).

والفتنة: الابتلاء والامتحان، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: ابتلاؤك وامتحانك، وتكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: إنما نحن في تعليمنا السحر ابتلاء وامتحان للناس؛ ليظهر مدى تمسكهم في دينهم.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: فلا تكفر بتعلُّم السحر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وذلك أنهما عُلِّما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر»[١].

وعن الحسن البصري، قال: «نعم أُنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء، الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق، أن لا يعلما أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾»[٢].

ولهذا مَن تعلَّم السحر منهما وقع في الكفر؛ لأنه علم أن السحر كفر، وأقدم على تعلمه، على بصيرة منه، بعد أن قامت عليه الحجة.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»**[٣].

ورُوي عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أتى كاهناً أو عرَّافاً أو ساحراً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**[٤].

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الفاء للتفريع، أي: فيتعلم الذين يجترئون على تعلم السحر بعد تحذيرهم منه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٢)- الأثر (١٠١٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٢)- الأثر (١٠١١).

(٣) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩).

(٤) أخرجه الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥٠) من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-. وأخرجه أبوداود في الطب (٣٩٠٤)، والترمذي في الطهارة (١٣٥٠)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- دون قوله: «أو ساحراً».

﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من الملكين: هاروت وماروت.

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» أي: السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، و﴿ٱلْمَرْءِ﴾ الرجل، ويقال للأنثى: «امرأة».

﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ يقال لامرأة الرجل: «زوج» في الفصحى، وهي لغة أهل الحجاز، ويقال لها: «زوجة» في لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد.

والمعنى: فيتعلمون من الملكين، السحر الذي يفرقون به بين الرجل وامرأته، مع قوة الصلة والمودة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وهذا من أشد أنواع السحر، وأخبثها، وأعظمها ضرراً، يخيل فيه لكل واحد من الزوجين المسحورين صاحبه بأقبح صورة، حتى يكرهه، وينصرف عنه، ويفارقه، وهذا ما يسمى بالصرف.

وضده سحر العطف «التِّوَلة» وهو أشد وأخبث منه، يؤدي بالمسحورين إلى هيمان كل منهما وولعه بالآخر، زوجين كانا، أو غير ذلك، حتى لا يستطيع أحدهما فراق صاحبه، ولو لحظة، وخروج ذلك إلى حد الخبل، وكلا النوعين من عمل الشيطان وتزيينه.

عن جابر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه، ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نِعْمَ أنت**»(١).

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وبين قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾. وقد تكون حالية.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٣).

قوله: ﴿وَمَا هُم﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، والضمير «هم» في محل رفع اسم «ما»، يرجع إلى الذين يتعلمون السحر. ﴿بِضَآرِّينَ﴾ الباء حرف جر زائد، من حيث الإعراب، مؤكد للنفي، من حيث المعنى و«ضارين» اسم مجرور لفظاً، منصوب محلاً، خبر «ما»، وعلامة جره الياء.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالسحر، الذي يفرقون به بين المرء وزوجه.

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحداً، و«من» صلة لتأكيد النفي، أي: وما هم بضارين بالسحر أحداً، أي: أيَّ أحد من الناس.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الباء للسببية، أي: وما هم بضارين بالسحر من أحد بسبب من الأسباب إلا بإذن الله، أي: إلا بإذن الله، وقضائه الكوني القدري، فلا تأثير للسحر بذاته، فمن قضىٰ الله كوناً وقدراً أن يضره السحر ضره ذلك، ومن قضى أن لا يضره السحر، فلا يمكن أن يضره أبداً.

وإذن الله- عز وجل- ينقسم إلى قسمين: كوني، شرعي.

والفرق بينهما: أن الإذن الكوني لابد أن يقع، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله- عز وجل- كالإرادة الكونية.

والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوباً لله- عز وجل- كالإرادة الشرعية.

فإذن الله الكوني شامل لكل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، فلا يمكن أن يقع في الكون شيء إلا بإرادة الله- عز وجل- وتقديره ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]. وله عز وجل الخلق، والملك، والأمر كله، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

قال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: «نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضرّ أحد إلا بإذن

الله، كما قال الله تبارك وتعالى».

وفي رواية عنه قال: «**لا يضر هذا السحر إلا مَن دخل فيه**»(١).

فلله الحمد والمنة، أن جعل كيد الساحر في نحره، وتسلطه على بني جنسه ممن صدقه واطمأن إليه، وحفظ منه ومن شره من اعتصم بالله والتجأ إليه، وعبده- سبحانه، وتوكل عليه، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال عز وجل مخاطباً الشيطان معلم السحرة ووليهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فعلى العبد إخلاص العبادة لله- عز وجل- والتحصن بالقرآن والأذكار والأوراد الشرعية مع صدق التوكل على الله، وتمام الثقة به، فهو- عز وجل- الحافظ والكافي، والواقي من جميع الشرور، قبل وقوعها، والرافع لها بعد وقوعها، فمن توكل عليه حفظه ووقاه وكفاه ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

كما أن على المؤمن، أن يعلم حقارة الساحر، ومهانته وضعفه، وأنه لن يعدو قدره، فلا يباله، ولا يصدقه؛ لتسلم له عقيدته، ويسعد في دينه ودنياه وأخراه، وأن لا يلتفت لما يقوله الدجالون من السحرة والمشعوذين والكهنة وغيرهم من ضعاف الإيمان واليقين، من الوساوس والتوهيمات وإدخال المخاوف على الناس، فكل ذلك محض كذب وافتراء من الشيطان، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وهكذا كل صاحب باطل من أولياء الشيطان، لا يمكن أن يثبت أمام من كان على الحق؛ لأن وليّه الرحمن.

قال السعدي(٢): «وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق

---

(١) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٣)- الأثر (١٠١٨).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١١٩).

الأمة غير القدرية، في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة، غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الصحابة والتابعين».

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وأعاد الفعل (يتعلمون) مع حرف العطف، لوقوع الجملة المعترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: الذي يضرهم في دينهم ودنياهم وأخراهم ضرراً محضاً؛ ولهذا قال: ﴿ولا ينفعهم﴾ فأثبت ضرره ونفى نفعه.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لإثبات كمال ضرره، فأفادت الآية إثبات الضرر ونفي النفع الذي هو ضده مفاد الحصر، كما في قول السموأل[1]:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

فهم يتعلمون ما يضرهم ضرراً محضاً، لا فائدة فيه بوجه من الوجوه، وذلك بسبب ما يلي:

أولاً: أن تعلم السحر كفر، والكفر ضد الإيمان، وإذا فقد الإنسان الإيمان، فقد خسر الخسران المبين، مهما ملك من الدنيا.

ثانياً: أن ما يأخذه الساحر من أموال الناس بالباطل، مقابل عمله الباطل، يذهب سحتاً لا بركة فيه، ولا ينتفع به الساحر في حياته، بل تجده أفقر الناس وأتعسهم حياة، وهذا أمر مشاهد معلوم، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، كما قال تعالى في الربا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقيل: إن المعنى: فيتعلمون ما يضر الناس ضرراً آخر، غير التفرقة بين المرء وزوجه، ولا ينفعهم البتة، في الدنيا- لأن أنواع السحر كلها لا يأتي منها إلا الضرر- وعلى هذا يكون

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٩١.

ضمير «هم» في قوله: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ عائداً على غير ضمير (يتعلمون).

والصحيح المعنى الأول، وهو يتضمن المعنى الثاني؛ لأن تعلمهم السحر يضرهم ولا ينفعهم، كما يضر من أتاهم من الناس وصدقهم ولا ينفعه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الواو: عاطفة، أو للحال، واللام للقسم، أي: والله لقد علموا- يعني من تعلَّموا السحر من اليهود وغيرهم.

﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ اللام للتوكيد، فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، و«قد»، واللام، و«مَنْ» موصولة، أي: للذي اشترى السحر واعتاض به عن الإيمان.

﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ «ما» نافية ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة زمناً بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿مِنْ خَلَاقٍ﴾ «من» صلة لتأكيد النفي، والخلاق: النصيب من الخير خاصة، أي: والله لقد علم الذين تعلَّموا السحر، من اليهود وغيرهم، أن من تعلمه، واعتاض به عن الإيمان، ما له في الآخرة أيّ نصيب من الخير، مهما قل. علموا ذلك من الشرع، وقول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

والجزاء من جنس العمل؛ لأن الساحر كافر لا نصيب له في الدين فلا نصيب له في الآخرة. ومن لم يكن له نصيب في الآخرة، فليس له فيها إلا الخسران والبوار، والخلود في جهنم، وبئس القرار.

قال ابن القيم[١]: «أي: علموا من أخذ السحر، وقبله لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة، فهم يشترون به ويقبلونه ويتعلمونه».

وهذا ديدن اليهود، ترك الحق بعد معرفته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٣).

للقسم، و«ما» اسم موصول، أي: والله لبئس الذي شروا به أنفسهم. و«بئس» فعل ماضٍ جامد يفيد الذم.

«شروا» بمعنى: باعوا، كما قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: باعوه، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] أي: يبيع نفسه طلباً لرضا الله.

فالشراء: بيع، والشاري هو البائع الذي يدفع السلعة، ويأخذ ثمنها، والمشتري هو المبتاع الذي يدفع الثمن ويأخذ السلعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي: لمن اشترى السحر وأخذه واعتاض به عن الإيمان.

والضمير «به» في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يعود إلى السحر.

فباعوا أنفسهم بثمن حقير قبيح زهيد وهو السحر، فخسروا أنفسهم، وخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وتحقق فيهم قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وإذا كان الله- عز وجل- ذمَّ ما باعوا به أنفسهم، وقبَّحه، وأقسم على ذلك، فلا يقدر قدر قبحه- إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «لو» شرطية، غير عاملة، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: لو كانوا يعلمون، ما باعوا أنفسهم بتعلُّم السحر، وفي هذا توبيخ لهم، ونداء عليهم بالجهل، ووصف لهم به، أي: إنهم لو كانوا يعلمون علماً ينتفعون به، ما باعوا أنفسهم بتعلُّم السحر، الذي يضرهم، ولا ينفعهم، وهو سبب شقائهم، وخسرانهم وهلاكهم، في الدنيا والآخرة.

وهذا لا ينافي ما وصفهم به في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ لأنهم لما لم ينتفعوا بعلمهم، بل تركوا الحق بعد ما علموه، وأقدموا على السحر، وقد علموا أن مَن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، صاروا كمن لا يعلم، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الذم والخسران المبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ الواو: استئنافية، و«لو» كسابقتها، والضمير في «أنهم» يعود إلى الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وتعلموا السحر، واعتاضوا به عن الإيمان، من اليهود وغيرهم.

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: واتقوا الله؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

والتقوى: أصلها «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية، فقيل: «تقوى».

وهي مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الشيء المخوف وقاية، فتتقي الشوك بلبس النعلين ونحوهما، وتتقي البرد بلبس الملابس الثقيلة ونحو ذلك، وتتقي الحر، بالبعد عن الشمس، واستعمال وسائل التبريد ونحو ذلك.

وأعظم ذلك تقوى الله- عز وجل- وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا[1]

وقال الآخر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى[2]

والمعنى: ولو أنهم آمنوا، فصدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم، لفعل ما أمرهم الله به، وترك ما نهاهم عنه، من السحر وغيره- فيما مضى وفيما يستقبل- وهذا يدل على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، كما يدل على كفر مَن تعلَّموا السحر، وعدم إيمانهم.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المثوبة: الأجر والجزاء، وسُمي أجرهم وجزاؤهم بالمثوبة، أخذاً من ثاب يثوب، إذا رجع؛ لأن ثمرة عملهم رجعت إليهم، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) البيت لأفيون التغلبي. انظر «لسان العرب» مادة: «وقى».

(٢) الأبيات لابن المعتز. انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٧٦)- تحقيق محمد بديع شريف- دار المعارف بمصر.

والمعنى: لكان لهم ثواب جزيل، وأجر عظيم، عند الله- عز وجل- في الدنيا والآخرة.

وفي وصف المثوبة بأنها من عند الله- عز وجل- تعظيم وتفخيم لها؛ لأنها من عند الله الجواد الكريم، فلا يدرك قدر عظمتها، إلا العظيم سبحانه.

وفي ذلك تأكيد ضمانها لهم؛ لأنها من عند الله- عز وجل- وهو الذي لا يخلف الميعاد.

وحقيقة هذه المثوبة التوفيق للسعادة في الدنيا تحت ظل الإيمان والتقوى، وفي الآخرة السعادة بدخول جنات النعيم، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أن مثوبة الله خير من كل شيء، خيرية مطلقة، خير مما باعوا به أنفسهم من تعلُّم السحر وتعليمه، ومما يحصلون عليه من متاع الدنيا، والثمن القليل، وغير ذلك.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا من ذوي العلم النافع الذين ينتفعون بعلمهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**لَرَوْحَةٌ في سبيل الله، أو غَدْوَةٌ، خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابُ قوس أحدكم من الجنة، أو موضع سوط أحدكم خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطَّلَعَت إلى أهل الأرض، لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، وَلَنَصِيفُهَا على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»(١).

فمِن سعة حلمه- عز وجل- ورحمته- عرض على هؤلاء، وحضهم على الإيمان والتقوى، ووعدهم بالمثوبة العظمى، مع ما حصل منهم من اتباع الشياطين، وتعلُّم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٧).

السحر والكفر، كما قال تعالى مخاطباً موسى وهارون- عليهما السلام- في دعوتهما فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وكما عرض عز وجل التوبة على الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٣، ٧٤]، وعرض عز وجل التوبة على أصحاب الأخدود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لو» كسابقتيها، وجوابها دل عليه السياق، أي: لو كانوا يعلمون لآمنوا واتقوا.

وفي قوله هنا: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، تأكيد لشدة جهلهم، وعدم علمهم، وأن العلم الحقيقي الممدوح إنما هو ما انتفع به صاحبه، وأن من أعظم الجهل ترك الحق بعد معرفته والعلم به، وهذا من أخص أوصاف اليهود، ولهذا استحقوا غضب الله ومقته.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ أهل الكتاب والإنكار عليهم في تكذيبهم الرسول ﷺ وردهم ما جاء به من الحق.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأنه مرسل من عند الله- عز وجل- للناس جميعاً، من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا رد على مَن يزعم من أهل الكتاب أن رسالته ﷺ خاصّة بالعرب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

٣- إخبار الكتب السماوية السابقة وبشارتها ببعثته ﷺ، وتصديقه ﷺ لما جاء فيها، فهو ﷺ مصدِّق لها، ومصداق ما أخبرت وبشَّرت به.

٤- شدة تكذيب أهل الكتاب للرسول ﷺ، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واستهانتهم واستخفافهم به، وإعراضهم عنه، وقبح مسلكهم وسوء صنيعهم.

٥- أن القرآن كلام الله- عز وجل-؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

٦- لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في تكذيب فريق منهم رسول الله ﷺ، ونبذ القرآن وراء ظهورهم، لبشارة كتبهم به، وعلمهم التام بذلك، ومعرفتهم له كما يعرفون أبناءهم.

٧- أن قيام الحجة على العالِـم أعظم من قيامها على الجاهل، فمن رد الحق مع علمه به ومعرفته له، فهو أعظم ذنباً وأشد عقوبة ممن رده عن جهل؛ لأن الجاهل قد يعذر؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أن مَن ترك الحق وأعرض عنه عناداً واستكباراً؛ ابتلي وعوقب باتباع الباطل، فهؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ابتلوا باتباع ما تتلوه الشياطين من السحر والكفر، عقوبة لهم على نبذ ما جاءت به الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

٩- ذم اليهود باتباعهم ما تتلوه الشياطين، وتمليه على ملك سليمان، من الأخبار الباطلة الكاذبة، ومن تعليم السحر.

١٠- إثبات نبوة سليمان- عليه السلام- وملكه العظيم.

١١- أن السحر من تعليم الشياطين، وأعمالهم السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

١٢- تبرئة الله عز وجل سليمان- عليه السلام- مما عليه الشياطين، من الكفر، وتعليم السحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- ابتلاء الناس وامتحانهم بإنزال السحر على الملكين، هاروت وماروت، ببابل، لتعليمه للناس، بعد بيانهما لمن يعلِّمانه أنهما فتنة، وتحذيرهما له من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.

١٤- يجب على العاقل أن لا يغريه تيسر أسباب المعاصي للوقوع فيها، وأن يتأمل في عواقبها الوخيمة ويحذر منها، وأن يعلم أن ذلك من الابتلاء والامتحان له.

١٥- في تحذير الملكين لمن يعلِّمانه السحر من الكفر: إرشاد له لما خلق من أجله، وهو الإيمان بالله- عز وجل- وعبادته، مع اقتران ذلك بالابتلاء بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

١٦- يجب على المسلم النصح للآخرين، وإن أدَّى ذلك إلى إعراضهم عنه، ففي باب التعامل، يبيِّن صفة سلعته، وعيبها إن وجد، وفي باب قول الحق يقول الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

١٧- ليس فيما فعله الملكان من تعلُّم السحر وتعليمه منافاة لعصمة الملائكة؛ لأن الله- عز وجل- أباح لهما ذلك، وإن كان ذلك في حق غيرهما كفراً ومعصية، وذلك ابتلاء وامتحان للناس.

١٨- أن تعلم السحر وتعليمه كفر أكبر مخرج من الملة، وقد دلّت الآية على ذلك في عدة مواضع، منها ما يلي:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فهو كفر ومن عمل وتعليم الشياطين.

ب- قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: فلا تكفر بتعلم السحر، والعمل به.

جـ- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ والذي لا خلاق له ولا نصيب في الآخرة هو الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا

﴿يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

د - قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ فأقسم- عز وجل- بأنهم باعوا أنفسهم بأسوأ وأقبح شيء، وليس هناك أسوأ ولا أقبح من الكفر.

هـ- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنهم لا علم عندهم، بل ليس عندهم إلا الجهل المطبق، وليس هناك أجهل ممن كفر بربه.

و - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ وهذا يدل على أنهم بتعلُّم السحر والعمل به جانبوا الإيمان والتقوى، أي: كفروا.

ز- تأكيد عدم علمهم وشدة جهلهم بما ينفعهم؛ لقوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد قال ﷺ: «**من أتى عرَّافاً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد**»(١)، وإذا كان من أتاهما يكفر، فكفرهما من باب أولى. والعراف والكاهن والساحر كلهم يستخدمون الشياطين، ويدّعون علم الغيب، وكل ذلك كفر بالله عز وجل.

١٩- إثبات حقيقة السحر وتأثيره، وعظم شره وخطره، وذمه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ولهذا يجب قتل الساحر، فعن بَجَالَةَ بْنِ عَبْدَةَ قال: «كتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر»(٢).

وصح عن حفصة أم المؤمنين- رضي الله عنها- «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها. فقُتِلَت»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ٩١).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، وعبدالرزاق. وانظر: «أحكام القرآن للجصاص» (١/ ٥٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٧)، «تيسير العزيز الحميد» ص(٢٩٣).

وعن الحسن عن جندب الأزدي- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»(١).

وقد رُوي من طرق متعددة: «أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به، فيرد إليه رأسه. فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى، ورآه جندب بن كعب الأزدي، فلما كان من الغد جاء مشتملاً على سيفه. وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط جندب سيفه، فضرب عنق الساحر. وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فحبسه، ثم أطلقه»(٢).

وعن حارثة قال: «كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً»(٣).

قال الإمام أحمد: «صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ- يعني: عمر، وحفصة، وجندباً- رضي الله عنهم(٤).

فيُقتل الساحر- على الصحيح، رجلاً كان أو امرأة، مسلماً كان أو غير مسلم.

واختلفوا في قبول توبة الساحر، والصحيح أنها تقبل، كما تقبل توبة المشرك.

٢٠- أن من أخبث أنواع السحر وأشده ضرراً، ما يفرق بين الأزواج، وهو المسمى بالصرف، ويقابله العطف، وهو أخبث منه وأشد.

٢١- حرص الشياطين وأتباعهم من السحرة على إفساد ما بين الأزواج.

٢٢- أن نفوذ السحر وأثره وضرره لا يحصل إلا بإذن الله- عز وجل- الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٦٠). وقال: «والصحيح عن جندب موقوف».

قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٧): «قلت: رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً».

(٢) ذكر هذا ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) أخرجه أبوبكر الخلال- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٣٩٤).

وهكذا جميع الأسباب مهما عظمت وكثرت، لا تأثير لها إلا بإذن الله- عز وجل- وتقديره.

وفي هذا رد على القدرية في زعمهم أن أفعال العباد خارجة عن قدرة الله، وأنها مستقلة غير تابعة لمشيئته عز وجل.

٢٣- أن تعلم السحر ضرر محض، لا نفع فيه بوجه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فهو كفر، وسبب للشقاء في الدنيا والآخرة، وما يأخذه الساحر من أموال الناس بالباطل يذهب سحتاً، لا ينفعه لا في دينه ولا في دنياه.

٢٤- علم اليهود بأن من اشترى السحر لا نصيب له في الآخرة، وإقدامهم مع ذلك على تعلمه وتعليمه والعمل به، جرأة منهم على الله- عز وجل-؛ ولهذا وصفوا في القرآن الكريم بالمغضوب عليهم؛ لتركهم الحق بعد معرفته، وارتكابهم الباطل مع العلم به.

٢٥- توكيد ذم السحر وقبحه، وسوء عاقبة أهله الذين باعوا به أنفسهم، من اليهود وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢٦- شدة جهل من تعلموا السحر من اليهود وغيرهم، وعدم علمهم علماً ينفعهم ويقودهم إلى الخير ويبعدهم من الشر، إذ لو كان عندهم أدنى علم بما ينفعهم ما تعلَّموا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- سعة حلم الله- عز وجل- ورحمته- حيث عرض على هؤلاء الذين اتبعوا الشياطين، وتعلموا السحر والكفر أن يؤمنوا، ويتقوا، ورغَّبهم في ذلك، ووعدهم عليه بالمثوبة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٢٨- أن الإيمان تصديق بالقلب واللسان، وعمل بالجوارح، بفعل الأوامر وترك النواهي، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان والتصديق

بدون عمل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾.

٢٩- أن ما عند الله من المثوبة والأجر العظيم لمن آمن به واتقاه خير من مكاسب الدنيا كلها، بل ومن الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾.

٣٠- تأكيد شدة جهل من آثروا اتباع الشياطين، والكفر وتعلم السحر، على الإيمان والتقوى من اليهود وغيرهم، وعدم علمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

٣١- أن التفضيل قد يقع بين شيئين لا فضل في أحدهما البتة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾، ومعلوم أنه لا خير البتة في السحر والكفر، بل كل ذلك شر محض. وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، إذ لا خير البتة ولا حسن في مصير أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

٣٢- أن من أعظم الجهل، وآكده وأشده ضرراً، ترك الحق والعمل به، بعد معرفته والعلم به، ولهذا أكد عز وجل عدم علم المذكورين مرتين بقوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

ذم الله- عز وجل- في الآيات السابقة اليهود لنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واتباعهم الشياطين، وتعلمهم السحر، وفي هذا ما فيه، من التحذير من مسلكهم الشائن، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين أن يقولوا: «راعنا» لاتخاذ اليهود هذه المقالة ذريعة لسب النبي ﷺ.

رُوي أن اليهود كانوا إذا أرادوا أن يقولوا: «اسمع لنا» يقولون: «راعنا»، يورون بالرعونة، فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن قولها[(١)].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى، نكرة مقصودة، مبني على الضم ، في محل نصب، مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول، مبني على الفتح، صفة لـ«أي»، أو بدل.

وتصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريم وتشريف لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب؛ بفعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهياً يعد من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

﴿آمَنُوا﴾ الإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق. وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٣).

وقال ابن تيمية: معناه الإقرار، لا مجرد التصديق(١).

وعلى هذا فأبو طالب عم النبي ﷺ مصدق له، كما قال:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل(٢)

وقال أيضاً:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا(٣)

لكن تصديقه لم يدخله في الإيمان؛ لأنه لم يقر ولم يذعن ولم يَنقَدْ.

والإيمان شرعاً: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

وهو يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(٤).

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ «لا» ناهية، (راعنا) من المراعاة، أي: راع أحوالنا وارفق بنا، فكانوا يطلبون من النبي ﷺ مراعاتهم، والتأني بهم في تعليمه لهم، ليفهموا عنه ما يقول، وهي بهذا المعنى وهذا القصد لا بأس بها.

ولكن اليهود- لعنهم الله- كانوا يقولونها للنبي ﷺ ويورون بالرعونة، أي: يقصدون وصفه ﷺ بـ«الرعونة» وهي الحمق والجهل، تنقصاً منهم له ﷺ ومسبة له، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٢٩٠-٢٩٣، ٥٢٩-٥٤٣، ٦٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩)، و«الحماسة المغربية» (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: «ديوان أبي طالب» ص١٠٨، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٦١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٦)- الأثر (١٠٣٧).

﴿وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٤٦].

وكما كانوا يُحيُّون النبي ﷺ بقولهم: السام عليك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨]. ويقصدون بالسام الموت؛ ولهذا أمر ﷺ بالرد عليهم بـ«وعليكم». وقال ﷺ: «**إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا**»(١).

فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن هذه المقالة «راعنا»، سدًّا لذريعة مشابهة اليهود في قيلهم، ومقصدهم السيئ، ولقطع الطريق أمامهم، وأمام مَن سلك مسلكهم من المنافقين؛ حتى لا يستمروا في استعمال هذه المقالة، مع ما يضمرونه من المقصد السيئ، بحجة أن المسلمين يقولونها.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تشبَّه بقوم فهو منهم**»(٢).

ويؤخذ من الآية وجوب البُعد عن التعابير التي قد يفهم منها معانٍ سيئة، وسد الذرائع والوسائل التي يتوصل بها إلى أمر محظور.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ أي: إذا أردتم من الرسول ﷺ أن يراعيكم ويرفق بكم فلا تقولوا ﴿رَٰعِنَا﴾ ولكن قولوا ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ أي: ارفق بنا، وارقبنا وانتظرنا، نتبين ما تقول لنا، وتُعلمنا.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ لم يذكر المسموع؛ ليعم كل ما أمر الشرع باستماعه من سماع كلام الله- عز وجل- وكلام رسوله ﷺ، سماع تدبر، وطاعة وانقياد، واستجابة وانتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وسماع وعي تام ومزيد من التلقي، لا يحتاجون معه إلى طلب المراعاة والانتظار.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ عامة، وبخاصة اليهود ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عقاب، ﴿أَلِيمٞ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٩٨)، وأحمد (٦/ ٣٧، ٢٢٩) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٣١)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٧)، وأحمد (٢/ ٥٠).

«فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومؤلم معنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة أن يقولوا: «راعنا» وفي ذلك تعريض بذم اليهود، وذكر أذيتهم للنبي- ﷺ، وفي هذه الآية بيان السبب في ذلك وهو حسدهم للمؤمنين.

قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «ما» نافية، أي: ما يحب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

والكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافراً؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي الكافور، أو الكَفَر، وهو وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر ما بداخله من الثمر- وهكذا.

والكفر: ضد الإيمان، وهو: إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته، أو شيء من ذلك، وعدم الانقياد لشرع الله؛ استكباراً، أو جحوداً، أو إعراضاً، أو شكًّا، أو نفاقاً.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ «من» لبيان الجنس؛ لأن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى كلهم بعد بعثة محمد ﷺ كفار إلا مَن آمن به ﷺ، كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي، من حيث المعنى و﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ما يود الذين كفروا من هؤلاء وهؤلاء، والمراد بالمشركين: عبدة الأوثان والأصنام، من كفار قريش.

﴿أَن يُنَزَّلَ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب: «يُنْزَل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿يُنَزَّلَ﴾، والفرق بينهما: أن الإنزال أن ينزل الشيء جملة واحدة، والتنزيل أن ينزل شيئاً فشيئاً.

«وأن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل نصب مفعول «يود».

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ما يود هؤلاء حسداً منهم وبغياً تنزيل أيّ خير عليكم من ربكم، مهما قل، لا في الدين، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة.

والخير: النعمة والفضل، وأعظم ذلك الوحي والشرع الذي أنزله الله- عز وجل- على نبيه محمد ﷺ، والذي هو الخير، وأصل كل خير، به أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، وأنقذهم من النار، وأدخلهم الجنة.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، «من» لابتداء الغاية، أي: من خالقكم ومالككم ومدبركم، والمراد هنا: ربوبية الله الخاصة لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

ومعنى الآية: ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى وعَبَدَة الأوثان والأصنام؛ لشدة عداوتهم لكم، أن ينزل عليكم أيّ خير من ربكم من الوحي وغيره.

أما عبدة الأوثان والأصنام فلجهلهم وتمسكهم بما عليه آباؤهم من الشرك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وأما أهل الكتاب- وبخاصة اليهود- فلحسدهم للمسلمين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

ولهذا يجب على المسلمين الحذر والاحتراز من عموم الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، وعدم الاطمئنان إليهم، وعدم توليتهم شيئاً من أعمال الأمة القيادية؛ لأنهم مهما

تظاهروا بالنصح والود، فهم أعداء لا يودون الخير للمسلمين. وهذا ما حدا بعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لما أُخبر أن أبا موسى- رضي الله عنه- استخدم كاتباً نصرانيًّا أن يأمره بعزله، فراجعه أبوموسى في ذلك، وأثنى عليه في كتابته وعمله، وأنه لا يوجد مَن يقوم بعمله مثله. فكتب إليه عمر بعزله، وقال: اعتبر أنه مات، أتتعطل أمور الأمة؟

وقد أحسن القائل:

لا تأمنن عدوًّا لان جانبه ... خشونة الصل عقبى ذلك اللين(١)

وقال الآخر:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب(٢)

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ معطوف على قوله ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ أي: والله يخص برحمته الذي يشاء من عباده، كما قال تعالىٰ: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ [يوسف: ٥٦]. و﴿يَخۡتَصُّ﴾ على هذا متعدٍ، ومفعوله «من» الموصولة في محل نصب، ويجوز أن يكون لازماً، وتكون «من» في محل رفع فاعل، والمعنى: والله يختص، أي: ينفرد برحمته من يشاؤه.

والمعنيان متلازمان، فالله يخص برحمته مَن يشاء مِن عباده، فيختص وينفرد بها.

والمراد بـ«الرحمة» هنا ما يعم رحمة الدين والدنيا، ومن أعظم ذلك ما خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته من بعثته فيهم، وإنزال القرآن عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: من يريد، والمشيئة بمعنى الإرادة الكونية، أي: والله يخص برحمته الذي يريد كوناً رحمته.

---

(١) البيت للشريف الرضي.

(٢) البيت لعنترة بن شداد.

ففضل الله- عز وجل- لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، كما جاء في الأثر: «إن رزق الله لا يجلبه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره».

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم**»[(١)].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «ذو» بمعنى صاحب، والفضل: العطاء الزائد، أي: والله- عز وجل- صاحب العطاء الزائد كمية وكيفية، الواسع الكثير الكبير، الذي لا أعظم منه، ولا يقدر قدر عظمته إلا هو سبحانه وتعالى. يعطي عباده ما سألوه، وفوق ما سألوه، وما لم يسألوه. وكل ما هم فيه من نعم ومنن دينية ودنيوية هي من فضله وجوده وكرمه. ومن فضله العظيم وجوده العميم ما أنعم به على هذه الأمة من بعثة محمد ﷺ منهم، وإنزال القرآن بلغتهم، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤].

وقد قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي هذا إرغام لأنوف أهل البغي والحسد لهذه الأمة، على ما آتاها الله من فضله، من اليهود والمشركين وغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢١٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٤/ ٢٨٦، ٢٨٨)- من طريق حنش الصنعاني، قال ابن منده: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أمر أو نهي من مقتضيات الإيمان، وأن عدمه يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- نهي الله- عز وجل- المؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وبخاصة ما يورون به لمعانٍ سيئة كقولهم: «راعنا» ويورون بذلك عن معنى «الرعونة» أي: الحمق والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾.

٤- تجنّي اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه، وجرأتهم على وصف الرسول ﷺ والمؤمنين بالمعاني السيئة القبيحة.

٥- وجوب الاحتراز من التعابير التي قد توهم معاني سيئة، والحرص على الأدب في الألفاظ فذلك أكمل وأسلم.

٦- سد الذرائع الموصلة إلى أمر محظور شرعاً.

٧- النهي عن التشبه بالكفار في أقوالهم، وأفعالهم، ولباسهم، وأعيادهم، وعباداتهم، وعاداتهم، وغير ذلك.

٨- سعة التشريع الإسلامي ويسره، فلما نهى الله- عز وجل- المؤمنين أن يقولوا: «راعنا» أبدلهم عن ذلك فقال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾.

٩- وجوب السمع لأمر الله ورسوله، سماع تدبر وانتفاع، واستجابة وطاعة وانقياد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ ﴾.

١٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، للكافرين المخالفين لأمر الله، المرتكبين لنهيه، بالعذاب المؤلم حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

١١- شدة عداوة الكفرة من أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين، وكراهيتهم أن ينزل الله على المؤمنين أيّ خير من ربهم، فالمشركون بسبب جهلهم وتقليد آبائهم، وأهل الكتاب بسبب الحسد الذي ملأ قلوبهم، وأعمى بصائرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

١٢- أن الكفر ملة واحدة، ضد الإيمان وأهله، فالكفرة سواء كانوا من اليهود، أو النصارى أو المشركين، أو الملحدين، أو غيرهم كلهم مجمعون على عداوة الإيمان وأهله.

١٣- وجوب الحذر من الكفار؛ من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، وعدم تمكينهم من مسؤوليات الأمة وأسرارها، وعدم الاطمئنان إليهم وإلى مشوراتهم؛ لأنهم مهما أظهروا النصح والود فهم أعداء، لا يودون الخير للمسلمين، كما ذكر الله عنهم.

١٤- أنَّ مَن يتربص بالأمة الشر ولا يود لها الخير، من المنافقين وغيرهم من ضعاف الإيمان فيهم شبه من اليهود والمشركين.

١٥- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ والقرآن أول خير، وأعظم خير أنزل على هذه الأمة، وأول وأعظم ما حسدها عليه الحاسدون، من اليهود وغيرهم.

١٦- إثبات صفة العلو لله- عز وجل، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ علو الذاتِ، وعلو الصفات؛ لأن التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

١٧- إثبات الربوبية الخاصة لله- عز وجل- ربوبيته لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

١٨- اختصاص الله- عز وجل- محمداً ﷺ بهذه الرسالة العظيمة، وبهذا القرآن العظيم، واختصاص هذه الأمة، بجعله منهم، برحمته- عز وجل- وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾.

١٩- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يختص بها مَن يشاء.

٢٠- إثبات المشيئة والإرادة الكونية لله- عز وجل- وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾.

٢١- أن الخلق والملك والتدبير كله لله عز وجل، يختص مَن يشاء بما يشاء، ويمنع ما

يشاء عمَّن يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، وخيره لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

٢٢- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم على جميع خلقه، فكل ما هم فيه من نعم خاصة أو عامة دينية أو دنيوية أو أخروية فهي منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ﴾ [النحل: ٥٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾.

نبذ أهل الكتاب كتاب الله القرآن الكريم وراء ظهورهم، وكذبوا نبيه محمداً ﷺ زاعمين بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ومنكرين نسخ شريعتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، تبين جواز النسخ بين الشرائع، وفي الشريعة الواحدة، كما بيّن عز وجل- قبل هذا- تكذيبهم للأنبياء، وقتلهم لهم، خلاف ما يزعمون من تمسكهم بدينهم، وأن غاية ما حملهم على نبذ كتاب الله- عز وجل- وتكذيب رسوله هو البغي والحسد.

قوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ قرأ ابن عامر: «ما نُنْسِخ» بضم النون وكسر السين، وقرأ الباقون: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ بفتح النون والسين.

و«ما» في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ اسم شرط جازم، و«ننسخ» فعل الشرط، وجوابه «نأت».

وقد تكلم عز وجل عن نفسه في قوله «ننسخ» و«ننسها» و«نأت» بضمير الجمع تعظيماً لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه.

والنسخ لغة: الرفع والإزالة[1]، يُقال: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، أي: أزالته، ومنه النسخ في القرآن الكريم، كما في هذه الآية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: ما نرفع ونزل من لفظ آية أو حكمها، أو لفظها وحكمها جميعاً.

وهو شرعاً: رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بدليل شرعي.

﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ «من» لبيان الجنس، والآية لغة: العلامة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

---

(١) ويأتي النسخ لغة بمعنى النقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

آيات شرعية، كما في هذه، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]، وآيات كونية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما نبدل من آية»[1].

وعن مجاهد عن أصحاب عبدالله بن مسعود أنهم قالوا: «﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: نثبت خطها ونبدل حكمها»[2].

فهذه الآية أظهر الأدلة وأقواها على وجود النسخ في القرآن الكريم، بمعناه الشرعي، مع وقائع النسخ الصريحة في القرآن الكريم.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو: (أو نَنْسَأْها) بفتح النون الأولى وإسكان الثانية، وهمزة ساكنة بعد السين، أي: نؤخرها ونؤجلها، ونتركها فلا ننسخها[3]، ومن ذلك «بيع النسيئة» أي: التأجيل والتأخير، ومنه قول الشاعر:

لعمرك إن الموت ما أنسأ الفتى لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ[4]

وقرأ الباقون: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بضم النون الأولى، وإسكان الثانية، وكسر السين، وهي تدل على معنى القراءة الأولى، أي: نؤخرها ونؤجلها، ونتركها فلا ننسخها[5].

كما تحتمل معنى آخر، وهو النسيان، أي: ذهول القلب عن الشيء، والمعنى: أو ننسها رسول الله ﷺ؛ حتى لا يذكرها أبداً، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠١)- الأثر (١٠٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٩٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٣-٣٩٥)، «الحجة في القراءات» ص(١٠٩).

(٤) البيت لطرفة بن العبد. انظر «ديوانه» ص(٣٧)، «جامع البيان» (٢/ ٣٩٤). والبيت في الديوان: لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى...

(٥) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٣-٣٩٥)، «الحجة في القراءات» ص(١٠٩).

ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] أي: إلا ما شاء الله أن تنساه، فتذكره، أو تُذَكَّر به، أو إلا ما شاء الله أن تنساه فلا تذكره أبداً[١].

قال قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ قال: «وكان الله تعالى ينسي نبيّه ما يشاء وينسخ ما يشاء»[٢].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال عمر: «أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، وذلك أن أبيًّا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾»[٣].

والفرق بين ما نسخه الله- عز وجل- وما أنسأه نبيه ﷺ: أن المنسوخ قد يبقى ويذكر لفظه أو حكمه، وأما المنسأ فلا يبقى ولا يذكر لا لفظه، ولا حكمه، بل يذهل عنه القلب كلية.

﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ﴾ جواب الشرط «ما» أي: بخير منها مطلقاً، في الدين والدنيا والآخرة، من حيث العمل ومن حيث الثواب والأجر وغير ذلك.

فإن كان النسخ إلى أثقل، كما في نسخ التخيير بين الصيام والإطعام بإيجاب الصيام فالخيرية فيه بمضاعفة الأجر والثواب؛ لأن الأجر على قدر المشقة، مع مراعاة التدرج في التشريع.

وإن كان النسخ إلى أخف، كما في نسخ مصابرة الواحد للعشرة في القتال، بمصابرته لاثنين فقط، وكما في نسخ وجوب قيام الليل إلى الندب، فالخيرية في هذا بالتخفيف على الأمة مع تمام الأجر.

وإن كان النسخ إلى مساوٍ ومماثل كما في نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة فالخيرية في هذا بالاستسلام لأمر الله- عز وجل- وتمام الانقياد له.

﴿أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ في الخيرية، من حيث العمل والأجر وغير ذلك، أو مثلها في العمل،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٠-٣٩٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٤٨١).

وإن كان خيراً منها في العاقبة والأجر.

وفي الآية إشارة إلى أن المنسوخ لابدَّ له من بدل مقارن له، مرتبط به ارتباط الشرط بجوابه.

فما ينسخه الله- عز وجل- من الآيات، أو ينسئه نبيه ﷺ، أو يؤخره فلا ينسخه، أو يؤخر نزوله فلا ينزله يأت بخير منه أو مثله عملاً وثواباً وغير ذلك، ديناً ودنيا وأخرى.

والبدل الذي هو خير من المنسوخ أو مثله قد يكون هو الناسخ نفسه، وقد يكون هو وغيره مما يأتي به الله عز وجل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري في هذا الموضع والذي بعده، و«أنَّ» للتوكيد في هذا الموضع والذي يليه، أي: قد علمت ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهمزة الاستفهام إذا جاء بعدها «لم» فمعناها التقرير.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: أنك قد علمت وعلم كل مخاطب: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقدم المتعلِّق في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لتأكيد شمول قدرته- عز وجل- لكل شيء، مهما كان، وأيًّا كان، صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، ومن ذلك: قدرته- عز وجل- على نسخ ما شاء من الآيات، أو إنسائها، والإتيان بخير منها، أو مثلها، وغير ذلك.

و﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل» يدل على كمال قدرته- عز وجل- أي: أنه عز وجل ذو القدرة التامة العظيمة و«القدير» اسم من أسمائه- عز وجل-، ومعناه: الذي يفعل ما أراد بلا عجز، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقرير- كما سبق بيانه، أي: قد علمت أن الله له وحده ملك السموات والأرض.

وقدم الخبر في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص، أي: أن لله- عز وجل- وحده خاصة ملك السموات والأرض، خلقاً وملكاً وتدبيراً، لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]. فله- عز وجل- وحده ملك السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما.

ومن قدرته عز وجل على كل شيء وملكه للسموات والأرض أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الواو: استئنافية و«ما» نافية، والخطاب للمؤمنين، أي: وما لكم سوى الله ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لكم سوى الله أيُّ ولي يتولاكم، فيجلب لكم النفع والخير.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ما قبله و«لا» مؤكدة للنفي، أي: وما لكم من دون الله أيُّ نصير ينصركم، ويدفع عنكم الضر والشر.

قال الشاعر:

يا نفس مالك دون الله من واق ... وما على حدثان الدهر من باقي[1]

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بعد تقرير ثبوت النسخ في القرآن الكريم، بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الآية: إفحام لمنكري النسخ من اليهود وغيرهم، وذلك بتقرير قدرته- عز وجل- التامة على كل شيء، وتقرير أن له ملك السموات والأرض، فهو- عز وجل- ذو القدرة التامة على كل شيء، والمشيئة النافذة، في

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر «ديوانه» ص(٢١).

خلقه وملكه، وحكمه وشرعه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون، له الأمر والتدبير الكوني، وله الأمر والحكم الشرعي، يحل ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويوجِب ما يشاء، وينسخ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء.

قال الطبري(١): «وهذا الخبر- وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته- فإنه منه- جلَّ ثناؤه- تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد- صلى الله عليهما- لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة».

وقال ابن القيم(٢): «فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه، وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء، ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى، وتدفع نبوته، وتجحد رسالته، بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم، وبالله التوفيق، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء».

وقال ابن كثير(٣): «وفي هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم- لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً- كما زعمه بعضهم- جهلاً وكفراً، وإما نقلاً- كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وكذباً».

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ الآية.

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قال رافع بن حريملة، ووهب بن يزيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجِّر لنا أنهاراً، نتَّبعك

---

(١) في «جامع البيان» (١/ ٤٠٧).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٧٠).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٢١٧).

ونصدقك؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾»(١).

وعن مجاهد قال: «سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً قال: «**نعم، وهو لكم كالمائدة إن كفرتم**» فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أن يريهم الله جهرة»(٢).

قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، وجملة ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ ﴾ في محل نصب مفعول ﴿تُرِيدُونَ ﴾ والخطاب لهذه الأمة.

أي: بل أتريدون سؤال رسولكم محمد ﷺ سؤال تعنت وعناد، وأضافه- عز وجل- إليهم مع أنه رسوله؛ لأنه مرسل إليهم.

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ ﴾، الكاف للتشبيه، في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: كما سأل بنو إسرائيل موسى- عليه الصلاة والسلام- تعنتاً وعناداً، وفي هذا تعريض بذمهم، حيث شددوا، فشدد الله عليهم، كما قال تعالى عنهم مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٣]، وكقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

والمعنى: لا تكثروا سؤال رسولكم محمد ﷺ كما أكثر اليهود سؤال موسى- عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا تحذير لهذه الأمة، أن تحذو مع نبيها محمد ﷺ حذو اليهود مع موسى- عليه السلام- في كثرة سؤالهم، مما كان سبباً لهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٢)- الأثر (١٠٧٤). وانظر: «السيرة النبوية» (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٣).

تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقال ﷺ: **«ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»**(١).

وقال ﷺ: **«إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تسألوا عنها»**(٢).

وقال ﷺ: **«إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل عن مسألة لم تحرم، فحرمت من أجل مسألته»**(٣).

وكان ﷺ: **«ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**(٤).

وقال ﷺ: **«مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**(٥).

وقد ضرب صحابة رسول الله ﷺ- رضي الله عنهم- في الأدب معه ﷺ وقلة أسئلتهم له أروع الأمثلة، فعن أنس- رضي الله عنه- قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن الشيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع»(٦).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «إن كان ليأتي عليَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب»(٧).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، وأبونعيم في «الحلية» (٩/ ١٧)، والبيهقي (١٠/ ١٢، ١٣)، من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه- وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٢)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤) موقوفاً على أبي ثعلبة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، وأبوداود في السنة (٤٦١٠)، وأحمد (١/ ١٧٦)- من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، والنسائي في السهو (١٣٤١)- من حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢)، والنسائي في الصيام (٢٠٩١).

(٧) أخرجه الحافظ أبويعلى الموصلي في «مسنده»- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

ﷺ، ما سألوه إلا عن ثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. يعني هذا وأشباهه»[(١)].

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لا يدل على وقوع السؤال منهم، بل هو دال على عدم وقوعه لكن ربما جاش في نفوس بعضهم، أو أثارته شبه اليهود ومغالطاتهم؛ لهذا جاء التحذير من ذلك على سبيل الإنكار والذم.

قال ابن كثير[(٢)]: «والمراد أن الله ذم مَن سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى- عليه السلام- تعنتاً وتكذيباً وعناداً».

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية، و«يتبدل» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

والتبدل: أخذ شيء مكان شيء. و«يتبدل» أبلغ من «يبدل» لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

والمعنى: ومن يأخذِ الكفر ويخترْهُ ويَعْتَضْ به عن الإيمان.

وفي هذا إثبات الاختيار والإرادة للإنسان في فعله، والرد على الجبرية.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لاقترانه بـ«قد»، و«ضل» بمعنى: تاه، وبعد، وأخطأ.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق، وسواء الشيء وسطه، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]. أي: في وسط الجحيم.

والمعنى: فقد تاه وأخطأ وسط الطريق، والمنهج السوي، والطريق المستقيم، وخرج إلى حافات الطريق، وتشعبت به السبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

وفي هذا إشارة إلى أن كثرة سؤال الأنبياء والتعنت عليهم، ومخالفتهم، وتكذيبهم من تبدل الكفر بالإيمان، والضلال، والخروج عن وسط الطريق، والمنهج السوي، والطريق المستقيم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النسخ في القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١].

وعليه دلَّت وقائع النسخ الثابتة في القرآن الكريم، كتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، والتخيير بين صيام رمضان والإطعام بإيجاب الصيام، ونسخ مفهوم إباحة شرب الخمر في غير وقت الصلاة بتحريمه مطلقاً، ونسخ وجوب مصابرة الواحد من المسلمين للعشرة من الكفار في القتال بوجوب مصابرته لاثنين فقط، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ بالعفو عنها بلا بدل، ونسخ وجوب قيام الليل باستحبابه.

وهي لا تتجاوز عشرة أحكام، كما ذكر ذلك ابن القيم في «إعلام الموقعين»[1].

كما أن النسخ ثابت في السُّنَّة وفي الشرائع السابقة. فهو ثابت شرعاً وجائز عقلاً.

وهو قسمان: نسخ إلى بدل، ونسخ إلى غير بدل.

والنسخ إلى بدل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: نسخ إلى بدل أخف، وإلى بدل مساوٍ، وإلى بدل أثقل.

وينقسم باعتبار المنسوخ إلى ثلاثة أنواع: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، كما في نسخ لفظ آية الرجم وبقاء حكمها، ونسخ الحكم مع بقاء اللفظ، كما في آية المصابرة، وآية تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، ونسخ اللفظ والحكم معاً، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، ثم نسخن بخمسٍ معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من

---

(١) (٤/ ١٨٠).

القرآن[1]»[2].

فعشر رضعات يحرمن؛ نسخ لفظها وحكمها، وخمس رضعات يحرمن؛ نسخ لفظها وبقي حكمها.

ويمثل بعضهم لهذا النوع من النسخ وهو نسخ اللفظ والحكم معاً بما نسخ من سورة الأحزاب غير آية الرجم، حيث كانت- فيما روي- تعدل سورة البقرة، ثم نسخ منها ما نسخ[3].

وقد ذهب أبومسلم الأصفهاني من المعتزلة إلى إنكار وجود النسخ في القرآن الكريم، وشايعه على هذا الرأي عدد من المتأخرين في العصر الحاضر.

وفي الآيات القرآنية الدالة على ثبوت النسخ في القرآن الكريم، وإجماع المسلمين على ذلك، وفي وقائع النسخ الصحيحة التي لا يمكن دفعها، ما يكفي لدحض وتفنيد هذا القول[4].

٢- أن الله- عز وجل- قد يُنسى نبيه ﷺ ما شاء مما أوحاه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

٣- تقرير عظمة الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ بضمير العظمة؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم سبحانه ذو العظمة والكبرياء.

---

(١) أي: أن نسخها كان متأخراً حتى إن بعض الناس كانوا يقرؤونها بعد وفاته ﷺ، لعدم علمهم بنسخها.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٢)، وأبوداود في النكاح (٢٠٦٢)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٢).

(٣) كما في حديث زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: «كأي تقرأ سورة الأحزاب، أو كأي تعدها؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. قال: قط، لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة» الحديث، أخرجه أحمد (٥/ ١٣٢)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦): «ورواه النسائي من وجه آخر عن عاصم- وهو إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً».

(٤) انظر في تحقيق القول بثبوت النسخ في القرآن والرد على أبي مسلم ومن شايعه «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس- بتحقيقنا (١/ ٤٠٠-٤٠٤).

٤- أن الحكم قد يكون خيراً للعباد في وقت ويكون غيره خيراً منه في وقت آخر؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ فالمنسوخ قبل نسخه خير للعباد، وبعد نسخه ناسخه خير منه.

٥- أن ما ينسخه الله- عز وجل- من الآيات، أو ينسيه نبيه ﷺ يأتي سبحانه بخير منه للعباد في دينهم ودنياهم وأخراهم، أو يأتي بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

٦- أن النسخ لحكم عظيمة من أهمها مراعاة مصالح العباد، في الدين والدنيا والآخرة، سواء كان النسخ إلى بدل أو لغير بدل، إلى بدل أخف، أو إلى بدل مساو أو إلى بدل أثقل، نسخاً للفظ دون الحكم، أو للحكم دون اللفظ، أو لهما جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

فإن كان النسخ إلى غير بدل- كما في نسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، أو إلى بدل أخف كما في نسخ وجوب مصابرة الواحد للعشرة بمصابرته للاثنين، ونسخ وجوب قيام الليل إلى الندب، ففي هذا التخفيف على العباد مع تمام الأجر.

وإن كان النسخ إلى بدل مساوٍ- كما في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ففيه الابتلاء والامتحان لهم، ومضاعفة الأجر لهم على التسليم والانقياد، والطاعة والامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإن كان النسخ إلى بدل أثقل- كما في نسخ التخيير بين صيام رمضان والإطعام بإيجاب صيامه، ففيه مضاعفة الأجر والثواب لهم؛ لأن الأجر على قدر المشقة، مع مراعاتهم في التدرج في التشريع.

وإن كان النسخ للفظ مع بقاء الحكم- كما في نسخ آية الرجم، وبقاء حكمها، ففيه بيان فضل هذه الأمة بالعمل بما أنزل الله- عز وجل- وإن لم يجدوا نصه في القرآن الكريم، والرد على اليهود الذين أنكروا الرجم وكتموه- مع أنه منصوص عليه في التوراة.

وإن كان النسخ للحكم مع بقاء اللفظ- كما في نسخ التخيير بين الصيام والإطعام،

ونسخ مصابرة الواحد للعشرة، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ، ونسخ وجوب قيام الليل ففيه التعبد بتلاوته، وتذكير الأمة بنعمة الله عليهم بالتخفيف في نسخ هذا الحكم.

وإن كان النسخ للفظ والحكم معاً كما ورد أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، فقد يكون فيه مراعاة التخفيف والمصلحة، أو غير ذلك.

٧- أن القرآن ينسخ السنة، ولا خلاف في هذا، وأن السنة لا تنسخ القرآن على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، ولم يثبت شيء من هذا[1].

٨- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء، ومن ذلك نسخ ما شاء، وغير ذلك، وتقرير علمه ﷺ وعلم العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩- إثبات ملك الله- عز وجل- للسموات والأرض، ملكاً تامًّا لأعيانها، ملكاً وخلقاً وتدبيراً لها، واختصاصه- عز وجل- بذلك، وتقرير علم العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- لا ولي ولا نصير للمؤمنين في الحقيقة- غير الله- عز وجل فيجب اللجوء إليه والتوكل عليه في جلب النفع ودفع الضر- مع الأخذ بالأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١- إثبات رسالته ﷺ، وأنها عامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾.

١٢- تحذير هذه الأمة من كثرة سؤال الرسول ﷺ، والتشبه باليهود في كثرة سؤالهم لموسى- عليه الصلاة والسلام- تعنتاً منهم، وعناداً وتشدداً، وذم اليهود في مسلكهم هذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

١٣- إثبات رسالة موسى- عليه الصلاة والسلام- وما حصل له من الأذى من قومه، وفي ذلك تسلية لنبينا محمد ﷺ.

١٤- الإشارة إلى أن هذه الأمة ستتبع سنن من كان قبلها من الأمم كما قال ﷺ:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٩٨).

«لتتبعن سَنَنَ مَن كان قبلكم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ؟»(١).

١٥- ذم كثرة الأسئلة، وأن السؤال ينبغي أن يكون عند الحاجة، كما قال عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

١٦- التحذير من تبدل الكفر بالإيمان، وأن من فعل ذلك فقد ضل عن المنهج السوي، والطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٧- إثبات الإرادة والاختيار، للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٨- الإشارة إلى أن كثرة سؤال الأنبياء فيما لا تدعو الحاجة إليه تعنتاً وعناداً من تبدل الكفر بالإيمان، والخروج عن سواء السبيل.

١٩- أن الهدى وسلوك الطريق المستقيم، والمنهج القويم بالإيمان، واتباع الرسل- عليهم الصلاة والسلام.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)- من حديث أبي سعيد- رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾.

هذا تأكيد لحسد أهل الكتاب للمؤمنين وتصريح بمفهوم قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فكان حُيَيُّ بن أخطب وأبوياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾»(١).

وعن كعب بن مالك- رضي الله عنه: «أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ، وفيه أنزل الله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾.

قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: أحب وتمنى كثير من اليهود والنصارى، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود التوراة، على لسان موسى عليه السلام، وأنزل على النصارى الإنجيل، على لسان عيسى بن مريم عليه السلام.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٤)- الأثر (١٠٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٤-٢٠٥)- الأثر (١٠٨٣).

﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾ «لو» بمعنى «أن» المصدرية، أي: ودوا ردّكم.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، أي: ودوا وتمنوا وأحبوا لو يرجعونكم من بعد إيمانكم بالله ورسوله، وبما أنزل على رسوله ﷺ من الوحي والشرع المطهر.

﴿كُفَّارًا﴾ مرتدين عن دينكم، متبعين لهم في دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿حَسَدًا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل الحسد، لهذه الأمة، لما منَّ الله عليهم به من نعمة الإسلام والإيمان، وبعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن، وذلك أعظم نعمة، وقد قيل: «كل صاحب نعمة محسود».

والحسد: تمني زوال نعمة الله عن الغير، سواء تمنى كونها له أو لغيره، أو مجرد زوالها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «الحسد: كراهة نعمة الله، على الغير».

والحسد داء وبيل ومرض خطير من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر.

﴿مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: نابعاً من قبل أنفسهم الشريرة، لخبث نواياهم، وسوء طواياهم، وحقدهم الدفين على المؤمنين، لا لسبب غير ذلك، قال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: من بعد ما اتضح وظهر لهم أن ما أنتم عليه هو الحق الثابت، والصدق والعدل، وصدق محمد ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله- عز وجل-، كما جاءت البشارة به في كتبهم التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١١).

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكانوا قبل مبعثه ﷺ يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي وسوف نتبعه وننتصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً من عند أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقد حذرهم الله- عز وجل- من هذا المسلك بعدما امتنَّ عليهم بنعمه فقال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٣].

ولكن هذا ديدنهم، فهم أعداء الرسل- عليهم الصلاة والسلام- فمنهم من كذبوهم، ومنهم من قتلوهم، كما قال عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ الأمر للمؤمنين، والعفو: التجاوز، وترك المؤاخذة على الذنب.

والصفح: الإعراض عما حصل كلية، وترك اللوم والتثريب، وإزالة أثره في النفس، وهو أعلى درجات العفو، والكمال باجتماعهما.

أي: فاعفوا واصفحوا عما حصل لكم من أذى من أهل الكتاب وغيرهم ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: حتى يأتي الله بأمره بقتالهم.

وفي هذا دلالة على مراعاة التشريع الإسلامي للظروف والأحوال، والتدرج في التشريع؛ ولهذا لم يأمر الله- عز وجل- بالقتال حتى تمت تعبئة الأمة معنويًّا بالإيمان، وماديًّا بالقوة والعدد والعدة.

عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- أخبره، قال: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٦]. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إلى آخر الآية. وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول، ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فأسلموا»(١).

وقد ذهب كثير من السلف، منهم ابن عباس- رضي الله عنهما(٢)- وجمع من التابعين إلى نسخ الآية ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بآيات القتال كقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]. واختار هذا جمع من المفسرين منهم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٦).

(٢) أخرجه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٦)- الأثر (١٠٨٩).

الطبري وابن كثير[١].

والذي يظهر- والله أعلم- أن هذا ليس من قبيل النسخ لما يلي:

أولاً: أن الآية: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مغياة بغاية ينتهي حكمها عند حلول تلك الغاية ولا يعد نسخاً.

ثانياً: أنه لا تعارض في الحقيقة بين قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ وكذا آيات الأمر بالعفو والصفح والإعراض عن المشركين، وأهل الكتاب، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ونحو ذلك، وبين آيات القتال عامة؛ لأن كلاً منهما موقوتة بمناسبتها، وعلى الأمة أن تطبق ما قدرت عليه منهما، حسب مراحل قوتها وضعفها فتطبق الأمر بالقتال حال قوتها، وتطبق الأمر بالعفو حال ضعفها[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«شيء» نكرة تعم أي شيء مهما كان ذلك الشيء، ومهما قَلّ أو كثر، صغر أو كبر.

﴿قَدِيرٞ﴾ أي: ذو قدرة تامة، وقدم المتعلق، وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لتأكيد كمال قدرته- عز وجل- وعمومها لكل شيء، وأنه- عز وجل- لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فهو- عز وجل- ذو قدرة تامة على كل شيء، يبدل الأحوال، ويأتي بأمره، ويعفو مع القدرة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النبأ: ١٤٩].

وقال ﷺ: «**لا أحد أصبر من الله على أذى يسمعه، إنهم يجعلون لله ندًّا، ويجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم**»[٣].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٢٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢١).

(٢) انظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي، ص(١٣٧)، «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ٤٢-٤٣)، «أضواء البيان» (١/ ٨٤)، «مناهل العرفان» (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٤)- من حديث عبدالله بن قيس- رضي الله عنه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

ذكر عز وجل مودة أهل الكتاب رد المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً حسداً لهم، وأمر المؤمنين بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره، بفرض القتال والفتح على المؤمنين، ونصرهم على من عاداهم، ثم أمر بعد ذلك بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لما فيها من العون على الصبر، وتحمل العفو والصفح، وعلى القتال عند فرضه والأمر به.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **الصلاة لغة**: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما...**»(١)، أي: الدعاء لهما.

قال الأعشى(٢):

تقول بنتي وقد قَرَّبتُ مرتَحِلاً ... يا رب جنِّب أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً

والصلاة شرعاً: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوا الصلاة فرضها ونفلها تامة كاملة قائمة، بشروطها وأركانها، وواجباتها، وسننها، هذا هو معنى إقامتها؛ ولهذا يأتي الأمر في القرآن الكريم والسنة النبوية- غالباً- بإقامة الصلاة، دون أن يُقال: «صلوا»؛ لأن المهم في الصلاة أن تؤدى كما شرعها الله قائمة تامة الشروط والأركان، والواجبات والسنن، فإن لم تكن كذلك، فهي صلاة ناقصة، غير قائمة، وربما كانت صلاة صورية فقط، لا تنفع صاحبها- كما هو حال كثير من المصلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وعن عمّار بن

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)- من حديث مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه.
(٢) انظر «ديوانه» ص(١٥١).

ياسر- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[(١)].

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة المفروضة طيبة بها نفوسكم لمستحقيها، وهم الأصناف الثمانية، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والزكاة لغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع، إذا نما وزاد.

وشرعاً: التعبد لله- عز وجل- بدفع حق مالي مخصوص، من مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال، وتنميه، ولا تنقصه؛ ولهذا قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[(٢)].

وتزكي المُخرج لها، في عقيدته وأخلاقه، وتطهره من رذيلة البخل والشح، وتكفر ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وتزكي وتنمي الثواب والأجر له، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّق بِعَدْلِ تمرةٍ مِن كسبٍ طيبٍ ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يُرَبِّيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّهُ حتى تكون مثلَ الجبل**»[(٣)].

كما أنها تزكي نفس آخذها، من الحقد والضغينة على إخوانه الأغنياء، وتعفه عن

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٢١).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٣٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، والترمذي في الزكاة (٦٦١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المكاسب المحرمة.

وخص الصلاة والزكاة؛ لأن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الإسلام، وأعظم العبادات- بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية.

ولأن الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وأهم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعاً.

وخصهما بالذكر أيضاً؛ لأنهما من أعظم أسباب العون والتمكين، والنصر المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: اسم شرط جازم، و«تقدموا»: فعل الشرط مجزوم بحذف النون.

﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ «من» بيانية، و«خير» نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، أي: أيَّ خير، مهما كان قليلاً أو كثيراً، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[١].

والمعنى: وما تقدموا لأنفسكم في حياتكم من خير أيًا كان ومهما كان، من صلاة وزكاة، وغير ذلك من أعمال البر والخير.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾: جواب الشرط، أي: تلقوه عند الله يوم القيامة، مدخراً لكم ثوابه، مضاعفاً لكم أجره، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي قوله: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ استجاشة للضمائر، وتحريك للهمم، بأن الإنسان إذا عمل،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة- اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٤١٧)، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (٢٣٤٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٢)- من حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه.

إنما يعمل لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»(١).

ولهذا قال ﷺ يوماً لأصحابه: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»(٢).

وقد قيل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدما ... ولم يتقدم من أراد تأخرا(٣)

وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى تكفله- عز وجل- التام بالإثابة على أعمال الخير. وقد أحسن القائل:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس(٤)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ «إن» حرف توكيد، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: إن الله بعملكم، أو بالذي تعملون بصير.

وهي تفيد العموم، أي: إن الله عالم بجميع أعمالكم، من أعمال الجوارح الظاهرة، وأعمال القلوب الباطنة، من الأقوال والأفعال، لا يخفى عليه منها شيء، وفي هذا ترغيب في العمل الصالح، وترهيب من ضده، ووعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

وفي تقديم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على المتعلق به «بصير» توكيد لعلمه- عز وجل- بأعمال العباد، وتوكيد للترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة كثير من أهل الكتاب وحسدهم لهذه الأمة- وبخاصة اليهود،

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات (٢٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٠)- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٢)- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البيتان لابن هاني. انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

(٤) البيت للحطيئة. انظر: «ديوانه» ص(٥١).

ومودتهم إرجاعهم بعد إيمانهم كفاراً، حسداً منهم وبغياً، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾.

٢- أن المرتد من كفر بعد إيمانه؛ لقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾.

٣- الإشارة لعظم نعمة الله على هذه الأمة بالإسلام والإيمان، وبعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾ أي: حسداً لكم على ما أعطاكم الله من الخير العظيم، والفضل العميم.

٤- أن حسد اليهود لهذه الأمة نابع من تلقاء أنفسهم الشريرة لما تنطوي عليه من خبث النوايا، وسوء الطوايا، والحقد الدفين، لا لسبب غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾. فالحسد من أخص صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

٥- وجوب الحذر من الحسد فإنه داء وبيل، ومرض خطير، من أعظم أسباب الاعتداء على الغير، ورد الحق ومخالفته، محبط للأعمال، ومن أخص صفات إبليس، وأعداء الرسل، من اليهود وغيرهم.

٦- أن من أهل الكتاب من سلم من هذا الوصف الذميم، فآمن بالنبي ﷺ، وهم قلة كعبدالله بن سلام رضي الله عنه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٧- نسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة، وأن من دان بغيره فهو كافر، لا يقبل منه لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٨- تعنت اليهود وعنادهم، ومخالفتهم الحق، وصدهم عنه، بعدما تبين لهم وعرفوه، كما يعرفون أبناءهم، ولهذا استحقوا وصف الغضب في القرآن الكريم.

٩- أن من خالف الأمر أو ارتكب النهي عن جهل قد يعذر لجهله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾.

١٠- التدرج في التشريع ومراعاة أحوال الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فلحال ضعف الأمة ما يناسبه، ولحال قوتها ما يناسبه.

١١- جواز مهادنة الكفار في حال ضعف المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، وليس من الحكمة التحرش بالكفار، وإعلان القتال لهم قبل تعبئة الأمة معنويًّا بالإيمان وماديًّا بالسلاح والتدريب والعتاد، والجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب.

١٢- إذا نجع العفو والصفح فلا ينتقل للعقاب والقتال؛ لحصول المقصود بالعفو والصفح، مع أن ذلك أيسر وأسهل، وفيه دعوة للمعتدي، وتحبيب له بترك الأذى والاعتداء.

١٣- أن من تمام العفو، وكمال أجره أن يقترن بالصفح، وهو ترك اللوم والتثريب.

١٤- أنه عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾.

١٥- قدرة الله- عز وجل- التامة الشاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

١٦- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بفرض الجهاد وإمدادهم بالقوة والتمكين، وقد تحقق لهم ذلك بفضل الله عز وجل.

١٧- وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

١٨- عظم شأن الصلاة في الإسلام؛ لهذا خصّها عز وجل بالذكر من بين العبادات البدنية، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده، وأهم العبادات- بعد الشهادتين، وهي الصلة بين العبد وربه.

١٩- أن المهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛

لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٠- أن الصلاة أهم وأعظم وآكد من الزكاة لتقديمها عليها في الذكر- غالباً- في القرآن والسنة.

٢١- أهمية الزكاة، فهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعاً، فهما القرينتان، ففي الصلاة: الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة: الإحسان إلى عباد الله.

٢٢- أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم أسباب العون على أمور الدنيا والدين، والتمكين والنصر المبين، والثواب العظيم.

٢٣- أن ما يقدمه الإنسان في هذه الحياة من خير فلنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٢٤- أن ما يقدمه المرء في هذه الحياة من خير أيًّا كان، ومهما كان، قليلاً كان أو كثيراً يجد ثوابه مضاعفاً عند الله- عز وجل- أحوج ما يكون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

٢٥- تكفل الله- عز وجل- بالمجازاة على أعمال الخير كلها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- الترغيب في الخير قولاً وعملاً؛ وإنفاقاً وبذلاً، والاستزادة من ذلك.

٢٧- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على أعمال العباد كلها، فيجازي كلاً بما عمل، وفي هذا ترغيب في العمل الصالح وترهيب من ضده، ووعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، فقال اليهود: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ كما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

قال ابن القيم: «هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً، فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى»(١).

و«إلا»: أداة حصر، فحصرت كل طائفة منهم دخول الجنة فيهم، وقصرته عليهم فحجَّروا واسعاً، وحصروا فضل الله تعالى.

فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، جملة ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ معترضة، و«تلك»: اسم إشارة، والإشارة لمقالتهم.

﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ «أماني» جمع أمنية، أي: تلك أماني يتمنونها على الله بغير حق، والتمني هو: الطمع في طلب ما يعلم عدم حصوله؛ لتعذره واستحالته كما في قول الشاعر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٣).

ألا ليـــت الشـــباب يعـــود يومـــا فـــأخبره بـــما فعـــل المشـــيب(١)

وفي المثل: «التمني رأس مال المفاليس».

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد أعطونا دليلكم وحجتكم على أنه لن يدخل الجنة غيركم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم.

وفي هذا تحد وتعجيز لهم، لإظهار كذبهم؛ إذ لا برهان عندهم ولا حجة ولا دليل، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾.

قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ «بلى»: حرف جواب لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

والمعنى: «بلى» يدخل الجنة كل من أسلم وجهه لله وهو محسن وإن لم يكن هوداً أو نصارى، و«من»: شرطية، و«أسلم»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ومعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: توجه إلى الله بقلبه وقالبه وأخلص لله عمله، وهذا هو الشرط الأول لصحة العمل وقبوله وهو الإخلاص لله تعالى كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه محسن، أي: متعبد لله بما شرع وما جاء به رسوله محمد ﷺ، وهذا هو الشرط الثاني لصحة العمل وقبوله، وهو أن يكون وفق ما جاء في الشرع، كما قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٣) وقال

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٩٨٥م)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**(١).

فتضمنت هذه الآية شرطي صحة وقبول العمل، وهما: الإخلاص والمتابعة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن لم يخلص العمل لله تعالى فعمله باطل مردود كالمنافقين ونحوهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٧].

ومن تعبد الله بغير ما شرع فعمله باطل مردود، كالرهبان وأهل البدع ونحوهم.

قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ أي: فله ثواب عمله، وهي الجنة وما فيها من ألوان النعيم، وقدّم الخبر وهو قوله: «له» وسمّىٰ ثوابه «أجراً» تأكيداً لضمانه ﷻ له وتكفله به، تفضلا منه وكرماً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه **«أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»**(٢).

﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: عند ربه، خالقه ومالكه والمتصرف فيه، وفي هذا إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأوليائه، وتعظيم هذا الأجر؛ لأنه عند الله ﷻ وضامن له، وأنه لن يضيع

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان، الدليل على أن مات على الإيمان دخل الجنة قطعًا (٣٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عنده ﷻ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون وفيما أمامهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولهم نصيب من ذلك في دنياهم بسبب إيمانهم بالأمن النفسي والطمأنينة وانشراح الصدور، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١).

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا هم يحزنون على ما خلفوا في الدنيا بعد موتهم من أولاد وأهل ومال وغير ذلك؛ لثقتهم أن الله يتولى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وأيضاً لا يحزنون على ما مضى وفاتهم في حياتهم؛ لإيمانهم بقدر الله تعالى وأن الخيرة فيما يختاره الله لهم، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وإذا اجتمع للإنسان الأجر والثواب والسلامة من الخوف والحزن كملت له النعمة واندفعت عنه النقمة، وحصل على المرغوب، ونجا من المرهوب- نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

روى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما قدم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٣٤- ٤٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٨)، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٩).

أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾»[1].

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليست النصارى على شيء يعتد به من أمر الدين، أي: أنهم كفار، وليسوا على صواب ولا على حق.

وإنما كفَّر اليهود النصارى لإيمانهم بعيسى عليه السلام وبالإنجيل، وهم أي: اليهود يكفرون بعيسى وبالإنجيل، وقولهم هذا باطل؛ لأن النصارى لما كانوا متبعين لعيسى عليه السلام عاملين بالإنجيل كانوا على حق ودينهم صحيح فلما حرفوا وبدلوا صاروا ليسوا على شيء.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليست اليهود على شيء يعتد به من أمر الدين، أي أنهم كفار.

واليهود لما كانوا متبعين لموسى عليه السلام عاملين بالتوراة كانوا على حق، فلما حرفوا وبدلوا أو كفروا بعيسى عليه السلام وبالإنجيل صاروا ليسوا على شيء.

أما بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ونسخه جميع الشرائع السابقة فمن دان بغيره فليس على شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يتلون الكتاب، أي: يقرؤون الكتاب، و«ال» في الكتاب للجنس، أي: وهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويعلمون تصديق كل منهما للآخر.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب المقروء، وكل منهما مكتوب مقروء، فالتوراة كتبها الله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٣٤- ٤٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٨)، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٩).

تعالى بيده، وهي أيضاً والإنجيل كل منهما مكتوب مقروء بين الناس، وفي الحديث: قال آدم لموسى- عليهما الصلاة والسلام: «**أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده**»(١).

واليهود والنصارى وإن كان بعضهم أعداءً لبعض، ويكفر بعضهم بعضاً، إلا أنهم يتفقون هم وغيرهم من الكفار على عداوة الإسلام ويوالي بعضهم بعضاً ضد المسلمين؛ كما هو مشاهد وواقع.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، الكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، «ذلك»: اسم إشارة إلى مصدر الفعل «قال»، أي: مثل ذلك القول.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين لا علم عندهم، وهم مشركو العرب؛ لأنهم ليسوا أهل كتاب، فهم أميون لا علم عندهم، كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] ولهذا قال بعده: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ [البقرة: ١١٨]، يعني: اليهود والنصارى.

والمعنى هنا: أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام، كما قال الله عنهم: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

ولهذا قالوا: محمد صابئ، أي: خارج عن الدين أو لا دين له.

وقيل: المراد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين لا يعلمون من اليهود والنصارى أنفسهم، ممن لم يتلو الكتاب، فاستوى على هذا قول عالمهم وجاهلهم.

وقيل: الذين لا يعلمون من الأمم السابقة.

وفي هذا ذم وتجهيل لعلماء اليهود والنصارى حيث شبه قولهم بقول أهل الجهل الذين لا علم عندهم، وتوبيخ لهم، حيث نضموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم.

﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للدلالة على تمام المشابهة بين قول اليهود والنصارى وقول الذين لا يعلمون، ومصداق لقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٩٢)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

قبلكم» الحديث[١].

وها هم الرافضة- أخزاهم الله- يكفرون من عداهم من المسلمين، فصاروا في طليعة الجهلة الذين لا يعلمون وأشباه أهل الكتاب، من اليهود والنصارى.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فالله يقضي ويفصل بينهم يوم القيامة.

﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي: في الذي كانوا فيه يختلفون، أي في الخلاف الواقع بينهم، أي: بين اليهود والنصارى، وبين اليهود أنفسهم، وبين النصارى أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من الكفار وسائر الخلق.

فيبين ﷻ من كان على الحق ومن كان على الباطل، ويجازي كلا بعمله، ويعطي كل ذي حق حقه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦] .

قال السعدي[٢]: «ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك».

الفوائد والأحكام:

١- زعم اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة سواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾، فاليهود يقولون: لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة غيرهم.

٢- تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم وإعجابهم واعتدادهم بها، وتعصبهم لها وتحجيرهم فضل الله ﷻ الواسع العظيم.

٣- تكذيب الله ﷻ لهم في زعمهم هذا، وأن ذلك منهم مجرد أماني لا دليل عليها؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم في العلم (٢٦٦٩)- من حديث أبي سعيد- رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٢٦).

تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.
٤- لا ينبغي الاغترار بالأماني بدون عمل صالح فهي مجرد سراب.
٥- أن البينة على المدعي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾.
٦- إفحام الخصم؛ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.
٧- سعة فضل الله ﷻ، وأن من أخلص لله تعالى واتبع شرعه دخل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.
٨- أن شرطي صحة العمل وقبوله: الإخلاص لله تعالى ومتابعة شرعه.
٩- ثبوت الأجر العظيم لمن أخلص لله تعالى واتبع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾.
١٠- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ ﴾.
١١- أن الجزاء على وفق العمل ومن جنسه، فمن أخلص لله وأحسن في اتباع شرعه فله الإحسان والأجر العظيم عند ربه.
١٢- انتفاء الخوف والحزن عمن أخلص لله تعالى واتبع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.
١٣- الجمع لأهل الجنة بين حصول المطلوب وهو الأجر العظيم عند ربهم، وانتفاء المرهوب وهو الخوف والحزن.
١٤- الترغيب في الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه بذكر ما رتب على ذلك من الأجر العظيم، وانتفاء الخوف والحزن.
١٥- عداوة اليهود والنصارى فيما بينهم وتكفير بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فكفَّر اليهود النصارى؛ لأنهم آمنوا بعيسى وبالإنجيل الذي أنزله الله عليه، وكفَّر النصارى اليهود؛ لإنكارهم رسالة عيسى عليه السلام، وما جاء فيها من النسخ لبعض أحكام التوراة.
١٦- تسمية أتباع موسى عليه السلام بـ«اليهود» وأتباع شريعة عيسى عليه السلام بـ«النصارى»، ولا ينبغي أن يسمى أتباع عيسى بالمسيحيين؛ لأن المسيح منهم براء.

١٧- قيام الحجة على أهل الكتاب وتوبيخهم على مخالفتهم ما في كتبهم مع العلم بذلك مما لا عذر لهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بخلاف الجاهل فقد يعذر.

١٨- شدة عداوة اليهود لغيرهم من أهل الملل من النصارى وغيرهم؛ لأن الله قدمهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، والبادئ أشد وأظلم.

١٩- ذم وتجهيل اليهود والنصارى؛ لتشبيه قولهم بقول أهل الجهل الذين لا علم عندهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

٢٠- حكم الله ﷻ بين اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل يوم القيامة فيما بينهم من خلاف؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. فيبين من كان على الحق ومن كان على الباطل، ويجازي كلاً بعمله، ويعطي كل ذي حق حقه.

٢١- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء والفصل بين الناس.

٢٢- الخلاف بين أهل الملل، بل وبين أهل الملة الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وفي الحديث قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة (٣٩٩١- ٣٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد أيضاً (٣/ ١٢٠، ١٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ في النفي؛ لما فيه من معنى التحدي، كأنه يقول: أيُّ أحد يكون أظلم من هذا؛ أي: لا يمكن أن يكون أحد أظلم منه.

و﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل، أي: أشد ظلماً، والمعنى: لا أحد أشد ظلماً وجرماً. والظلم في اللغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً، فالظلم: النقص والتفريط في طاعة الله تعالى بترك ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نهى الله عنه، وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: من الذي منع مساجد الله، ومساجد الله: الأماكن التي أقيمت للسجود لله ﷻ وعبادته، وسميت مساجد أخذاً من السجود الذي هو من أعظم أركان الصلاة، وفيه القرب من الله تعالى كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء**»(١).

وفي إضافة «مساجد» إلى الله تشريف لها، وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «إن المساجد أحب البقاع إلى الله»(٢).

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الجملة بدل من «مساجد»، فهي في محل نصب؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧).

«مساجد» منصوب على أنه مفعول «منع».

أي: أن يذكر فيها اسمه ﷻ بالصلاة وقراءة القرآن وأنواع الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

والمعنى: لا أحد أشد ظلماً وجرماً من الذي منع مساجد الله أن يذكر اسم الله فيها، وتقام فيها الصلاة وأنواع الطاعات.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ معطوف على «منع» أي: وعمل واجتهد في خرابها، أي: في فسادها.

وخراب المساجد وفسادها نوعان: خراب وفساد حسي بهدمها وتدميرها وتقذيرها ونحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

وخراب وفساد معنوي بمنع الذكر والصلاة والعبادة فيها، والتضييق على المصلين وأذيتهم.

قال السعدي(١): «وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله ﷺ عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله ومشاقة».

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة ترجع إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ «ما»: نافية، واللام في «لهم» للاستحقاق، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي: ما كان يحق لهم دخولها.

والضمير «الهاء» يعود إلى المساجد، و«إلا»: أداة حصر، «خائفين»: حال، أي: إلا حال كونهم خائفين.

والمعنى: وما كان لهم دخولها شرعاً وقدراً إلا خائفين عقوبة لهم، وفي هذا وعيد لهم،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٢٧).

ووعد وبشارة للمؤمنين بأن الله سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد، ففتح مكة، ومكن لرسوله ﷺ المؤمنين من البيت، ومنع المشركين من دخوله، ونهى المؤمنين أن يمكنوهم من دخول المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، ونادى علي وأبو هريرة- رضي الله عنهما- سنة تسع بأمر رسول الله ﷺ لهما: «**ألا لا يحج بعد العام مشرك**»(١).

كما أهلك الله ﷻ أبرهة وأصحاب الفيل عن آخرهم حفاظاً على بيته العتيق، وسلط المؤمنين على النصارى فأخرجوهم من بيت المقدس حفاظاً على مسرى رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة، أي: لهم في الدنيا ذل وفضيحة وعار وهوان، والجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين ومنعوهم عن المسجد الحرام، حرم الله عليهم دخوله ومنعهم منه.

ومن الخزي ما أصابهم يوم بدر من القتل الشنيع والأسر، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام وغير ذلك.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وقدم الخبر «لهم» في الجملتين لتأكيد ما أعده لهم من الخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

وقد قال ﷺ في حديث بُسْر بن أرطأة ﷺ: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الواو: استئنافية، «لله»: جار ومجرور في محل رفع خبر

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٢٦) «وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيِّه وهو بُسْر بن أرطأة، ويقال: ابن أبي أرطأة حديث سواه، وسوى حديث: «لا تقطع الأيدي في الغزو».

مقدم، واللام للملك، وقدم الخبر؛ لإفادة الاختصاص، أي: ولله سبحانه وتعالى خاصة ملك المشرق والمغرب.

﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: مكان شروق الشمس والقمر والنجوم.

﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: مكان غروب الشمس والقمر والنجوم.

والمعنى أن له ﷻ كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة وشمول ملكه لجميع الآفاق- إضافة إلى الإشارة إلى ما في المشرق والمغرب من الآيات العظيمة في كونهما محل طلوع الأنوار ومغاربها.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الفاء عاطفة، و«أين»: شرطية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿تُوَلُّوا۟﴾: فعل الشرط، أي: فأينما تتوجهوا في صلاتكم ودعائكم.

﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك، والإشارة إلى الجهة التي تولوا إليها.

أي: فتوجهكم إلى الله تعالى سواء كنتم في المشرق أو المغرب، أو غير ذلك من الجهات.

وقد قال ﷺ: «**إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[1].

والمعنى: فأين ومهما توجهتم إليه من الجهات فتوجهكم إلى الله إذا كان ذلك بأمره ﷻ لكم، كما في استقبالكم الكعبة، أو استقبالها تحرياً واجتهاداً عند خفاء القبلة، أو الصلاة إلى غير الكعبة في حال تعذر استقبالها كما في حال اشتداد القتال والمسايفة، وحال المرض ونحو ذلك، أو في صلاة التطوع في السفر على الراحلة حيثما توجهت، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- حك البزاق باليد في المسجد (٤٠٦)، ومسلم في المساجد، مواضع الصلاة- النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٤٧)، وأبو داود في الصلاة (٤٧٩)، والنسائي في المساجد (٧٢٤)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٦٣).

حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الملك والتيسير، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

واسع العلم، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واسع المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

واسع الرحمة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واسع الفضل والغنى والجود والعطاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

واسع السمع، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**»(٢)، وفي رواية أنها قالت: «**تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء**»(٣).

واسع الإحاطة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

واسع العفو، واسع الحلم، واسع الحكمة، واسع القدرة، واسع الصفات كلها،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- جواز صلاة النافلة على الدابة (٧٠٠)، والنسائي في الصلاة (٤٩١).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد- باب (وكان الله سميعاً بصيراً) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢)، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٤٢)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (٢٧٣).

والواسع من أسماء الله ﷻ.

﴿عَلِيمٌ﴾: ذو علم، محيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ قرأ ابن عامر: ﴿قَالُواْ﴾ بغير واو، وقرأ الباقون ﴿وَقَالُواْ﴾ بالواو.

أي: قال اليهود والنصارى والمشركون ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ أي: جعل الله له ولداً، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله.

كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي: فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما أحد أصبر من الله على أذى يسمعه، إنهم يجعلون لله نداً، ويجعلون لله ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم**»(٢).

«سبحانه» تنزيهاً لنفسه ﷻ عن الولد وعن السبب المقتضي للولد، لأنه ﷻ الغني بذاته، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥).

[المؤمنون:٩١]، وقال تعالى حكاية لقول الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الصمد: ١- ٤].

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

نزه ﷻ نفسه عن الولد ثم أبطل دعوى من ادعى ذلك ببيان عظمته وغناه عن خلقه وعدم حاجته إلى ولد، فله ما في السموات والأرض، كل له قانتون، وخلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سابق، وله القضاء التام والأمر النافذ.

قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ «بل»: للإضراب وإبطال قولهم، وإثبات غناه ﷻ عن الولد وعن الخلق كلهم، «له»: اللام للملك، وقدم الخبر «له» للاختصاص، و«ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: بل له وحده جميع الذي في السموات والأرض من المخلوقات والعوالم ملكاً وخلقاً وتدبيراً.

﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: كل من هذه المخلوقات ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قدم الخبر لإفادة الحصر والاختصاص، أي: له وحده.

﴿قَٰنِتُونَ﴾ أي: مطيعون خاشعون ذليلون منقادون كوناً لأمره.

وفي قوله: ﴿قَٰنِتُونَ﴾ تغليب لجانب العقلاء تشريفاً لهم؛ لأن منهم الملائكة والرسل والأنبياء والصالحون.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ «بديع» على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مبدع، أي: مبدع السموات والأرض وخالقهما وما فيهما على غير مثال سابق.

وهذا من الأدلة على استحالة أن يكون له ولد، كما قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الآية: ١٠١].

فرتب ﷻ نفي الولد والصاحبة على قوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، و«قضى»: فعل الشرط؛ أي: وإذا أراد أمراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

«والأمر» واحد الأمور، وهو الشأن والشيء، كما قال تعالى في الآية الثانية: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: جملة جواب الشرط «إذا» وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، قرأ ابن عامر بنصب ﴿فَيَكُونَ﴾ جواباً للأمر «كن» فتكون الفاء للسببية، أي: فبسبب ذلك يكون، وقرأ الباقون برفع ﴿فَيَكُونُ﴾ وتكون الفاء للاستئناف، أي: فهو يكون.

و«إنما»: أداة حصر، أي: لا يقول له إلا «كن» مرة واحدة فيكون.

و«كان» هنا تامة، أي: فيحدث ويوجد ذلك الأمر ويقع، أي: أن أمره ﷻ تام نافذ واقع بلا تأخير، فلا يعجزه أو يستعصي عليه شيء.

فالذي أبدع السموات والأرض على غير مثال سابق، والذي إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون قادر على خلق ولد بلا أب، وفي هذا رد على النصارى في زعمهم أن المسيح ابن الله؛ لأنه خلق بلا أب، كما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فليس خلق عيسى من أم بلا أب بموجب كونه ابناً لله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أشد ظلماً وتعدياً ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾.

وفي المقابل: إن من أعدل الناس وأعظمهم إيماناً من سعى في عمارة المساجد حسيًّا ومعنويًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

[التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

٢- أن الذنوب والمعاصي تتفاوت فبعضها أعظم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣- أن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه تخريب وإفساد لها.

٤- عدم جواز التحجر وحجز الأماكن في المساجد، لما في ذلك من منع الناس من الصلاة في هذه الأماكن، ومن الجلوس للذكر والقراءة فيها، ولأنها أيضاً مساجد الله والناس فيها سواء.

٥- تشريف الله ﷻ للمساجد؛ لأن الله ﷻ أضافها إليه فقال: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾.

٦- وجوب تعظيم بيوت الله «المساجد» واحترامها وإعلاء شأنها حسيًّا ومعنويًّا.

٧- وجوب تطهير المساجد مما يخل بإخلاص العبادة لله فيها كالقبور والصور ونحو ذلك؛ لأنها مساجد الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨].

٨- البشارة للمؤمنين ووعدهم بأن العاقبة لهم، والوعيد للذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، أن الله سيذلهم ويخزيهم، ويمنعون هم من دخولها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾.

وقد حقق الله ذلك، فحرم الله ﷻ دخول المشركين والكفار المساجد، وأوجب على المؤمنين منعهم من ذلك.

٩- الوعيد الشديد للذين يمنعون ذكر الله في المساجد ويسعون في خرابها بالخزي والذل والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لشدة ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فجمع لهم بين العذاب العاجل والعذاب الآجل.

١٠- أن العز كل العز في طاعة الله- تعالى- وأن الذل كل الذل في معصية الله- تعالى.

١١- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

١٢- أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٣- أن لله ﷻ وحده المشرق والمغرب والملك كله؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

١٤- أن لله ﷻ أن يوجه عباده في العبادة إلى ما شاء من مشرق أو مغرب أو غير ذلك؛ لأن له المشرق والمغرب والملك كله، والتدبير والتصرف في ذلك.

١٥- أن المصلي إلى القبلة أينما توجه في صلاته، فهو متوجه إلى الله سواء توجه إلى المشرق أو إلى المغرب أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

١٦- إثبات الوجه لله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

١٧- إثبات صفة الواسع لله ﷻ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾، فهو واسع في مغفرته ورحمته وجوده وكرمه وعفوه وحلمه، وفي جميع صفاته، سبحانه وتعالى.

١٨- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٩- جرأة أهل الكفر والشرك من اليهود والنصارى ومشركي العرب على الله بنسبتهم الولد إليه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

٢٠- تنزيه الله ﷻ نفسه عما وصفه به الظالمون من اتخاذ الولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، ووجوب تنزيهه عن ذلك، وعن كل نقص.

٢١- إثبات استغناء الله ﷻ بذاته استغناءً تاماً عن الولد وعن الخلق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٢- تفرد الله ﷻ وحده بملك ما في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٣- سعة وعموم ملك الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٤- انقياد كل ما في السموات والأرض كوناً لله ﷻ وخضوعهم له؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

٢٥- قدرة الله ﷻ التامة العظيمة في خلق السموات والأرض، وهذه المخلوقات العظيمة العجيبة على غير مثال سابق؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٦- نفوذ أمر الله وقضائه الكوني، وانقياد كل شيء له بلا تأخير، فلا يعجزه شيء أو يمتنع عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٧- إثبات القول والكلام لله ﷻ بحرف وصوت، وفهم كل شيء لأمره وقوله حتى الجمادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٨- إثبات أن الله ﷻ يخلق الخلق بكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال ابن خزيمة(١): «وعلمنا أن الله جلَّ وعلا في محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه وقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله: ﴿كُن﴾ هو كلامه الذي به يكون الخلق، وكلامه ﷻ الذي به يكون الخلق غير الخلق الذي يكون مكوناً بكلامه، فافهم ولا تغلط ولا تغالط».

وقال ابن تيمية(٢): «وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه، فيقول لها: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هكذا في القرآن والتوراة وغيرهما، لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه ليس كلامه خالقا، ولا يقول أحد قط: إن كلام الله خلق السموات والأرض».

* * *

(١) في «كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل» (١٥/ ٣٩١).

(٢) في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤/ ٢٧٢).

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الذين ليسوا من ذوي العلم بالله وشرعه وما ينبغي له ﷻ.

واختلف في المراد بهم: فذهب طائفة من المفسرين إلى أن المراد بهم مشركو العرب، وقال بعض المفسرين: المراد بهم النصارى؛ لأن السياق معهم، وقال بعضهم: المراد بهم اليهود.

فعن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾»(١).

وقال بعضهم المراد بهم: اليهود والنصارى؛ لأن السياق مع أهل الكتاب كلهم، وقال بعضهم: المراد بهم أهل الكتاب ومشركو العرب وغيرهم؛ لأن كل من تفوه بمثل هذه المقالة فهو ممن لا يعلم.

﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ «لولا»: حرف تحضيض قصد منه التعجيز والتعنت والعناد والمكابرة، أي: هلَّا يكلمنا الله، كما يكلم ملائكته ورسله.

﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ «أو»: عاطفة، أي: أو هلَّا تأتينا آية، وقولهم «آية» بالتنكير يدل على شدة مكابرتهم وجحودهم لما جاءهم من الآيات فكأنهم لم تأتهم أية آية، ولقد جاءهم على

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥).

أيدي الرسل وألسنتهم من الآيات العظيمة ما تقوم به الحجة عليهم، وأعظم ذلك القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

قال أبو الطيب[1]:

وكيـــف يصـــح في الأذهـــان شيء إذا احتـــاج النهـــار إلى دليـــل

وكما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمـد وينكـر الفـم طعـم المـاء مـن سـقم[2]

وهم يعنون بقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ الآيات التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، ويطلبونها تعنتاً لا استرشاداً؛ جرأة على الله- عز وجل- ومحادة لرسله، كقول اليهود: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

وقول النصارى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢].

وقول مشركي العرب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل» أي: مثل قولهم هذا قال الذين من قبلهم من الأمم السابقة قبلهم، كما قال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٢٠.

(٢) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» ص٢٤٧.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: تشابهت قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون وقلوب الذين من قبلهم، أي: تشابهت قلوب الآخرين والأولين في الكفر والعتو والعناد ورد الحق وتكذيب الرسل؛ ولهذا تشابهت أقوالهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

لأن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال والأقوال أو فسادها، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت لقلبه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ هذا فيه رد على مقالة أهل الجهل والكفر والتعنت والعناد ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ بأنه ﷻ قد بين الآيات بما تقوم به الحجة على الخلق، ويهتدي به أهل اليقين، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿قَدۡ﴾ للتحقيق، ﴿بَيَّنَّا﴾ أظهرنا وفصلنا، ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جمع آية، وهي العلامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: علامة ملكه.

والآيات قسمان:

القسم الأول: آيات كونية أيد الله ﷻ بها رسله ومنها آيات ظاهرة في الكون.

والقسم الثاني: آيات شرعية؛ أنزلها الله تعالى في كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام، أعظمها وأفضلها القرآن الكريم المعجز بأقصر سورة منه.

وكل هذه الآيات دالة على عظمة الخالق واستحقاقه للعبادة دون سواه، وعلى صدق رسله عليهم الصلاة والسلام، وصدق ما جاؤوا به من الوحي وأن فيه هداية البشر وصلاحهم وسعادتهم في أمر دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- فصل من استبرأ لدينه (٥٢) ومسلم في المساقاة- أخذ الحلال وترك الحرام (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»(١).

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ «الإيقان» و«اليقين» هو العلم والإيمان والتصديق الجازم بالله ﷻ وكل ما يجب الإيمان به، الموجب للعمل، الذي لا يخالجه شك، وفي التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ دلالة على التجدد والاستمرار، وأن ذلك كان خُلُقاً لهم.

والمعنى: أن بيان الآيات وإظهارها إنما يستفيد منه أهل اليقين والعلم والإيمان الجازم، أما من عداهم، فكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٩﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة قول الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كما قال الذين من قبلهم وتشابه قلوبهم في الكفر والحسد والمكابرة والعناد، ورد عليهم بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وفي هذا تأكيد لبيان الآيات، أي: إنا أرسلناك بالحق بالآيات البينات بشيراً ونذيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ تكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة «إنا». و«نا» لأنه العظيم سبحانه وتعالى، والخطاب للنبي وفيه إثبات رسالته ﷺ، أي: إنا أرسلناك يا محمد أي: بعثناك، ولم يذكر المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأنه مرسل إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وقال ﷻ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، والمصاحبة، أي: إنا أرسلناك متلبسا بالحق، ومصحوباً

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالحق، أي: أن رسالتك حق، وما جئت به وهو القرآن حق، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

والحق: الثابت المستقر، ضد الباطل الزاهق الزائل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وهو أيضاً الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان، أي: حال كونك بشيراً ونذيراً، أي: بشيراً للمؤمنين بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة ،والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

والبشير المخبر بما يسر، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرته واستنار وجهه، كما قال كعب بن مالك ﷺ: «**وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك منه**»(١).

﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار والشقاء والعذاب، والنذير: هو المحذر المخوف من الشر.

والرسول ﷺ محذر ومخوف من عذاب الله تعالى وعقابه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة، فصبَّحهم الجيش فاجتاحهم**»(٢).

وفي حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل الساعة**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء من المعاصي (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

كفرسي رهان، ومثلي مثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أُتيتم، أُتيتم، ثم يقول رسول الله ﷺ: أنا ذلك»(١).

وكما قال «لَقيطِ الأيادي» منذراً ومحذراً قومه من عواقب غزو كسرى من قصيدة كتبها لهم بعنوان: «صرخة غيور»:

أبلــغ إيــاداً وخلِّــل في سراتهــم ... أني أرى الـرأيَ إن لم يُعـصَ قـد نصـعا

يـا قـوم لا تـأمنوا إن كنـتمُ غُـيَرًا ... عـلى نسـائكم كسرى ومـا جمعـا

هــذا كتــابي إلــيكم والنــذير معــاً ... لمـن رأى رأيَـه مـنكم ومـن سـمعا

وقـد بـذلت لكـم نصـحي بـلا دخـلٍ ... فاستيقظوا إن خـير العلـم مـا نفعـا(٢)

فمهمته ﷺ بيان الحق، والشهادة على الخلق، والبشارة للمؤمنين، والإنذار للكافرين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

كما أنه ﷺ مكلف بالعمل كغيره من الرسل والأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح التاء وجزم اللام «ولا تَسألْ» على اعتبار أن «لا» ناهية والفعل مبني للفاعل أي: ولا تسأل يا محمد عن أصحاب الجحيم، فبئس الحال حالهم، حال لا يتصورها الإنسان، ولا يحيط بها الوصف من شدة وفظاعة ما هم فيه من العذاب.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ برفع الفعل على اعتبار «لا» نافية، والفعل مبني لما لم يسم فاعله، أي: ولا تُسأل يا محمد عن أصحاب الجحيم، وهم الذين كفروا بك، وقد بلغت رسالة ربك؛ لأن مهمتك تبليغ الرسالة والبشارة للمؤمنين والإنذار للكافرين

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤).

(٢) انظر: «ديوان لقيط الإيادي» (ص٤)، «الحماسة البصرية» (١/ ٨٩)، «الذخائر والعبقريات» (٢/ ٢٢٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/ ٥٢٢).

وليس عليك هداية الخلق، ولا حسابهم، فذلك إلى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وأصحاب الجحيم، أي: ملازموها وأهلها، وسموا أصحاب الجحيم لملازمتهم إياها كما يلازم الصاحب صاحبه، و«الجحيم»: اسم من أسماء النار، أي النار المتأججة العظيمة الشديدة الحرارة التي يعلو بعضها بعضاً.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وبيان حدود مهمته، ووعيد وتهديد للكافرين المخالفين المعاندين.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ الواو: عاطفة، و«لن»: حرف نفي ونصب، والرضا: ضد الغضب، والخطاب للنبي ﷺ، و«لا» في قوله: ﴿وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ للتنصيص على أن كل طائفة منهم لن ترضى عنه بانفرادها، وليس المراد أنهم لن يرضوا عنه حال كونهم مجتمعين فقط.

أي: لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى مهما تألفتهم وحاولت رضاهم؛ لشدة تعنتهم وعنادهم وبغيهم وحسدهم وكفرهم، وكان ﷺ أول أمره يحب أن يتألف اليهود، كما يحب موافقتهم فيما لم ينه عنه، ثم بعد ذلك أُمر بمخالفتهم.

﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ «حتى» للغاية، والفعل «تتبع» منصوب بها، أو بأن المقدرة بعدها، أي: حتى أن تتبع ملتهم، أي: دينهم الذي كانوا عليه، فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهودياً، والنصارى لن يرضوا عنك حتى تكون نصرانياً؛ لأن كل فريق منهم يرى أنه هو الذي على الحق.

وفيه تيئيس من إسلامهم، وتنبيه إلى أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه ﷺ.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أكد الجملة بثلاثة مؤكدات: إنَّ، والقصر، وضمير الفصل «هو» أي: قل لهم يا محمد: ليس الهدى ما أنتم عليه من التحريف والتبديل، بل إن هدى الله وحده هو الهدى، مما جاءكم من الحق في كتبكم، ومن ذلك البشارة بمحمد ﷺ وإيجاب تصديقه واتباعه، وما جاء به محمد ﷺ من الهدى في الكتاب والسنة، وما سوى ذلك فهو ضلال، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وأمر ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فمن اهتدى بهدى الله فهو المهتدي، ومن اهتدى بغير هدى الله فهو ضال.

قال ابن كثير[١]: «أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل».

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن اتبعت أهواءهم، والخطاب للنبي ﷺ والضمير الهاء في ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ يعود إلى اليهود والنصارى، أي: والله لئن اتبعت أهواء اليهود والنصارى.

والهوى هو الرأي الناشئ عن شهوة لا عن دليل، وفي هذا دليل على أنهم ليسوا على هدى، بل اتباع هوى وعلى ضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: بعد الذي جاءك من العلم بالكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جواب القسم، و«ما»: نافية، «لك»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بالخبر المحذوف.

﴿مِن﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى للنفي.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٣٥).

﴿وَلِيٍّ﴾ مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ مؤخر، والولي: هو الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ما قبله، و«لا»: زائدة إعراباً مؤكدة للنفي من حيث المعنى، و«النصير» هو الذي ينصر غيره بدفع الضر والشر عنه.

والمعنى: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من الوحي ما لك من الله أيُّ ولي يتولاك، فيجلب لك النفع والخير، وما لك من الله أيُّ نصير ينصرك فيدفع عنك الضر والشر، فلا أحد يتولاك، ولا أحد ينصرك إذا الله تخلى عنك، أي: فلا أحد يجلب لك رحمته، ولا أحد يدفع عنك عذابه.

وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه أن يتبع أهواءهم بعد الذي جاءه من العلم، وتحذيره من ذلك لا يدل على وقوعه منه، بل ولا على جواز وقوعه منه؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ فيما يتعلق بتبليغ رسالة ربه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وفي الآية تحذير وتهديد لأمته أن يتبعوا أهواء أهل الكتاب بعد ما علموا من الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ «الذين»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: خبر المبتدأ.

والمراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية المؤمنون من هذه الأمة من الصحابة- رضوان الله عليهم- ومن بعدهم، والكتاب هو القرآن، فلما ذكر الله ﷻ عدم رضا اليهود والنصارى عنه ﷺ حتى يتبع ملتهم، أتبع ذلك بما يؤنسه ويسليه ويقوي قلبه

وهو أنه إن أبى اليهود والنصارى الإيمان به واتباع القرآن الكريم فإن أصحابه وأمته الذين أعطاهم الله هذا القرآن يتلونه حق تلاوته ويقومون بحقه ويتبعونه ويؤمنون به.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يتلونه حق تلاوته.

وقوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ من إضافة الوصف إلى موصوفه، وهو مفعول مطلق، أي: يتلونه تلاوة حقاً، أي: التلاوة الحق.

والتلاوة تطلق على قراءته وتلاوة لفظه، قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعلى تلاوة معناه وتفسيره، وعلى تلاوة أحكامه باتباعها والعمل بها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]، أي: تبعها.

فمعنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته بتدبر ألفاظه وقراءته قراءة صحيحة وترتيله، كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [الإنسان: ١٦- ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

ويتلونه حق تلاوته بتدبر معانيه وتفسيره حق التدبر.

ويتلونه حق تلاوته بتدبر أحكامه وأخباره ووعده ووعيده، حق التدبر، فيتبعون أحكامه ويعملون بها، امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، ويصدقون أخباره ووعده ووعيده، فيرجون ما فيه من وعد ويخافون ما فيه من وعيد.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤] أي: بتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وهذا هو المراد من إنزال القرآن الكريم وغيره من كتب الله تعالى.

فمن لم يتلُ كتاب الله حق تلاوته بتدبره لفظاً ومعنى، واتباع أحكامه، وتصديق أخباره لم ينتفع بتلاوته، بل ربما كان أبعد الناس عن ذلك، ولهذا لم ينتفع الخوارج بقراءتهم القرآن، بل كان سبباً لمروقهم من الدين وخروجهم على أئمة المسلمين، كما قال ﷺ: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١١)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبر المبتدأ «الذين»، أي: أولئك الذين يتلون القرآن حق تلاوته هم الذين يؤمنون ويصدقون به، وأشار إليهم بإشارة البعيد إشارة لعلو مرتبتهم ورفعة منزلتهم.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: ومن يكفر بالقرآن ويكذبه ويجحده.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جواب الشرط «من»، وقرن بالفاء لأنه جملة اسمية، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم، والخسران النقص وعدم الربح.

وأكد الخسران وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم» أي: فأولئك هم الخاسرون لا غيرهم، والذين بلغوا الغاية في الخسران، الذين خسروا الخسارة العظمى، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخسارة والمصيبة في الدين، التي ذهب فيها رأس المال مع الربح وكل شيء، فخسر الإنسان دينه ودنياه وأخراه، خسر نفسه وأهله وولده وماله، وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره … وما لكسر قناة الدين جبران[1]

ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أهل الكتاب اليهود والنصارى فيكون المراد بالكتاب التوراة والإنجيل.

فيكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى يتبعونه حق اتباعه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يؤمنون بكتابهم الذي أنزل عليهم، وبالنبي ﷺ وبالقرآن لدلالة كتبهم على ذلك، ويرضون عن رسول الله ﷺ وعما جاء به لموافقته لكتبهم وتصديق كتبهم له، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: ومن يكفر من أهل الكتاب بما أنزل عليهم ويكفر بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[١].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بالكتاب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من كتب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

هذا تذكير لبني إسرائيل بما سلف من نعمه؛ استعطافاً لقلوبهم علّها أن تلين وتقبل الحق، وبهذا خُتم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد سبق الكلام على هاتين الآيتين ويحسن الوقوف عند قوله هنا: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ مقارناً بقوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: ولا يقبل من أي نفس فداء ولا يؤخذ منها مقابل تخليصها من عذاب الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا تنفع نفساً شفاعة من شفع لها لتنجو من العذاب أو تحصل على الثواب؛ لأن من شرط الشفاعة رضى الله عن المشفوع له؛ لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الآية السابقة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا يقبل من نفسٍ عن نفس شفاعة؛ لأنه لا أحد يشفع لأحد إلا بإذن الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

فالشفاعة في ذلك اليوم لا تقبل ولا تنفع إلا ما خص من ذلك مما توفر فيه إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له- كما دل الكتاب والسنة على ذلك(١).

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو وعناد واستكبار أهل الكفر والشرك والجهل وجرأتهم على الله ومجادلتهم بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾.

٢- أن كل من لم يعرف لله ﷻ وما ينبغي له فهو جاهل غير عالم وإن كان محسوباً من ذوي العلم؛ لأن حقيقة العلم ولبه وأصله العلم بالله ﷻ وتعظيمه والقيام بما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣- تكذيب أهل الكفر والجهل لما جاءهم من الآيات الكونية والشرعية؛ لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، ولقد جاءهم من الآيات ما يليّن الصم الصلاب لو أنزل عليها، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

٤- في قول المكذبين من المشركين وغيرهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ دلالة على أنهم يقرون بأن الله يتكلم بحرف وصوت، فهم في هذا خير ممن ينفون الكلام عن الله ويقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم في النفس، كما قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا(٢)

٥- مجادلة المكذبين من الأمم السابقة رسلهم بالباطل، وتكذيبهم ما جاؤوهم به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾.

٦- تشابه قلوب المكذبين من الأولين والآخرين، واجتماعهم على رد الحق وتكذيب

(١) راجع ما تقدم في الكلام على الآية (٤٨) من هذه السورة.

(٢) البيت ينسب للأخطل. انظر: «شذور الذهب» ص٣٥.

الآيات والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

٧- أن الأقوال تابعة لما في القلوب وتنبئ عما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ فتشابهت أقوالهم لتشابه قلوبهم.

٨- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه، ببيان أن ما قاله المكذبون من قومه قال مثله المكذبون للرسل قبله، فليست المصيبة مصيبته وحده، بل هي كذلك مصيبة الرسل قبله، والمصائب كالتكاليف إذا عمت خفت، كما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

٩- إبطال دعوى المكذبين في قولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾؛ لأن مفهوم هذا أنه لم تأتهم آيات؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

١٠- أن الله ﷻ أقام الحجة على الخلق ببيان الآيات.

١١- تعظيم الله ﷻ لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

١٢- أنه لا ينتفع ببيان الآيات ويتبينها إلا أهل اليقين والتصديق الجازم؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، فيزداد بالآيات إيمانهم ويقينهم وعلمهم.

١٣- أن أهل الشك والريب لا تتبين لهم الآيات ولا ينتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

١٤- تأكيد بيانه ﷻ للآيات والرد على القائلين: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ أي: إنا أرسلناك بالحق بالآيات البينات بشيراً ونذيراً.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله ﷻ له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

١٦- أن مهمة الرسول ﷺ بيان الحق وتبليغ رسالة ربه، والبشارة لمن آمن وأطاع الله، والإنذار لمن كفر وعصى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾،

١٧- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وما سواه فهو باطل وضلال.

١٨- أن الأولى تقديم التبشير على التخويف والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ فقدم البشارة على الإنذار وقد قال ﷻ في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت أو تسبق غضبي**»(١).

١٩- أن اعتدال النفس البشرية وصلاحها واستقامتها في الجمع لها بين البشارة والإنذار؛ لتجمع بين الخوف والرجاء؛ لأن من غلب جانب الخوف قد يقنط وييئس من رحمة الله تعالى، ومن غلب جانب الرجاء قد يأمن من مكر الله.

٢٠- أن هداية الخلق بيد الله، وليس ذلك إليه ﷺ، ولا يُسأل عنها، ولا عن ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢١- شدة عذاب أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، والقراءة بالبناء للفاعل أدل على هذا المعنى: ﴿وَلَا تَسْأَلْ﴾ أي: ولا تسأل عن أصحاب الجحيم، أي: عن حالهم وشدة عذابهم.

٢٢- خلود أهل النار فيها وملازمتهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل، فلشدة عتو هؤلاء المكذبين وعنادهم وجرأتهم على الله ومجادلتهم بالباطل بقولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جوزوا بأشد عذاب الجحيم.

٢٤- عنصرية اليهود والنصارى فهم لا يرضون إلا عن من اتبع دينهم، وإن كان الحق خلاف ما هم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: لن يرضى عنك اليهود حتى تكون يهودياً، ولن يرضى عنك النصارى حتى تكون نصرانياً.

٢٥- حرص أهل الكتاب على إدخال الناس في دينهم، والواقع يشهد لهذا فإرساليات التبشير بالنصرانية تجوب كثيراً من بلاد العالم وخاصة في البلاد الفقيرة مثل أفريقيا وغيرها لشراء الذمم، وإدخال الناس في النصرانية الباطلة المحرفة، ويبذلون في

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٢٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

سبيل ذلك جهوداً مضنية وتضحيات جسيمة مادية ومعنوية تقصر عنها بكثير، بل لا تكاد تقارن بها جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام الذي هو الدين الحق، مصداق قول عمر ﷺ: «**اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة**»[1].

٢٦- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الكفر ملة واحدة ضد الإسلام.

٢٧- أن هدى الله هو الهدى، فمن اهتدى به فهو المهتدي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٨- أن ما عدا هدى الله فهو ضلال؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٩- الإشارة لنسخ الإسلام للأديان السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٣٠- التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣١- أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى بل أتباع هوى؛ لقوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾، ولو لم يكونوا أتباع هوى لآمنوا بما أنزل عليهم وبما أنزل على محمد ﷺ.

٣٢- أن اتباع الهوى بعد العلم أشد وأعظم ضلالاً وظلماً؛ لقيام الحجة، وانتفاء العذر؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وفي الآية الثانية: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣٣- أن ما جاء إلى الرسول ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة من العلم، بل هو أصل العلوم؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٣٤- أن من اتبع أهواء أهل الكتاب بعد ما جاءه من العلم فلا أحد يتولاه من دون الله، ولا أحد ينصره فيدفع عنه عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

---

(١) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٨، ٢٥٤).

٣٥- أن من لم يتوله الله ولم ينصره فليس له من دونه ولي ولا ناصر .

٣٦- أن الله ﷻ أنزل الكتب لتتلى وتتبع ويعمل بما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

٣٧- أن المؤمن بالقرآن حقاً من يتلوه ويتبعه ويعمل بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فمن لم يتله ويعمل به فليس بمؤمن.

٣٨- أن الإيمان بالقرآن يزيد ويكتمل بتمام تلاوته والعمل به، وينقص بنقصان ذلك.

٣٩- امتنان الله ﷻ على من آتاهم الكتاب وتلوه حق تلاوته وقاموا بحقه، وثناؤه عليهم، وبيان علو مرتبتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٤٠- أن من كفر بالقرآن أو بغيره من كتب الله أو بمحمد ﷺ أو بغيره من رسل الله ﷻ فهو الخاسر الخسارة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٤١- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى الخسارة في الدين.

٤٢- تأكيد وجوب ذكر نعمة الله ﷻ على بني إسرائيل ومن ذلك تفضيلهم على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤٣- إثبات يوم القيامة وشدته، ووجوب اتقائه، والاستعداد له بتقوى الله والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾.

٤٤- تحذير بني إسرائيل يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾.

٤٥- لا نجاة لأحد من أهوال يوم القيامة وعذابه إلا بتقوى الله ﷻ فلا نفس تغني عن نفس شيئاً ولا تقبل منها فدية ولا تنفعها شفاعة، ولا ناصر لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٦- إثبات أصل الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، فالشفاعة ثابتة ممن أذن الله له بالشفاعة، كشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف، وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض، وغير ذلك، لكنها لا تنفع إلا لمن رضي الله عنه.

ففي هذه الآية نفى نفع الشفاعة إلا لمن رضي الله عنه، وفي قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ نفى قبول الشفاعة إلا لمن أذن الله له بها.

٤٧- اختلاف أحوال القيامة عن أحوال الدنيا، فالناس في الدنيا يتعاونون، ويقدم الإنسان فدية ويتخلص في بعض المواقف، ويشفع بعض الناس لبعض، وينصر بعضهم بعضاً كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجاء بدون سلاح[1]

أي: انصر أخاك، أما في القيامة فهيهات ذلك كله.

* * *

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

بعد اختتام الآيات في تذكير بني إسرائيل، أتبع ﷻ ذلك بالتذكير بنعمة الله ﷻ على إبراهيم وعلى ذريته، بجعله إماماً للناس، وجعل البيت مثابة للناس وأمنا وموئلاً للأرزاق، ومجبى للثمرات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرفية شرطية بمعنى «حين» أي: واذكر يا محمد للمشركين ولأهل الكتاب وللناس جميعاً حين ابتلى إبراهيم، ربه و«إبراهيم»: مفعول مقدم، و«ربه»: فاعل مؤخر.

وإبراهيم هو نبي الله ورسوله وخليله- عليه الصلاة والسلام- وهو إبراهيم ابن آزر كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وهو الأب الثالث للأنبياء، فالأب الأول: آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، والثاني: نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، والأب الثالث: إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقال له: «أبو الأنبياء»؛ لأن كل من جاء بعده من الأنبياء هم من ذريته من كان منهم من العرب أو من بني إسرائيل.

وإبراهيم عليه السلام أحد أولي العزم، بل وأفضلهم بعد محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

والابتلاء: الامتحان، أي: امتحنه بكلمات.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضمير إبراهيم عليه السلام تكريم وتشريف له؛ لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة بل خاصة الخاصة.

وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ «كلمات» جمع كلمة، وهي كلمات شرعية وكونية.

فالكلمات الشرعية: ما أوحاه الله إليه وشرعه له من توحيد الله واجتناب الشرك وأداء المناسك، والقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والآيات بعدها، ومن ذلك الكوكب والقمر والشمس، كما جاء في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الآيات:٧٥-٧٦].

والكلمات الكونية ما امتحنه به وقدَّره عليه، من ذلك الهجرة من بلده إلى الشام، وإلقائه في النار، وأمره بالختان، وأمره بذبح ابنه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات: ١٠٨]، وهو في ذلك كله صابر محتسب.

قال ابن كثير(١): «وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق وإما طلب عدل، إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾».

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الفاء تدل على الفورية والمبادرة من إبراهيم ﷺ في إتمامهن.

أي: فأكملهن بالقيام بما أوجب الله عليه فيهن شرعاً، فعلاً لما أمره الله به، واجتناباً لما نهاه عنه، وصبراً واحتساباً على ما قدره الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: تمم ما أمر به.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: قال الله تعالى لإبراهيم ﷺ مجازاة له على إتمامه الكلمات، و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين الأول هنا الكاف، والثاني «إماماً».

أي: إني مصيرك كوناً وشرعاً للناس كلهم إماماً.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٣٧).

أي: قدوة في التَّوحيد والإخلاص لله تعالى والبراءة من الشرك، والقيام بأمر الله وفي الخير كله؛ ولهذا لم يأت بعده نبي إلا كان مأموراً باتباع ملته الحنيفية.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعل من ذريتي أئمة في الدين.

و«من» يحتمل أن تكون لبيان الجنس، أي: اجعل ذريتي كلهم أئمة، كما في قول عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: اجعلهم كلهم قرة أعين.

ويحتمل أن تكون «من» للتبعيض، أي: اجعل بعض ذريتي أئمة؛ لأن البعض قد لا يكون أهلاً لذلك، كما جرت بذلك سنن الله الكونية، ولهذا قال الله له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وإنما سأل إبراهيم عليه السلام لذريته الإمامة في الدين نصحاً لهم وشفقة عليهم ومحبة للخير لهم؛ لأن الإمامة في الدين أفضل درجة يتنافس فيها المتنافسون، كما قال عباد الرحمن في دعائهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

والذرية تطلق إطلاقاً عاماً فيدخل فيها أولاد الرجل وأولاد أولاده من ذكور وإناث وإن نزلوا، وتطلق الذرية عند الفقهاء إطلاقاً خاصاً على أولاد الرجل وأولاد بنيه بمحض الذكور دون أولاد البنات، فلو قال رجل: «أوقفت هذا المال على ذريتي» لم يدخل فيهم أولاد البنات.

وإنما دخل عيسى بن مريم- عليه الصلاة والسلام- مع ذرية إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ الآية، مع أنه ابن بنت؛ لأنه لا أب له، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ

وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٥].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله ﷻ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، قرأ حمزة وحفص ﴿عَهۡدِى﴾ بإسكان الياء، وقرأ الباقون بفتحها ﴿عَهۡدِيَ﴾، و«لا»: نافية، و«ينال»: فعل مضارع مرفوع بالضمة، أي: لا يصيب.

﴿عَهۡدِى﴾: فاعل، أي: تعهدي إليك بهذا، والعهد: الوعد المؤكد، وسمى ﷻ وعده عهداً؛ لأنه لا يخلف وعده.

و﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: مفعول به، أي: الظالمين بالشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: لا تصيب ولا يشمل تعهدي لك بالإمامة الظالمين من ذريتك بالشرك والكفر، فلا يكون أحد منهم إماماً، ومفهوم هذا أن غير الظالم سينال الإمامة، لكن مع إتيانه بأسبابها.

والمعنى: سأجعل من ذريتك أئمة، لكن لا يصيب ولا يشمل عهدي الظالمين منهم بالكفر والشرك، فلا يكون منهم إماماً يقتدى به.

فينال عهده ﷻ الرسل وأتباعهم المؤمنين، ولا ينال الظالمين من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

قال ابن كثير(١): «لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من أمته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلۡنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٤٠).

كتاب أنزل الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «وافقت ربي في ثلاثة: فقلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية»(١).

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: واذكر يا محمد إذ جعلنا البيت، أي: حين صيرنا البيت الحرام شرعاً وقدراً ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

و«ال» في «البيت» للعهد الذهني، أي: البيت المعهود المعروف العظيم، وهو الكعبة المشرفة، والبيت الحرام، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ المثابة: بمعنى المرجع، أي: مكانًا يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا للحج والعمرة والاعتكاف والعبادة والحصول على منافع دينية ودنيوية وأخروية، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧].

تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه القلوب، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

يستقبله المسلمون بوجوههم وقلوبهم في صلواتهم في كل يوم وليلة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٩)، والترمذي في تفسير (٢٩٥٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٩).

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلنا البيت أمناً للناس، أي: مكان وموضع أمن يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يحمل فيه السلاح، حتى الصيد يأمن فيه، وكذا الشجر والحشيش يأمن فيه من القطع، وحتى إن الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم فلا يعرض له.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ هذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ لأنه بعض من إمامته، عن أنس ﷺ قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب، وقال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ الآية»[1].

قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أي: واتخذ الناس وصيَّروا وجعلوا، وقرأ الباقون بكسرها على الأمر ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾، أي: واتخذوا أنتم وصيِّروا واجعلوا.

﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ «من مقام» جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول أول لـ«اتخذوا»، و«من»: لبيان الجنس، و«مقام إبراهيم»: مكان قيامه.

أي: واجعلوا وصيِّروا من مكان قيام إبراهيم في مقام قام فيه مصلى، ومن ذلك مقامه الخاص لبناء الكعبة على الحجر ليرفع قواعد البيت، كما سيأتي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [الآية: ١٢٧].

قال أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل[2]

ومقامه العام في كل مناسك ومشاعر الحج في عرفة والمزدلفة، ومنى، والجمرات،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة (٤٤٨٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٣)، و«خزانة الأدب» (٢/ ٦٢).

والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، وغير ذلك، والأمر للوجوب فيما هو واجب وللندب فيما هو مندوب.

﴿مُصَلًّى﴾: مفعول أول لـ«اتخذوا»، أي: مكان صلاة ودعاء وعبادة، ومن ذلك صلاة ركعتين خلف المقام بعد الطواف لفعله ﷺ، فإنه لما فرغ من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وصلى خلفه ركعتين؛ كما في حديث جابر ﷺ قال: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين»(١).

وعن ابن عمر ﷺ قال: «قدم رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين»(٢).

وكان المقام ملتصقاً بالكعبة في عهده ﷺ وفي خلافة أبي بكر ﷺ فأخره عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته، وقد قال ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا به وعضوا عليها بالنواجذ**»(٣)، وقال ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»(٤).

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾.

العهد: الأمر المؤكد، والوصية بأمر هام، أي: أوصينا إليهما وأمرناهما أمراً مؤكداً.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: وعهدنا إلى إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهو «بِكْر» إبراهيم ووحيده من جاريته هاجر القبطية، وهو أبو العرب.

وهو الذبيح على القول الصحيح، الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وأسلما أمرهما لله في ذلك. ففداه الله بذبح عظيم، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وابن ماجه في المناسك (١٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٩٦)، ومسلم في الحج (١٢٣٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٩٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧)- من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٦٢)، وابن ماجه في المقدمة (٩٧) من حديث حذيفة ﷺ. وقال: «حديث حسن».

ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الآيات: ١٠١-١٠٥].

﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ «أن»: تفسيرية، فيها تفسير للعهد في قوله: ﴿وَعَهِدۡنَآ﴾أي: عهدنا إليهما وقلنا لهما: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ أي: الكعبة والمسجد الحرام، وأضافه ﷻ إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً، كما قال إبراهيم ؈: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

أي: طهرا بيتي الحرام من الأقذار والنجاسات الحسية، من الأرجاس والنجاسات المعنوية من الشرك والأصنام وعبادة الأوثان وبناء القبور ودخول المشركين ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل الطائفين، الذين يطوفون بالبيت، والطواف: الدوران على الكعبة تعبداً لله ﷻ.

﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ معطوف على الطائفين، أي: ولأجل العاكفين والركع السجود، و﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: المقيمين فيه للعبادة، جمع عاكف، والاعتكاف: لزوم مسجدٍ لطاعة الله- تعالى.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ «الركع»: جمع راكع، و«السجود»: جمع ساجد، وهم المصلون، وخص الركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة بل هما أعظم أركان الصلاة من حيث الهيئة، كما أن القيام أفضل أركان الصلاة من حيث الذكر وهو القرآن.

وأيضاً فإنه لا يكون ركوع ولا سجود بلا قيام.

والصلاة أعظم من الطواف ومن الاعتكاف، وإنما بدأ في الآية بذكر الأخص فالأخص، فبدأ بذكر الطائفين؛ لأن الطواف خاص بالمسجد الحرام ثم ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾؛ لأن الاعتكاف خاص بالمساجد، ثم «الركع السجود»؛ لأن الصلاة تصح في كل مكان.

وفي سورة الحج ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٢٦].

فالموصوفون بهذه الصفات هم أهل البيت، وهم المقتدون بإبراهيم عليه السلام، دون من عداهم، ممن يزعمون الاقتداء به من أهل الكتاب والمشركين وهم على خلاف ملته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر حين قال إبراهيم داعياً ربه عز وجل ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، أي: يا رب، فـ«رب»: منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وحرف النداء محذوف للعلم به وللبداءة مباشرة باسم «الرب» والتيمن والتبرك به.

فدعا عليه السلام باسم الرب الذي له الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ «هذا»: مفعول أول لـ«جعل»، و﴿بَلَدًا﴾ مفعوله الثاني، أي: صيِّر هذا الوادي وهذا المكان، وهو المكان الذي أسكن فيه هاجر وابنها إسماعيل، كما في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ فدعا أن يكون الوادي والمكان بلداً، وأن يكون آمنا.

وقال هنا: «بلداً» بالتنكير لأن هذا الدعاء كان قبل بناء البيت وقبل أن يكون الوادي بلداً مسكوناً، وقال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [الآية: ٣٥] بالتعريف؛ لأن هذا الدعاء كان- والله أعلم- بعد بناء البيت وبعد أن كان الوادي بلداً مسكوناً، كما قال تعالى في سورة التين: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [الآية: ٣]، وقال في سورة البلد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [الآية: ١، ٢].

و«البلد» اسم للمكان المسكون كالمدينة والقرية.

﴿ءَامِنًا﴾: صفة لـ «بلداً»، أي: مكان وموضع أمن من الخوف فلا يرعب أهله.

وقد أجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام، فجعل مكة بلداً آمنا شرعاً وقدراً، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ومن أراده بسوء قصمه الله كما فعل بأبرهة وأصحاب الفيل.

وعن جابر بن عبدالله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**»(١).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها لا يقطع عضاها، ولا يصاد صيدها**»(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها**»(٣).

وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ لما أشرف على المدينة قال: «**اللهم إني أحرم ما بين لابتيها مثل ما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم...**» الحديث(٤).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت لها في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة**»(٥).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرماً، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف**»(٦).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٦٢) وأبو داود في المناسك (٢٠٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٧)، ومسلم في الحج (١٣٤٥)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٣)، ومسلم في الحج (١٣٦٥).

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٢٩)، ومسلم في الحج (١٣٦٠).

(٦) أخرجه مسلم في الحج (١٣٧٤).

خلاها. فقال العباس إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: إلا الإذخر»[(١)].

وفي حديث أبي شريح العدوي: «**إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ... الحديث**»[(٢)].

ولا منافاة بين هذين الحديثين وما في معناهما من الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها؛ ولهذا قال نبينا ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١].

﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام ربه بجعل مكة بلداً آمنا أتبع ذلك بدعوة أخرى وهي أن يرزق أهله من الثمرات؛ لأن النعمة لا تتم إلا بتوفر الأمن والرزق؛ ولهذا امتن الله عز وجل على قريش بقوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

ومعنى ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وأعط أهله من الثمرات، والرزق: العطاء.

﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بدل من قوله: (أهله) بدل بعض من كل، فخصص دعوته بالرزق بمن آمن من أهل الحرم بالله واليوم الآخر.

و«من»: موصولة، و«آمن»: صلة الموصول، أي: الذي آمن منهم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: وآمن باليوم الآخر؛ يوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب والأهوال، والجزاء على الأعمال، بالجنة أو النار.

وسمي بـ «اليوم الآخر» لأنه لا يوم بعده والإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان بشرعه، ومن ذلك بقية أركان الإيمان وهي: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وبالقدر خيره

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها (١٣٥٣)، وأبو داود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٩٢)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٤)، والنسائي في فضائل الحج (٢٨٧٦)، والترمذي في الحج (٨٠٩).

وشره، وغير ذلك مما أوجب الله الإيمان به.

كما يتضمن ذلك أركان الإسلام الخمسة وكل ما أوجب الله القيام به؛ لأن الإيمان والإسلام إذا أفرد أحدهما تضمن الآخر.

وهذا الدعاء من جوامع كلم النبوة فإنه لا قوام للحياة ولا لأمور الدنيا والدين إلا بالأمن والرزق.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ القائل هو الله ﷻ، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ أي: قال الله: وأرزق من كفر، أو: ومن كفر أرزقه أيضاً، فعم بالرزق من آمن ومن كفر، كما قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

فخص إبراهيم بالدعوة بالرزق من آمن فقط، وأجيب بتكفله ﷻ برزق الجميع من آمن ومن كفر، وهذا بخلاف دعوة إبراهيم السابقة لما قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فعمم إبراهيم بهذه الدعوة، وأجيب بتخصيصها بغير الظالمين بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ قرأ ابن عامر بإسكان الميم وتخفيف التاء: ﴿فَأُمْتِعُهُۥ﴾، وقرأ الباقون بفتح الميم وتشديد التاء: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾، أي: فأعطيه ما يتمتع به من مسكن ومأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل.

﴿قَلِيلًا﴾: صفة لظرف محذوف، أي: فأمتعه زماناً قليلاً، أي: زماناً قصيراً ؛ لأن عمر الإنسان مهما طال فهو قصير، ولأن الدنيا كلها بالنسبة للآخرة قليل.

وأيضاً فأمتعه متاعاً أو تمتعاً قليلاً، فيكون «قليلاً» صفة لمصدر محذوف، أي: متاعاً قليلاً من حيث عين المتاع.

فمهما أوتي الإنسان من الدنيا وملذاتها فذلك قليل بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢- ١٠٤].

وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

ومع قصر عمر الإنسان في هذه الدنيا، وقلة ما يحصل له من متاعها، فذلك مشوب بالكبد والكدر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] .

وكما قيل:

لا طيب للعيش ما دامت منغّصة لذّاتُهُ بادّكارِ الموتِ والهَرَمِ(٢)

إضافة إلى نزع البركة من العمر ومما يحصل عليه الإنسان من الدنيا بالنسبة لأهل الكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ ذكر الله الوعيد بالعذاب بعد ذكر الوعد بالمتاع احتراساً من أن يغتر الكافر فيظن أن تخويله بالنعم في الدنيا دليل على رضى الله تعالى عنه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] .

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٢٣٧٧) – من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «أوضح المسالك» (١/ ٢٤٢).

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[(١)].

ومعنى ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ثم ألجئه وأكرهه وأدفعه وأسوقه إلى عذاب النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يدفعون بشدة وقوة، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية: و«بئس»: فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، أي: وبئس المصير هي، أي: النار، و«المصير» المرجع والمآل والمآب.

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الله ﷻ لإبراهيم وامتحانه له بكلمات فيها تكاليف شرعية وأحكام كونية، وتذكير محمد ﷺ وأمته بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

٢- أن الابتلاء قد يكون في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فكل ما ابتلى الله به إبراهيم وأمره به شرعاً فهو خير، أما ما ابتلاه به كوناً فمنه ما هو خير محض، ومنه ما عاقبته إلى خير وإن كان ظاهره الشر كإلقائه في النار وأمره بذبح ابنه ونحو ذلك.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم عليه السلام وتشريفه بذلك لإضافة اسم الرب ﷻ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾.

٤- إتمام إبراهيم عليه السلام ووفاؤه بما أمر به؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

٥- فضل إبراهيم عليه السلام لإتمامه ما امتحنه الله به ووفائه به، ولهذا جعله الله للناس إماماً في التوحيد والإخلاص لله تعالى واجتناب الشرك، وقدوة في القيام بأمر الله وفي كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٢٣٧٧)- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

٦- إثبات القول لله ﷻ بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ الآية.

٧- إثبات السمع لله ﷻ؛ لأنه يسمع دعاء إبراهيم ويجيبه في هذه الآيات.

٨- فضل الإمامة في الدين، وأنها درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، لا ينالها إلا من قام بأمر الله وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٩- نصح إبراهيم عليه السلام لذريته وحبه الخير لهم؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

١٠- أن من أولى الناس بالدعاء وحب الخير لهم والصلاح ذرية الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وقال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية: ٤٠]، وكما قال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

١١- أن من كان من الظالمين بالكفر والشرك والمعاصي، لا يكون إماماً، ولا ينبغي أن يقتدى به؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

١٢- ينبغي الحذر من الظلم؛ لأن صاحبه لا ينال ما وعد الله به من الرفعة والإمامة في الدين والخير، بل إنه يهبط بصاحبه إلى أسفل سافلين، بل قد يكون صاحبه إماماً في الشر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [النحل: ٤١].

١٣- الإخبار بأنه سيكون من ذرية إبراهيم عليه السلام الظالمون.

١٤- إثبات العدل لله ﷻ؛ فمن أتم ما أمره الله به جعله الله إماماً وقدوة في الخير، ومن ظلم وخالف أمر الله حُرِمَ ذلك، بل وعوقب وعذب أيًّا كان.

١٥- التذكير بنعمة الله تعالى بجعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، يثوبون ويرجعون إليه لأداء مناسك الحج والعمرة والعبادة فيه من جميع أقطار الدنيا ويستقبلونه ويتوجهون إليه بقلوبهم أينما كانوا.

١٦- تعظيم البيت الحرام وفضيلته؛ لقوله تعالى: ﴿الْبَيْتَ﴾ أي: البيت المعهود والعظيم

المعروف، ولأن الله جعله مثابة للناس وأمناً، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له وتعظيماً، وأمر بتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية.

١٧- وجوب تأمين من دخل البيت الحرام ما لم يكن محدثاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ ولهذا لا يجوز القتال فيه ابتداءً.

١٨- الأمر بالاتخاذ من مقام إبراهيم مصلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وهو للوجوب فيما هو واجب كمناسك الحج الواجبة كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، المبيت بمزدلفة، ومنى، ورمي الجمار.

وهو للندب فيما هو مندوب كصلاة ركعتي الطواف خلف المقام.

١٩- عهد الله ﷻ ووصيته إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت الحرام من الشرك والأصنام وعبادة الأوثان والأرجاس الحسية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾.

٢٠- وجوب تطهير البيت الحرام من النجاسات الحسية والمعنوية؛ لأن الله أمر إبراهيم وإسماعيل بذلك وهو أمر لهما ولجميع المسلمين، وهكذا يجب تطهير سائر المساجد.

٢١- اشتراط طهارة مكان الطواف والصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٢- أن الأمر بتطهير البيت الحرام؛ لأجل الطائفين والعاكفين والمصلين، أي لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٣- التنويه بالطائفين والعاكفين والمصلين بالبيت الحرام؛ لأن الله أمر بتطهير البيت لأجلهم، وفي هذا ترغيب وحث على الطواف والاعتكاف والصلاة والتعبد في البيت الحرام.

٢٤- اختصاص البيت الحرام بالطواف؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ الآية.

٢٥- مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام، وجواز النوم فيه، وسائر المساجد من باب أولى، وقد ثبت أن ابن عمر- رضي الله عنهما- كان ينام في مسجد الرسول ﷺ

وهو عزب[١].

٢٦- أن من أفضل أركان الصلاة الركوع والسجود؛ ولهذا خصهما بالذكر، وأطلقهما على الصلاة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٧- توجه إبراهيم ﷺ إلى ربه ودعائه بجعل الحرم بلداً آمناً ورزق أهله من الثمرات واستجابته ﷻ لدعائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

٢٨- تذكير هذه الأمة بهذه النعمة من الله ﷻ عليهم وعلى أبيهم إبراهيم ﷺ حيث وفقه للدعاء واستجاب دعاءه، فجعل هذا البلد آمناً تأتيه الأرزاق من كل حدب وصوب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

٢٩- حاجة الخلق كلهم- بما فيهم الرسل والأنبياء وغيرهم- إلى سؤال الله ودعائه وحده لحصول المطلوب وزوال المرهوب، وأن أفضل دعاء الله ﷻ أن يدعى ويسأل باسم «الرب» كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ الآية، وكما قال ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، إلى غير ذلك، وهكذا كان دعاء غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن معنى الرب: الخالق المالك المدبر للكون المتصرف فيه، فمن شاء أمَّنه، ومن شاء أخافه، ومن شاء رزقه، ومن شاء منعه.

٣٠- شفقة إبراهيم ﷺ ورأفته بمن آمن من أهل البلد الحرام، ومن يؤمه من المسلمين للحج والعمرة والعبادة لدعائه لهم بالأمن والرزق.

٣١- أن من أعظم النعم نعمة الأمن والرزق، إذ لا قيام للدين ولا للحياة إلا بهما؛ لهذا دعا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧٣٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٩)، والنسائي في المساجد (٧٢٢)، والترمذي في الصلاة (٣٢١)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥١)، من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

إبراهيم عليه السلام بتوفرهما في البلد الحرام، ولهذا قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

٣٢- أن الدعاء إنما يشرع للمؤمنين، وهو من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض لقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فخص بالدعاء من آمن من أهل الحرم وقاصديه.

٣٣- وجوب الإيمان بالله وأنه أعظم أركان الإيمان، لهذا قدمه وخصه بالذكر مع الإيمان باليوم الآخر.

٣٤- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان؛ لأن الله قرنه بالإيمان به.

٣٥- تكفل الله عز وجل برزق جميع الخلق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، الناطق والبهيم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: ومن كفر سأرزقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

٣٦- أن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لكنه لا يعطي الدين إلا من يحب، ولهذا لا ينبغي أن يغتر الإنسان بما أعطيه من الدنيا فقد يكون ذلك استدراجاً له.

٣٧- أن متاع الدنيا مهما طال أو كثر فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

٣٨- أن مصير كل كافر إلى النار لا محيد ولا مفر لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

٣٩- إثبات النار وعذابها، وأنها بئس المصير والمرجع والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في حديثه الطويل في قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد- وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك عز وجل. قال: أوتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً- وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[1].

قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾، أي: واذكر يا محمد حين يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، والتعبير بالمضارع ﴿يَرْفَعُ﴾لاستحضار الصورة والحالة كأنها تشاهد.

و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة، وقواعد البيت أسسه التي يقوم عليها، ورفعها إبرازها من الأرض لتقوم عليها الجدران.

﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ «من»: بيانية، أي: من البيت الحرام «الكعبة».

وفي اختياره مادة الرفع بدل الإطالة، مع تعريف «القواعد» و«البيت» تنويه بهذا العمل العظيم، وتشريف وتعظيم للبيت الحرام والكعبة المشرفة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٤).

قال ابن القيم[١]: «ولم يقل قواعد البيت لما في إبهام القواعد، ولما في تبيينها بعد ذلك من الإيضاح، وتفخيم حال المبهم بما ليس في الإضافة».

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: معطوف على إبراهيم، وأخَّر ذكر إسماعيل- والله أعلم- للإشارة إلى التفاوت في عمل كل منهما؛ فإبراهيم هو الأصل فهو الذي يبني، وإسماعيل يعينه ويناوله الحجارة.

عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألم تَرَيْ أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم**» فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت**»[٢].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، أي: وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: حال كونهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، أي: يا ربنا، وحذفت منه ياء النداء لكثرة الاستعمال، وللتبرك بالبداءة باسم الرب ﷻ.

﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: يقول كل منهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، وتقبل الله تعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، ويرضا عن فاعله، فيثيبه على عمله بالأجر العظيم.

ولم يذكر مفعول «تقبل» ليعم رفع بناء البيت وغيره من القرب والطاعات.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الجملة تعليلية، مؤكدة بـ«إنَّ» والضمير المنفصل «أنت» أي: ندعوك، ونسألك أن تتقبل منا؛ لأنك أنت السميع العليم، تسمع دعاءنا، وتعلم حالنا وسرنا وعلانيتنا، لا يسمع دعاءنا، ولا يعلم حالنا سواك.

فجمعا- عليهما الصلاة والسلام- بين رفع قواعد البيت والإخلاص لله تعالى في العمل، وبين دعاء الله وخوفه ورجائه، والإشفاق من عدم القبول كما حكى الله تعالى عن المؤمنين المخلصين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خائفة ألا يتقبل منهم، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها، حين سألت رسول الله ﷺ عن المذكورين في هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا، يا ابنة**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٣٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٩٠٠).

الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[١].

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أنه ذو السمع الواسع الذي يسع جميع الأصوات، والذي هو صفة ذاتية ثابتة لله ﷻ، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ إلى آخر الآية»[٢].

قال ابن القيم[٣]:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

كما يدل «السميع» على أنه سبحانه السميع بمعنى المستجيب للدعاء، كما قال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] أي: مستجيب الدعاء. ومن ذلك قول المصلي: «**سمع الله لمن حمده**»[٤]؛ يعني: استجاب لمن حمده، والسمع بمعنى الاستجابة من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة، فمن شاء استجاب له، ومن

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في التوحيد- باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢)، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة- فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

(٣) في «النونية» ص (١٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٦٨٩)، ومسلم في الصلاة (٤) وأبو داود في الصلاة (٦٠١)، والنسائي في الإمامة (٧٩٤)، والترمذي في الصلاة (٣٦١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٦)- من حديث أنس رضي الله عنه.

شاء لم يستجب له.

و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أنه ذو العلم الواسع العظيم الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: ٩٨].

قال ابن القيم(١):

وهــو العلــيم أحــاط علــماً بالــذي … في الكــون مــن سر ومــن إعــلان
وبكــــل شيء علمــــه ســــبحانه … فهــو المحــيط ولــيس ذا نســيان
وكــذاك يعلــم مــا يكــون غــداً ومــا … قــد كــان والموجــود في ذا الآن
وكــذاك أمــر لم يكــن لــو كــا … ن كيـــف يكـــون ذا إمكـــان

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، وفي تكرار النداء إظهار الضراعة إلى الله- تعالى.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾، و«جعل» بمعنى: صيَّر تنصب مفعولين الأول هنا: الضمير «نا»، والثاني: «مسلمين».

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، أي: واجعلنا مستسلمين لك بالتوحيد منقادين لك بالطاعة مخلصين لك من الشرك، وهو دعاء منهما بزيادة الاستسلام والإخلاص والطاعة والثبات على ذلك.

وقد قال الله ﷻ لسيد الرسل وخاتمهم نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

كما أن فيه توطئة وتمهيداً لقوله بعده:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾أي: واجعل من ذريتنا أي: صيِّر من ذريتنا أمة مسلمة لك.

و«من»: للتبعيض، أو لبيان الجنس، كما في قوله ؏: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، والذرية: من تفرعوا من الإنسان من أولاده وأولاد أولاده وإن نزلوا.

---

(١) في «النونية» ص (١٤٦- ١٤٧).

والأمة: الجماعة العظيمة التي يجمعها أمر ذي بال، كالدين ونحو ذلك.

﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي: مستسلمة لك بالتوحيد، منقادة لك بالطاعة، مخلصة لك من الشرك.

وذرية إبراهيم: هم العرب وبنو إسرائيل، أما ذرية إسماعيل فهم العرب خاصة؛ ولهذا فإنهم أول من يدخل في هذه الدعوة؛ لكونهم من ذرية إبراهيم وإسماعيل، ولا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل سواهم، وأيضاً فإن السياق معهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

والمراد بذلك محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

ومع هذا فرسالته ﷺ عامة للعرب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما يدخل في هذه الدعوة بنو إسرائيل؛ لأنهم من ذرية إبراهيم؛ فأبوهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

ومما يؤيد أن هذه الدعوة عامة للعرب وغيرهم قول إبراهيم عليه السلام في الآيات السابقة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد استجاب الله ﷻ هذه الدعوة فأسلم جل قبائل العرب، كما أسلم بعض بني إسرائيل.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب: ﴿وَأَرْنَا﴾ بإسكان الراء، وقرأه أبو عمرو باختلاس كسرة الراء تخفيفاً، وقرأ الباقون بكسر الراء: ﴿وَأَرِنَا﴾.

و«نا»: مفعول أول لـ«أرِ»، و«مناسكنا»: مفعول ثانٍ؛ أي: بيِّن لنا مناسكنا حتى نراها وعلمنا إياها، والمناسك جمع منسك، وهو يعم العبادة ومكانها وزمانها، ومن ذلك مناسك الحج ومشاعره على الخصوص وغيرها.

﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾، أي: وفقنا للتوبة لنتوب، واقبلها منا، فتوبة الله على العبد: توفيقه للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وقبولها منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

والتوبة من العبد: الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

وشروطها خمسة: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم الرجوع إليها، وأن تكون في وقتها المناسب؛ قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة، وأن تكون خالصة لله.

والعبد مهما كان لابد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: وتب علينا؛ لأنك أنت التواب الرحيم، والجملة مؤكدة بـ«إنَّ» وضمير الفصل «أنت»، وهذا توسل بأسماء الله ﷻ المناسبة للمطلوب، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعّال»، ويدل على كثرة من يتوب عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل»، يدل على إثبات صفة الرحمة لله ﷻ وسعتها، رحمة ذاتية ثابتة له ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ فهو من

دعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام.

أي: يا ربنا وأرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا رسولاً منهم، حتى يقبلوا منه، ويفقهوا ويفهموا عنه، ويبين لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿فِيهِمْ﴾ ولم يقل: «لهم» لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول إليهم فقط؛ ولذلك حذف متعلق «رسولاً»؛ ليعم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي: يقرأ عليهم آياتك «القرآن الكريم» لفظاً وتحفيظاً، كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢١].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ويعلمهم الكتاب، أي: القرآن، وسمي القرآن بالكتاب لأنه مكتوب باللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين.

أي: ويعلمهم معاني بالقرآن وما فيه من الحكم والأحكام والأخبار والمواعظ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٤٤].

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الحكمة، وهي السُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

ومن الحكمة أيضاً معرفة أسرار التنزيل والعلة من مشروعية الأحكام والفقه والفهم في الدين، مما يزيد الإيمان ويرغب في الدخول في الإسلام.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم من الرذائل والأخلاق السيئة، وأعظمها الشرك بالله، وينمي في نفوسهم الإيمان والأخلاق الكريمة الفاضلة، وهذا- بعد توفيق الله تعالى ثمرة تلاوته ﷺ آيات الله عليهم، وتعليمهم معاني الكتاب والحكمة والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ؛ وقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والحاكم (٢/ ٦١٣)- وصححه، ووافقه الذهبي- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عن أبي ذر ﵁، عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ، فقال له: فرأيته يأمر بمكارم الأخلاق(١).

وعن العرباض بن سارية ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين**»(٢).

أي: دعوة أبي إبراهيم في قوله ﵇: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

«**وبشارة عيسى بي**» كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهو ﷺ مظهر هذه الدعوة وثمرتها، فإنه الرسول الذي هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأما غيره من رسل غير العرب فليسوا من ذرية إسماعيل، فشعيب من ذرية إبراهيم، وكذا كل أنبياء بني إسرائيل هم من ذرية إبراهيم، وأما هود وصالح فهما من العرب العاربة وليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل لما قبلها، أي: لأنك أنت العزيز الحكيم، وقد أكدت الجملة بـ «إنَّ»، وضمير الفصل «أنت».

و«العزيز»: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أن له ﷻ كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع فلا ينال جنابه سوء أو مكروه من الخلق ولو اجتمعوا على ذلك، وهو ممتنع عن كل عيب ونقص.

وعزة القهر والغلبة، فهو ذو القهر والغلبة، الذي خضع له كل شيء، الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٦١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٦١٣).

يدافع ولا يمانع، ولا يغالب كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وعزة القوة؛ فهو ذو القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال ابن القيم(١):

وهــو العزيــز فلــن يــرام جنابــه	**أنــى يــرام جنــاب ذي الســلطان**
وهــو العزيــز القــاهر الغــلاّب لم	**يغلبــه شيء هــذه صــفتان**
وهــو العزيــز بقــوة هــي وصــفه	**فــالعز حينئــذ ثــلاث معــان**
وهــي التــي كملــت لــه ســبحانه	**مــن كــل وجــه عــادم النقصــان**

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسمائه ﷻ على «وزن فعيل» مشتق من الحكم والحكمة، يدل على أنه ﷻ الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

كما يدل على أنه ﷻ ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية بأن يكون ما حكم الله به كوناً أو شرعاً أو جزاءً لغاية وحكمة، والحكمة الصورية وهي الحكمة من مجيء الحكم، كونيًّا أو شرعيًّا أو جزائيًّا على صورة معينة.

قال ابن القيم(٢):

وهــو الحكــيم وذاك مــن أوصــافه	**نوعــان أيضــاً مــا همــا عــدمان**
حكــم وإحكــام فكــل مــنهما	**نوعــان أيضــاً ثابتــا البرهــان**

---

(١) في «النونية» ص (١٤٧).

(٢) في «النونية» ص (١٤٧- ١٤٨).

والحكـــم شرعـــي وكـــوني ولا　　يتلازمـــان ومـــا همـــا ســـيان
والحكمـــة العليـــا عـــلى نـــوعين أيـــ　　ضـــا حصـــلا بقواطـــع البرهـــان
إحـــداهما في خلقـــه ســـبحانه　　نوعـــان أيضـــاً لـــيس يفترقـــان
إحكـــام هـــذا الخلـــق إذ إيجـــاده　　في غايـــة الإحكـــام والإتقـــان
وصـــدوره مـــن أجـــل غايـــات لـــه　　ولـــه عليهـــا حمـــد كـــل لســـان
والحكمـــة الأخـــرى فحكمـــة شرعـــه　　أيضـــاً وفيهـــا ذانـــك الوصـــفان
وغاياتهـــا الـــلاتي حمـــدن وكونهـــا　　في غايـــة الإتقـــان والإحســـان

فمن عزته ﷻ وحكمه وحكمته ونعمته بعثته لمحمد ﷺ؛ استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بالحدث التاريخي العظيم وهو رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام؛ ليكون مناراً وهداية وقبلة للمسلمين، والتنويه بعظمة الكعبة وشرفها، وفضل بنائها، وما في طي ذلك من النعمة العظيمة على هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾.

٢- التنويه بفضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام؛ لقيامهما ببناء البيت والدعاء بهذه الدعوات المباركة.

٣- لابد لإحكام البناء أن يؤسس على قواعد صلبة لئلا ينهار.

٤- مشروعية التعاون في أعمال الخير وعلى البر والتقوى، والتعاون في ذلك بين الآباء والأبناء.

٥- أن مدار ثمرة الأعمال على القبول؛ ولهذا لم يكتف إبراهيم وإسماعيل برفع القواعد من البيت، وإنما سألا الله القبول، لقولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

٦- لابد من الجمع بين العمل والإخلاص فيه، وسؤال الله القبول.

٧- ربوبية الله ﷻ الخاصة لإبراهيم وإسماعيل، لقولهما: ﴿رَبَّنَا﴾.

٨- إظهار إبراهيم وإسماعيل شدة ضراعتهما وفقرهما إلى الله تعالى بندائه ﷻ باسم

الربوبية، وتكرار ذلك مع كل دعوة، وهكذا كان جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باسم الربوبية؛ لأن معنى «الرب» الخالق، الذي بيده الملك والتدبير.

٩- إثبات اسم الله «السميع»، وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ، وأنه سبحانه سميع مجيب الدعاء، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي: سميع الدعاء ومجيبه، كما أنه عز وجل سميع لجميع الأقوال والأصوات، والتي هي صفة من صفاته الذاتية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله «العليم» وما يدل عليه من صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي هذا رد على القدرية الذين ينكرون علم الله تعالى بأفعال العباد قبل فعلهم لها.

١١- في اجتماع كمال السمع والعلم في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال، وكمال إحاطته، وتمام الثقة بوعده، والخوف من وعيده.

١٢- أن التوسل إلى الله ﷻ بندائه باسم الربوبية، وإظهار الضراعة وشدة الفقر إليه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته من أسباب القبول والإجابة؛ لقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهكذا ينبغي الثناء على المسؤول بما هو أهله قبل السؤال فإن ذلك أحرى للإجابة.

١٣- حاجة المسلم دائماً إلى سؤال الله الإخلاص والثبات على الإسلام؛ لقول إبراهيم وإسماعيل وهما مسلمان، بل نبيان: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

١٤- ينبغي في الدعاء أن يبدأ الإنسان بالدعاء لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

١٥- أن من أولى ما ينبغي أن يدعو الإنسان لهم ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

١٦- أن التعبد لله لا يصح إلا بما شرع الله ﷻ؛ لقول إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة

والسلام: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

١٧- يجب أن يحرص المسلم في تعبده لله ﷻ على المتابعة للشرع، ويحذر من الابتداع في الدين.

١٨- حاجة كل مسلم وافتقاره إلى توبة الله عليه، بما في ذلك الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾.

١٩- إثبات اسم الله ﷻ «التواب» وما تضمنه من صفة التوبة الواسعة لله ﷻ، فيوفق من شاء للتوبة ويقبلها منهم، ويتوب على الكثيرين من عباده، ويتوب على العبد مرات ومرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٠- إثبات اسم الله ﷻ «الرحيم» وما تضمنه من إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ﷻ: رحمة ذاتية ثابتة لله ﷻ، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه: رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

٢١- ضرورة الناس إلى بعث الرسل لبيان الحق وهداية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٢٢- أن كون الرسول من قومه وبلسانهم أقرب إلى قبول دعوته وفهمهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢٣- أن مهمة الرسول ﷺ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٢٤- أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة فيه تزكية النفوس وتطهيرها من الرذائل والأخلاق السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٢٥- إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة له ﷻ؛ عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم والحكمة لله تعالى الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛

لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢٧- في اجتماع كمال العزة وكمال الحكم والحكمة في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال، ومن كمال عزته، وكمال حكمه وحكمته، أن بعث محمداً ﷺ في هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١-٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أثنى الله ﷻ على إبراهيم في الآيات السابقة، وذكر فضله، ثم أخبر أنه لا يعدل عن ملة إبراهيم وعن الاقتداء به بعد ما عرف فضله إلا من سفه نفسه، وفي ذلك تعريض بأهل الكتاب والمشركين، ورد عليهم وتحذير من مسلكهم.

قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الواو: مستأنفة، و«من»: اسم استفهام معناه الإنكار والنفي والاستبعاد، أي: لا أحد ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ كاليهود والمشركين كما قال تعالى في اليهود: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في المشركين: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

يقال: رغب في كذا، أي: طلبه وأحبه، ويقال: رغب عن كذا، أي: تركه وزهد فيه وأعرض عنه.

فمعنى: ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: يتركها ويزهد فيها رغبة عنها.

و«الملة» هي الدين، أي: ومن يرغب عن دين إبراهيم وطريقته ومنهجه، وهي الحنيفية، دين الإسلام، كما قال تعالى في الآيات السابقة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦١] وهي ما جاء به محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي سفه نفسه أي: أوقعها في السفه، والسفه: ضد الرشد، أي: أوقعها في السفه في الدين الذي هو أعظم أنواع السفه، وجهل نفسه، وما يجب لها فضيعها ووضعها موضع الذل والهوان، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(٢).

وقد أحسن القائل:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتَبِّرُ ما يبني وآخر رافع(٣)

وقال الآخر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالباً في الناس أعلى المراتب(٤)

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا(٥)

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه مختصراً (٦/ ١١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٤) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥.

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠)، «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

وفي الآية إنكار وتوبيخ ونعي على من رغب عن ملة إبراهيم ودين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٢٢]. وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الواو: استئنافية، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد اصطفيناه في الدنيا، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ الاصطفاء: الافتعال من الصفوة: أي: اخترناه واجتبيناه وجعلناه من المصطفين الأخيار بالرسالة والنبوة والإمامة والخلة، وجعل النبوة والكتاب في ذريته. فكان عليه السلام إمام الحنفاء، جرد التوحيد لله، وتبرأ من كل معبود سواه، وتبرأ مما عليه أبوه وقومه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾ تفيد التوكيد، أي: وأنه في الآخرة لمن الصالحين، الذين جمعوا بين الإخلاص لله والمتابعة لشرعه، ولهم أعلى الدرجات.

والصلاح من أفضل ما وصف الله به رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرحبون بالنبي ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «**مرحباً بالأخ**

الصالح والنبي الصالح»[١].

قال الطبري[٢]: «والصالح من بني آدم هو المؤدي حقوق الله عليه، فأخبر تعالى ذكره عن إبراهيم خليله أنه في الدنيا له صفيٌّ، وفي الآخرة وليٌّ وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ﴾ أي: ولقد اصطفيناه في الدنيا حين ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾.

وقد تكون «إذ» متعلقة بمحذوف، أي: واذكر يا محمد حين قال الله لإبراهيم ﷺ: أسلم، فيكون أمراً للرسول ﷺ أن يذكر ذلك بنفسه ويذكره لأمته.

وفي الآية تنويه بفضل إبراهيم ﷺ وإثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة له، بل خاصة الخاصة، وهي ربوبيته ﷻ لرسوله وأنبيائه.

﴿أَسْلِمْ﴾ أي: أسلم نفسك لي؛ بدليل قول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: استسلم بالتوحيد والطاعة والإخلاص.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. أي: استسلمت لرب العالمين ظاهراً وباطناً، بالتوحيد والطاعة والمحبة والإخلاص من الشرك، فبادر ﷺ وسارع على الفور بالاستسلام والانقياد لربه والخضوع له، والإقرار بأنه مربوب لرب العالمين، فأتى بالإسلام ودليله.

واللام في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ للقصر، أي: لرب العالمين وحده.

و«رب العالمين»: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم ومربيهم بنعمه التي لا تحصى، و«العالمين»: جمع «عالَـم» بفتح اللام، اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم.

و«العالمين» كل موجود سوى الله تعالى، وقد جمع ليشمل كل جنس مما سمي به، فيعم جميع المخلوقات في السموات والأرض وما بينهما؛ عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن والشياطين، وعالم الحيوانات، وعالم الجمادات وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٣)- من حديث أنس ﵁.

(٢) في «جامع البيان» (٢/ ٥٨٠).

وهو مشتق من العلامة؛ لأن كل ما في الوجود من المخلوقات علامة على وجود الله ووحدانيته، وعلى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وجمع «العالمين» جمع من يعقل علماً أنه يتناول العقلاء وغيرهم من باب تغليب العقلاء؛ لأنهم هم المعنيون بالخطاب والتكليف؛ لما ميزهم الله به من العقل على غيرهم من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

أثنى الله ﷿ على إبراهيم ﵇ في مبادرته للإسلام لرب العالمين، ثم أتبع ذلك بذكر وصية إبراهيم ﵇ بنيه بالإسلام وكذا يعقوب ﵇، فحافظا عليهما السلام على ملة الإسلام في حياتهما وأوصيا بها بنيهما بعد وفاتهما؛ حرصاً عليها ومحبة لها، وشفقة منهما على بنيهما ورحمة لهم.

قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَأَوْصَىٰ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَوَصَّىٰ﴾.

والوصية العهد والأمر المؤكد في أمر هام، في فواته ضرر، كما في حديث العرباض بن سارية ﵁، قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا**»(١).

﴿بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، أو بـ«ملة إبراهيم» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

والمعنى واحد، أي: عهد إليهم وأمرهم أمراً مؤكداً بالتمسك بملة الإسلام، ملة إبراهيم ﵇، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

﴿بَنِيهِ﴾ مفعول «وصّى»، وبنو إبراهيم ﵇ ثمانية أكبرهم إسماعيل أبو العرب، وأمه الأمة «هاجر» القبطية، ويليه إسحاق، وهو أبو بني إسرائيل، وأمه «سارة».

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم- ما جاء في الأخذ بالسنة (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٢)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَيَعۡقُوبُ﴾ معطوف على «إبراهيم» أي: ووصى بها يعقوبُ بعد إبراهيم؛ أي: بهذه الكلمة وهذه الملة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ الآية. و«يعقوب» هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولقب يعقوب «إسرائيل»، وبنوه اثنا عشر، هم: يوسف وإخوته، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾ أي: يا أبنائي، وناداهم بوصف البنوة تلطفاً معهم وترفقاً بهم، وتحبباً إليهم، ليكون أوعى لقبولهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختار ورضي لكم الدين، الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الفاء للتفريع، و«لا»: ناهية، ﴿تَمُوتُنَّ﴾: مجزوم بحذف النون، والنون المذكورة نون التوكيد. والأصل «تموتونن» فحذفت النون للجزم فصارت «تموتونّ»، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، والواو للحال، أي: إلا حال كونكم مسلمين.

والمعنى: استمروا على الإسلام واثبتوا عليه، ولازموه حتى يرزقكم الله الوفاة عليه؛ لأن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت.

والمرء غالباً يموت على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، ومن قصد الخير وفق إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: - ١٠].

قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٣﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهما بملة

الإسلام والاستمرار عليها إلى الممات، ثم أتبع ذلك بتفصيل وصية يعقوب وتذكيره عند الموت لبنيه بهذه الوصية؛ تأكيداً لها وحرصاً وشفقة عليهم؛ أن يضلوا عن عبادة الله والاستسلام له وحده.

وفي هذا احتجاج على أهل الكتاب والمشركين في رغبتهم عن ملة إبراهيم وما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب، ورد على اليهود في زعمهم أن إبراهيم وبنيه ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾.

قوله: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام، أي: «بل» أكنتم شهداء؟ والاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لليهود الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب، وأنهما كانا على اليهودية.

﴿شُهَدَآءَ ﴾: جمع شهيد، أو شاهد، بمعنى: حاضر، أي: أم كنتم حضورا.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: حين حضر يعقوب الموت، و«يعقوب»: مفعول به مقدّم، و«الموت»: فاعل مؤخر.

ومعنى حضور الموت: حضور أسبابه ومقدماته وعلاماته، والموت: هو خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

والمعنى: لم تكونوا شهداء إذ حضر يعقوب الموت، فكيف تزعمون أنه كان على اليهودية، وقد أخبر الله ﷻ عنه أنه أوصى بنيه بالحنيفية ملة إبراهيم، لا باليهودية.

وقد يكون الخطاب لهم ولغيرهم، فيكون فيه رد عليهم وتنويه بوصية يعقوب حين حضره الموت لبنيه بالثبات على عبادة الله تعالى وحده.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ «إذ»: ظرف، بدل من «إذ» في قوله: ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ أي: حين قال لبنيه، وهم الأسباط الاثنا عشر، وهم يوسف وإخوته؛ اختباراً لهم؛ لتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم، وليطمئن على ثباتهم على ذلك بعد وفاته.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ «ما»: استفهامية، أي: أيّ شيء تعبدون من بعدي، أي: من بعد موتي. ومراده تقريرهم على التوحيد والإسلام، والثبات عليهما؛ حفاظاً على عقيدة التوحيد، وحرصاً عليها، وشفقة على بنيه أن يضلوا من بعده.

ووجه الكلام إليهم بصيغة الاستفهام؛ للفت انتباههم وعنايتهم لهذا الأمر.

وهذا لعمر الله عين النصح والشفقة أن يوصي الإنسان أولاده وأهله ومن خلفه بتوحيد الله وتقواه عندما يودع هذه الحياة، لا أن يجعل همه تكديس الأموال لهم، وتحريصهم عليها، ووصيتهم بها كما هو حال كثير من الناس.

وجاءت وصيته عليه السلام لبنيه بصيغة الاستفهام؛ ليعرف مقدار ثباتهم.

﴿قَالُوا۟ نَعۡبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أي: نبعد معبودك ومعبود آبائك، والألوهية والعبادة معناهما واحد، فالعبادة باعتبار العابد، الإلوهية باعتبار المعبود، ولهذا يسمى التوحيد توحيد العبادة.

وآباء: جمع أب، وهو يطلق على الأب، وعلى الجد من أي جهة كان وإن علا، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَیۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِیكُمۡ إِبۡرَ ٰهِیمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وبدؤوا بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ إِلَـٰهَكَ﴾؛ لأنهم يخاطبونه.

﴿إِبۡرَ ٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِیلَ وَإِسۡحَـٰقَ﴾ بدل من (آباء) أي: آباءك الذين هم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فإبراهيم جد يعقوب، وإسحاق أبوه، أما «إسماعيل» فهو عم يعقوب، وعدّوه من آباء يعقوب، وهو عمه؛ لأن العم صنو الأب وبمنزلته، كما قال ﷺ لعمر رضي الله عنه «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»(١).

ومعنى «صنو أبيه»: لا تفاوت ولا اختلاف بينهما كما لا تتفاوت صنوا النخلة وقال ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»(٢)

وقيل: إنما عد إسماعيل من آباء يعقوب من باب التغليب، فإبراهيم أبو يعقوب الأعلى، وإسحاق أبوه الأدنى، وإسماعيل عمه، فغلبت الأبوة على العمومة، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَیۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَیۡهِ لِكُلِّ وَ ٰحِدࣲ مِّنۡهُمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- تقديم الزكاة ومنعها (٩٨٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٢٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٦١)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح- كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان: (٢٧٠٠)، الترمذي في البر والصلة (١٩٠٤)- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

ﭐلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]، فغلب في الآيتين الأب على الأم، وكما يقال: «القمران» للشمس والقمر، ويقال «العُمَران» لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ حال، أي: حال كونه معبوداً واحداً، أي: نعبد معبوداً واحداً.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ الواو: حالية، و«له» متعلق بـ «مسلمون» وقدم عليه لإفادة الحصر- مع مراعاة الفواصل، أي: ونحن له وحده مسلمون، أي: مستسلمون منقادون له ظاهراً وباطناً دون سواه، فجمعوا بين التوحيد والعمل.

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٌ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾.

تضمنت الآيات السابقة الثناء على إبراهيم ويعقوب وبنيهما والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٌ قَدۡ خَلَتۡ﴾ الآية لإفادة أن الجزاء بالأعمال لا بالاتكال، فلا ينفع فقط مجرد الانتساب إلى هؤلاء دون عمل.

قوله:﴿تِلۡكَ أُمَّةٌ قَدۡ خَلَتۡ﴾ الإشارة إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبنيهم، والأمة: الجماعة والطائفة من الناس.

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: قد مضت، وخلى منها المكان.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ «ما»: في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: لها الذي كسبت، أولها كسبها، والكسب: العمل، أي: لها ما عملت وثوابه، وهذا أشبه بالتمهيد لقوله: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: ولكم الذي كسبتم، أو ولكم كسبكم، أي: ولكم ما عملتم وجزاؤه.

وقدم الخبر في الجملتين وهو قوله: ﴿لَهَا﴾، ﴿وَلَكُم﴾ للقصر، أي: لها ما كسبت لا يتجاوزها إلى غيرها، ولكم ما كسبتم لا يتجاوزكم إلى غيركم، كما قيل: «كل شاة تناط برجليها».

والخطاب: للمخاطبين بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: لكل من يصلح له، أو لليهود الذين يجادلون النبي ﷺ ويزعمون أنهم على الحق، وعلى ما أوصاهم به أبوهم يعقوب، أي: فلا ينفعكم صلاح من خلا ومضى من آبائكم وغيرهم، وانتسابكم إليهم، كما لا ينفعهم كسبكم.

وقد أحسن القائل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا	يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا	ليس الفتى من يقول كان أبي[١]

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: ولا تسألون عن الذي كانوا يعلمون أو عن عملهم، أي: لا تسألون عما كان يعمل من مضى من الآباء والأجداد وغيرهم، وإنما تسألون عن أعمالكم؛ لأن لكل منكم كسبه وجزاء عمله، أي: لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد والنعي على اليهود والمشركين حيث رغبوا عن ملة إبراهيم عليه السلام ووصفهم بالسفه والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

٢- أن الرشد كل الرشد في إتباع ملة إبراهيم، وأن السفه كل السفه في الرغبة عنها، فمن لم يتبعها فهو سفيه جاهل مهما ادعى العقل والحكمة والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

ولهذا وصف الله المنافقين واليهود بالسفهاء، فقال تعالى عن المنافقين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال عن اليهود: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

٣- أن من يرغب عن ملة إبراهيم فقد أوقع نفسه بالسفه والجهل، وضيعها ووضعها موضع الذل والهوان والخسران والبوار.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ٣١٢).

٤- التنويه بفضل إبراهيم ﷺ ومكانته في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٥- إثبات الآخرة وتفاوت الناس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٦- أن من أفضل ما يوصف به العبد الصلاح؛ لأن الله ﷻ وصف به أنبياءه ورسله، كما وصف به عباده المؤمنين، لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٧- تشريف إبراهيم ﷺ في خطاب الله ﷻ له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾.

٨- مبادرة إبراهيم ﷺ إلى الإسلام والانقياد لربه وإعلان الخضوع له؛ لقوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٩- أن الإسلام اسم لدين إبراهيم، ولجميع الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿أَسۡلِمۡ﴾، وقول إبراهيم: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهذا متضمن لتوحيد الربوبية بقسميه العام لجميع الخلق، والخاص بأولياء الله تعالى.

١١- أن وجود هذا الخلق دليل على وجود الخالق- سبحانه وتعالى؛ لأن الله سماهم ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- أن الذي يجب الاستسلام له والانقياد والخضوع له هو الرب وحده- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١٣- وصية إبراهيم ويعقوب لبنيهما بملة الإسلام «ملة إبراهيم» عناية منهما بهذه الملة ومحبة وشفقة وعطفاً منهما على ذريتهما ونصحاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

١٤- ينبغي حسن التلطف والترفق في خطاب المدعو، فإن ذلك أدعى لقبوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾.

١٥- عناية الله ﷻ بإبراهيم ويعقوب وذريتهما حيث اصطفى واختار لهم الدين الإسلامي ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

١٦- أهمية هذه الوصية ووجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

١٧- ينبغي للإنسان المبادرة إلى الإسلام، والاستمرار عليه حتى يلقى الله ﷻ؛ ليحيى على الإسلام، ويموت عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٨- ينبغي سؤال الله تعالى حسن الخاتمة؛ لأن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٩- أن الموت حق على جميع الخلق حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾.

٢٠- التنويه بما قاله يعقوب عليه السلام حين حضره الموت لبنيه، من سؤاله إياهم ما يعبدون من بعده شفقة منه عليهم أن يشركوا فيضلوا بعده، وحضًّا لهم على التمسك بعبادة الله وتوحيده، وملة الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾.

٢١- أن أهم وأعظم ما ينبغي أن يوصي به المسلم أولاده وأهله ومن خلفه توحيد الله تعالى وتقواه.

٢٢- أن توحيد الله ﷻ وعبادته وحده هو دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام؛ ووصيتهم لأقوامهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ﴾.

٢٣- جواز الوصية عند حضور الأجل إذا كان الإنسان يعي ما يقول؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾.

٢٤-أن الجد يسمى أبا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

٢٥- جواز إطلاق اسم الأب على العم تغليباً؛ لأنه صنو الأب، وفي منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾، وإسماعيل ليس من آباء يعقوب وإنما هو عمه.

٢٦- تمسك أبناء يعقوب وثباتهم على توحيد الله والاستسلام له، لقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

٢٧- أن اتباع الآباء فيما هم عليه من الحق حق، بل منقبة ومفخرة؛ لقوله: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية. لكن اتباع الآباء على الباطل باطل وجهل وضلال.

٢٨- إثبات الوحدانية لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾.

٢٩- إعلان أبناء يعقوب إخلاص الإسلام لله وحده، لقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

٣٠- ينبغي التأسي بإبراهيم ويعقوب عليهما السلام وبنيهما بعبادة الله تعالى وحده وإخلاص الإسلام له دون من سواه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

٣١- أن لكل أمة كسبها وجزاء عملها لا يناله من جاء بعدها، فكسب الآباء والأجداد لا يناله الأولاد والأحفاد؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، فلن تجدي عن اليهود أعمال أسلافهم وآبائهم من الأنبياء وغيرهم، ولن تجدي عن أي إنسان أعمال من سلف من آبائه وأجداده وغيرهم.

٣٢- أن لكل إنسان كسبه وجزاء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

٣٣- إثبات كمال عدل الله ﷻ حيث يجازي كل إنسان بعمله؛ دون ما لم يعمله، ولا يسأل عن عمل غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٣٤- أن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أما الأول فقد يسأل إذا كان هو سبب ضلال الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وفي الحديث: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»(١).

وقال ﷺ: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)،وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)- من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبو داود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وأحمد (٢/ ٣٨٠، ٣٩٧)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

٣٥- ينبغي عدم الخوض في الكلام فيمن قدموا على الله ﷻ، وأفضوا إلى ما قدَّموا من عمل؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»(١).

ولهذا يجب عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم من نزاع كالذي جرى بين معاوية وعلي بن أبي طالب وعائشة رضي الله عنهم؛ لأن الله ﷻ زكا أصحاب رسول الله ﷺ كلهم جميعاً وامتدحهم وأثنى عليهم ورضي عنهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

كما زكاهم رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(٢).

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «هذه دماء طهر الله سيوفنا منها، فنحن نطهر ألسنتنا منها» وكما قال القحطاني(٣):

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

٣٦- إثبات سؤال الإنسان عن عمله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٦)- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة- قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا» (٣٦٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة- تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤١)، وأبو داود في السنة النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٨)، والترمذي في المناقب من سب أصحاب النبي ﷺ (٣٨٦١)، وأحمد (٣/ ١١، ٥٤)- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «نونيته» ص٢٨.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ذم ﷻ أهل الكتاب في الآيات السابقة لرغبتهم عن ملة إبراهيم، وأنكر عليهم ادعاءهم أنهم على الحق، وعلى ما أوصاهم به يعقوب ﷺ، مع مخالفتهم ما جاء به النبي ﷺ ثم أتبع ذلك بذكر دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية، وحصرهم الهدى فيما كانوا عليه، وأبطل ذلك وبين أن الاهتداء إنما هو باتباع ملة إبراهيم ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الواو: استئنافية، أي: وقال اليهود والنصارى؛ لأن السياق معهم في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

و«أو»: للتقسيم والتنويع، لا للتخيير؛ لأن كل واحد من الفريقين يكفر بالآخر، أي: وقال اليهود للنبي ﷺ والمؤمنين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾ أي: كونوا يهوداً على ملتنا تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى على ملتنا تهتدوا.

و﴿تَهْتَدُوا۟﴾ جواب الأمر مجزوم بحذف النون، وفيه إيذان بمعنى الشرط، أي: إن كنتم كذلك تهتدوا، أي: وإن لم تكونوا يهوداً أو نصارى فلستم بمهتدين.

ومعنى ﴿تَهْتَدُوا۟﴾: ترشدوا وتصيبوا الحق، فحصر اليهود الهداية فيما هم عليه، وحصر النصارى الهداية فيما هم عليه، غروراً من كل منهما واستكباراً.

عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ

حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»(١).

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ جواب عن قول اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، والخطاب فيه للنبي ﷺ، و«بل»: للإضراب الإبطالي، تبطل ما سبق.

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: منصوب بفعل محذوف تقديره: «نتبع» أو نحو ذلك، أي: لا نكون هوداً أو نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، أي: نتبع دين إبراهيم عليه السلام، ولا اهتداء إلا باتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»(٢).

﴿حَنِيفًا﴾: حال، أي: حال كونه حنيفاً، والحنيف: «فعيل» بمعنى «فاعل» مشتق من «الحنف».

و«الحنف»: الميل، ومنه سُمي الأحنف بن قيس؛ لميل إحدى قدميه بالأصابع إلى الأخرى، قالت أمه:

والله لــــو لا حنـــــف برجلــــه ما كـــان في فتيـــانكم مـــن مثلــه(٣)

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾: مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، مسلماً مخلصاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا توكيد من حيث المعنى؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأن الجمل المنفية تفيد كمال ضدها، فنفيه عز وجل أن يكون إبراهيم من المشركين توكيد لكمال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٥٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «حنف».

توحيده وإخلاصه لله تعالى وأنه ﷺ ما كان في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال من المشركين عبدة الأصنام.

و«كان» هنا مسلوبة الزمان تفيد اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات.

وفي الآية تعريض بما عليه أهل الكتاب والعرب من الشرك بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ذكر الله ﷻ مقالة اليهود والنصارى للمسلمين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، وأجاب عنها بقوله لنبيه ﷺ: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا﴾ الآية، أي: قل بل نتبع ملة إبراهيم، ثم أمر النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً بالإيمان به ﷻ وبما أنزل إليهم وبجميع ما أنزل على رسله وأنبيائه دون تفريق بينهم، والإسلام له وحده.

وفي هذا تفصيل لملة إبراهيم بعد الإجمال، وإظهار لتصديق الإسلام لجميع الأديان السماوية، وكشف عوار التعصب اليهودي والنصراني، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٨٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية التي في البقرة، وفي الآخرة منهما: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»(١).

قوله: ﴿قُولُوٓا۟﴾: الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين.

أي: قولوا أيها المؤمنون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ نطقاً بألسنتكم، واعتقاداً بقلوبكم، وانقياداً

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٢٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٤).

بجوارحكم معلنين أمام الملأ هذا المعتقد، مجمعين عليه داعين إليه.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان والتصديق بوجوده، وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما دل على ذلك الكتاب والسُّنة والعقل والفطرة، وذلك يقتضي طاعته والانقياد له وامتثال شرعه، وقدم الإيمان بالله؛ لأنه أصل وأساس الإيمان، وأعظم أركانه، وأول الواجبات.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الواو: عاطفة، «ما»: اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة «الله».

أي: وآمنا بالذي أنزل إلينا، أي: بالذي أنزل على نبينا محمد ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة هي السنة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية»[(١)].

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا على الإيمان بما أنزل على إبراهيم ومن ذكر من الأنبياء مع أن هذا أقدم زمناً تقديماً للأهم وتشريفاً له ولأننا متعبدون بالإيمان بما أنزل إلينا قولاً واعتقاداً وعملاً بخلاف ما أنزل على من قبلنا فلسنا متعبدين بالعمل به.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وآمنا بالذي أنزل ﴿إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ الآية، وكرر الموصول في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ لاختلاف المنزل إلينا والمنزل إليه، فلو لم يكرر لأوهم أن المنزل إلينا هو المنزل إليه وإلى من ذكر بعده، والذي أنزل إلى إبراهيم هي الصحف التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وبقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

وإبراهيم هو إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليه وعليهم السلام.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٨٥).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: وآمنا بالذي أنزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فكلهم من أنبياء الله ﷻ أوحى الله ﷻ إليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

و«إسماعيل» هو الابن الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، وأبو العرب، وقدَّمه لسبقه زمناً ولفضله، لأنه جد نبينا محمد ﷺ.

و«إسحاق» هو الابن الثاني لإبراهيم، وهو أبو يعقوب الملقب بـ «إسرائيل» أبو بني إسرائيل.

و«الأسباط»: جمع «سِبْط» بكسر السين وسكون الباء، وأصل السبط في اللغة: ابن البنت، ومنه قيل للحسن والحسين- رضي الله عنهما: «سبطا رسول الله ﷺ»؛ لأنهما أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها.

والمراد بالأسباط أبناء يعقوب بن إبراهيم الاثنا عشر وهم يوسف وإخوته وقد تفرع من كل سبط من هذه الأسباط أمة، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله، أي: وآمنا بالذي أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، ولم يُعد الموصول مع قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾؛ لأن شريعة عيسى متممة لشريعة موسى عليهما السلام.

أي: وآمنا بالذي أعطي موسى من الآيات الشرعية في التوراة، وبالذي أعطي من الآيات الكونية من الآيات التسع كاليد والعصا وغير ذلك.

وآمنا بالذي أعطي عيسى ﵇ من الآيات الشرعية في الإنجيل، ومن الآيات الكونية كإخراج الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغير ذلك.

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فصرح بموسى وعيسى- وقدمهما؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل، ومن أولي العزم من الرسل، ثم عطف عليهما بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وآمنا بالذي أوتي النبيون كلهم من ربهم من الآيات الكونية والآيات الشرعية.

وعبر في الموضعين الأولين بـ﴿أُنزِلَ﴾، وفي الموضعين الأخيرين بـ﴿أُوتِيَ﴾ وفي ذلك من الحكم اللفظية- والله أعلم- التنويع والتفنن في الألفاظ، وتجنب إعادة اللفظ الواحد مراراً، والمحافظة على جمال التعبير وحسن الأسلوب، يظهر ذلك من المقابلة بين قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

كما أن في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ الإشارة إلى عظم ما أعطيه موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات الكونية- كما هو معلوم- مع ما أنزل عليهما من الوحي العظيم في التوراة والإنجيل.

﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ «من»: لابتداء الغاية، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرهم تشريف وتكريم لهم وإثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة بهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وهي داخلة ضمن جملة مقول القول في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي: ولا نفرق بين أحد منهم.

أي: لا نفرق بين أحد من الأنبياء في الإيمان بهم وبما أنزل إليهم، بل نؤمن بهم جميعاً وبما أنزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعلت اليهود، كفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وكما فعل النصارى، كفروا بمحمد ﷺ فنقض تكذيبهم تصديقهم فكانوا هم الكافرون حقا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥١].

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: ونحن لله تعالى ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، أي: منقادون مستسلمون ظاهراً وباطناً.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة دعوة اليهود والنصارى للمسلمين باتباعهم، وأمر المسلمين باتباع ملة إبراهيم والإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل إلى إبراهيم وغيره من النبيين، ثم بيَّن في هذه الآية أن اليهود والنصارى إن آمنوا بهذا فقد اهتدوا، وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا على هدى، وأن الهداية ليست فيما يدعون إليه كما يزعمون، ولهذا قال بعده: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ الفاء: للتفريع، أي: فإن صدق وأقر اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، وجاء الشرط بـ «إن» المفيدة للشك إيذاناً بأن إيمانهم غير مرجو.

﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل الذي آمنتم به أيها المؤمنون، من الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ قولاً واعتقاداً وعملاً، والإيمان بما أنزل على الأنبياء والرسل جميعاً، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ جواب الشرط وقرن بالفاء لاتصاله بـ «قد»، أي: فقد وفقوا أو سلكوا طريق الهداية والرشد وأصابوا الحق.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾أي: وإن أعرضوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به، أي: تولوا عن الحق إلى الباطل، والتولي إذا أطلق شمل التولي بالبدن والإعراض بالقلب.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط لأنه جملة اسمية، وجاء الجواب جملة اسمية للدلالة على استمرارهم وثبوتهم على هذه الحال، وهي حال الشقاق.

وبين قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ وقوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ مقابلة ومشاكلة، و«إنما»: أداة حصر، أي: ما حالهم إلا الشقاق.

﴿فِي شِقَاقٍ﴾ ﴿فِي﴾للظرفية تفيد تمكن الشقاق منهم، وإحاطته بهم من كل جانب وانغماسهم فيه، والشقاق: شدة المخالفة والعداوة، مأخوذ من الشق، وهو الجانب، فالمخالف يأخذ شقاً وجانباً غير شق صاحبه وجانبه.

والمعنى: فإنما هم في مخالفة ومحادة وعداوة لله ورسوله والمؤمنين، وليسوا من طلب الهداية والحق في شيء، وقد تولى القوم وأعرضوا، ولهذا قال الله ﷻ مخاطباً الرسول

ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء: للتفريع والسين للتنفيس تفيد تحقق الوقوع وقربه. فهي هنا تفيد تحقق وعد الله لرسوله ﷺ بكفايته إياهم وقرب ذلك.

و«يكفى»: فعل مضارع ينصب مفعولين، الأول هنا: كاف الخطاب، والثاني: ضمير الغائب الهاء، ولفظ الجلالة فاعل، أي: فسيكفيك الله إياهم، أي: يكفيك شقاقهم ويحفظك من شرهم.

وفي هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بكفايته إياهم، وتسلية له وتطمين لقلبه، وإرشاد له إلى التوكل على الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

كما أن فيه وعيداً شديداً وتهديداً أكيداً لهؤلاء المتولين المعرضين.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ السميع: اسم من أسماء الله ﷻ، يدل على إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ الذي يسمع الدعاء، ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ يدل على إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ الذي وسع كل شيء.

أي: وهو السميع- سبحانه وتعالى- لجميع أقوال العباد، ولما يدبره هؤلاء المعرضون عن الإيمان من الأذى بأقوالهم؛ «العليم» بضمائرهم وأفعالهم، وفي هذا تأكيد لوعده بكفايته إياهم، وتأكيد لوعيدهم وتهديدهم.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

أبطل الله ﷻ دعوى اليهود والنصارى أن الهداية فيما هم عليه، وأمر باتباع ملة إبراهيم وهي الإيمان بما أنزل إلينا، وما أنزل على جميع الرسل والأنبياء، ثم أكد ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ ﴿صِبْغَةَ﴾: مصدر، أي: صبغنا الله صبغة، أو صُبغنا صبغة الله، وهذا أقوى تناسباً مع قوله بعده: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

وقيل: ﴿صِبْغَةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا صبغة الله، ولا يبعدنكم هؤلاء عن دينكم، و«صبغة» مضاف، ولفظ الجلالة «الله» مضاف إليه.

والصبغة في الأصل: اللون، والمراد بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دين الله.

وسمي الدين صبغة لظهور أثره على المؤمن في سلوكه وأخلاقه؛ إخلاصاً لله ﷻ، ومتابعة لرسوله ﷺ، بل ولظهور أثره على أسارير وصفحات وجه المؤمن، فهو بمنزلة الصبغ للثوب.

وأيضاً سُمي الدين صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب، فمن دخل فيه لا يكاد ينفك عنه أو يفارقه بتوفيق الله، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما. **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يقذف في النار»**(١).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ الاستفهام للنفي والإنكار، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد لتضمنه التحدي، أي: لا أحد أحسن من الله صبغة، أي: لا دين أحسن من دين الله تعالى.

وهذا ابتهاج من المؤمنين بهذه الصبغة، وبهذا الدين الذي فاق جميع الأديان كمالاً كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وشمولاً كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وخلوداً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وصدقاً وعدلاً، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وعدم اختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفرق شاسع وبون واسع بين من آمن بالله ﷻ فهو يسير في هذه الحياة على نور من الله في جميع أعماله وأقواله وأخلاقه، وبين من كفر بالله فصار يسير على غير هدى، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)- من حديث أنس ﷺ.

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ الواو: عاطفة، والضمير «نحن» يعود على النبي ﷺ والمؤمنين و﴿لَهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عَابِدُونَ﴾، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر، مع مراعاة الفواصل، أي: ونحن له وحده عابدون.

وفي قول المؤمنين: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ ما يوحي بفخرهم واعتزازهم وتشرفهم بعبادة الله ﷻ وحده شكراً له؛ لأن عبادته أشرف ما يمكن أن يتصف به العبد.

فكأنهم يقولون: ونحن له وحده عابدون ونفتخر ونعتز بذلك ونتشرف به، فالشرف كل الشرف والفخر كل الفخر والعز كل العز بعبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أما على القول بأن قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ منصوب على الإغراء تكون جملة ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ جارية مجرى التعليل له.

الفوائد والأحكام:

١- دعوة اليهود والنصارى إلى ما هم عليه من الباطل والضلال، وزعمهم أنه الحق والهدى، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

٢- أن من يدعو إلى الباطل والضلال ويزعم أنه الحق والهدى من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، كما يفعل أهل العقائد الباطلة كالرافضة وغيرهم، وكما يفعل أهل التحلل والسفور وأهل التغريب وذلك مصداق قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة شبرا بشبرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٣- أن الملة التي يجب اتباعها، وهي خير الملل وأفضلها، وفيها كمال الاهتداء هي ملة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

٤- فضل إبراهيم عليه السلام وإمامته؛ لأن الله أضاف ملة الإسلام إليه، وأمر باتباعه، ووصفه بتجريد التوحيد وعدم الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقدمه على من ذكر في الآيات من الرسل، فقال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية.

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وما هم عليه من الشرك بالله، مما يبطل دعواهم اتباع إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة: ٣١].

٦- وجوب الإيمان بالله؛ بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وأن الإيمان بالله تعالى أصل الإيمان وأساسه؛ ولهذا قدم في الآية.

٧- وجوب الإيمان بما أنزل إلينا على نبينا محمد ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة قولاً واعتقاداً وعملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾.

وقدم هذا في الذكر على الإيمان بما أنزل على إبراهيم وغيره ممن ذكروا في الآية تقديماً للأهم والأفضل والأعظم وهو القرآن الكريم، ولأن من مقتضى الإيمان به: العمل به بخلاف الإيمان بغيره مما أنزل على الرسل فلا يقتضي العمل بذلك.

٨- وجوب الإيمان بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وثبوت نبوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

٩- إثبات العلو لله ﷻ؛ لأن المنزل على الرسل من عنده- سبحانه وتعالى.

١٠- أن ما أوحاه ﷻ إلى رسله وأنبيائه منزل من عنده غير مخلوق.

١١- وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنبيون كلهم من الآيات الشرعية والكونية، وأنهم مبلغون عن الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

١٢- فضل موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن الله نص عليهما فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فهما من أولي العزم من الرسل وأفضل أنبياء بني إسرائيل.

١٣- أن الإيمان بالرسل والكتب منه ما هو على طريق التفصيل، وهذا فيما فصل لنا وقص علينا من الرسل والكتب، ومنه ما هو على طريق الإجمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأنبيائه، وأنهم مبلغون عن الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

١٥- لا يجوز التفريق في الإيمان بين أحد من الرسل، بل يجب الإيمان بهم جميعاً، فمن آمن ببعضهم وكفر ببعض فليس بمؤمن، وكذا يجب الإيمان بكل ما أنزل إليهم، فمن آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: في الإيمان بهم وبما أنزل عليهم.

١٦- وجوب الاستسلام لله ﷻ والإخلاص له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾.

١٧- لا بد من الجمع بين الاستسلام والانقياد لله تعالى باطناً وظاهراً، بين الإيمان والإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

١٨- لا هداية لليهود والنصارى ولا لغيرهم إلا بالإيمان بما آمن به محمد ﷺ وأمته؛ وهو ما أنزل عليه ﷺ من القرآن والسنة، وما أنزل على الأنبياء والرسل قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾.

١٩- أن من لم يؤمن بما أنزل على نبينا ﷺ وما أنزل على من قبله من الأنبياء والرسل فهو ضال؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ فمفهوم

هذا أنهم إن لم يؤمنوا بذلك فهم على ضلال.

٢٠- لا حجة لمن تولى عن الإيمان من اليهود والنصارى وغيرهم إلا الشقاق والمخالفة لأمر الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

٢١- مشاقة اليهود والنصارى ومخالفتهم للرسول ﷺ ولما جاء به ولأهل الإيمان منذ بعثته ﷺ.

٢٢- الوعيد الشديد لمن تولى عن الإيمان من اليهود والنصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٣- وعد الله ﷻ لرسوله ﷺ بأنه سيكفيه شر من تولى عن الإيمان من أهل الكتاب، وهكذا حصل، فظهر ﷺ عليهم وفتح حصونهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأذل بعضهم بأخذ الجزية منهم.

٢٤- الإرشاد إلى التوكل على الله ﷻ وحده؛ لأنه سبحانه هو الكافي، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويجيب الدعوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله ﷻ في الأقوال والأفعال في جميع الأحوال؛ لأنه سبحانه واسع السمع، واسع العلم لا يخفى عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٨- في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تأكيد لوعده ﷻ لنبيه ﷺ بكفايته، وتأكيد لوعيده ﷻ لمن تولوا عن الإيمان.

٢٩- في اجتماع سعة السمع مع سعة العلم في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال.

٣٠- وجوب التزام دين الله والتمسك به؛ لقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الزموا صبغة الله، أي: دينه وتمسكوا به.

٣١- عظمة الدين الإسلامي وشرفه وأحقيته؛ لأن الله ﷻ أضافه إلى نفسه فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه سبحانه هو الذي أحقه وشرعه.

٣٢- لا دين أحسن من دين الله ﷻ؛ كمالاً وشمولاً وخلوداً وصدقاً وعدلاً، وصلاحاً للبشرية في دينها ودنياها وأخراها، وعدم اختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣٣- وجوب إخلاص العبادة لله ﷻ، والذل والخضوع له وحده، وأن في ذلك الشرف والفخر والعز والسؤدد؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ الأمر في قوله: ﴿ قُلْ ﴾ للنبي ﷺ.

والخطاب في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ لليهود والنصارى، وبخاصة المحاجين منهم والاستفهام للإنكار. والمحاجة: المجادلة والمخاصمة بين اثنين فأكثر، وإدلاء كل منهم بحجته لينقض حجة الآخر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين يحاجونكم ويجادلونكم حسداً منهم على تفضيل الله لكم ولدينكم: أتحاجوننا وتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له وطاعته، وتزعمون أنكم أولى بالله وتختصون بفضله وكرامته دوننا؟

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه ربنا وربكم جميعاً، يجب علينا وعليكم توحيده والإخلاص له وطاعته، والأفضل عنده منا ومنكم من قام بحقوق ربوبيته، ووحده وأخلص له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولكل منا ومنكم أعمالهم خاصة وجزاؤها، فلا تُسألون عن أعمالنا، ولا نُسأل عن أعمالكم، وكل منا بريء من عمل الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: ونحن لله وحده مخلصون العبادة على الدوام بلا رياء ولا شرك، وأنتم به مشركون.

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[1].

فإذا كان الله ﷻ رب الجميع، ولكل منهم عملهم وجزاؤهم، فالأولى به عز وجل والأفضل عنده من قام بحقوق ربوبيته وأخلص له؛ وهم المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) ﴾.

ذكر ﷻ في الآيات السابقة زعم اليهود والنصارى أن الهداية فيما هم عليه ودعوتهم لذلك، وبين أن الهداية في ملة إبراهيم وأمر المؤمنين باتباعها، ثم ذكر في هذه الآية قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، وأنهم أولى بهم من المسلمين، ورد عليهم وأبطل قولهم.

قوله: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب: ﴿تَقُولُونَ ﴾ فتكون داخلة في حيز الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ و﴿ أَمْ﴾ هي المنقطعة، التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل أتقولون.

وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَقُولُونَ﴾، فيكون الكلام مستأنفاً غير داخل تحت الأمر، أي: بل أيقولون.

وقيل: ﴿ أَمْ﴾: متصلة، والاستفهام للتوبيخ، والإنكار على التقديرين.

فأنكر عليهم أولا محاجتهم في الله، ثم أنكر عليهم قولهم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ أي: أنهم كانوا على اليهودية والنصرانية.

﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الأمر للنبي ﷺ والخطاب في قوله: ﴿أَأَنتُمْ﴾ لليهود والنصارى، والاستفهام للإنكار ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ «أم» هي المتصلة، أي: بل الله أعلم.

وقد قال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٩٧).

ﵟٱلۡمُشۡرِكِينَﵞ [آل عمران: ٦٧].

وإذا كان الله ﷻ العليم الخبير، أصدق القائلين نفى أن يكون إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً، وقرر إسلامه ومن تبعه من الأنبياء. وأنتم تقولون كان إبراهيم يهودياً أو نصرانيّاً، فأي القولين أحق؟ وأي الخبرين أصدق؟ لا شك أن قول الله أحق، وخبره أصدق، وحيث كان الجواب من الوضوح والبيان لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم، وكما قال المتنبي[1]:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وكيف يكون إبراهيم يهوديّاً أو نصرانيّاً والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعده، كما قال تعالى: ﵟيَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَﵞ [آل عمران: ٦٥].

وهكذا وصل الحال بأهل الكتاب لما بعدوا عن وحي الله ﷻ وحرفوا وبدلوا، فصاروا يحاجون في الله وفي رسله وأنبيائه وفيما أنزل عليهم جدالاً بالباطل، فكذبوا الأخبار الصادقة، وشككوا في العقائد الثابتة فخرجوا عن منهج الحق، بل صار الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً.

وهكذا وصل الحال بالرافضة اليوم بل وأشد من ذلك، مصداقاً لقوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال «فمن»»**[2].

فطعنوا في الرب ﷻ، وفي الكتاب والسنة، وفي جبريل عليه السلام، وفي الرسول ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين، وفي صحابته الميامين- رضي الله عنهم أجمعين- ولم يبقوا على شيء من ثوابت الدين إلا طعنوا فيه، وصدق الله العظيم: ﵟفَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُﵞ [يونس: ٣٢].

ﵟوَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِﵞ الواو: عاطفة، و«من»: للاستفهام،

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٢٠.

(٢) سبق تخريجه.

ومعناه النفي والإنكار، أي: لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، فلا أظلم ممن كتم هذه الشهادة عنده من الله فلم يبينها، كما فعل أهل الكتاب كتموا ما في كتبهم من الشهادة بصدق محمد ﷺ ورسالته، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا هوداً أو نصارى بل كانوا مسلمين، فجمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد.

و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: وما الله بغافل عن الذي تعملون أو عن عملكم أيها اليهود والنصارى، بل هو محيط بكم وبأعمالكم وبجميع الخلق وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسيجزي كلا بعمله.

وهذه من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو كمال علمه ورقابته على العباد وأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

رد الله ﷻ في الآيات السابقة زعم اليهود والنصارى أنهم على دين يعقوب عليه السلام كذباً منهم وافتراءً، مبيناً أن يعقوب عليه السلام كان على ملة إبراهيم عليه السلام، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم ذكر في هذه الآيات قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى وأبطل ذلك، ثم أتبعه بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

والإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ في هذه الآية إلى إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء عليهم السلام، وفي الآيتين بيان وتأكيد أن لكل عمله لا يسأل أحد عن عمل من سبقه

ولا ينبغي أن يتكل أحد على عمل غيره.

قال السعدي[1]: «وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب إلى الرجال».

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد على اليهود والنصارى الذين يحاجون في الله وتوحيده والإخلاص له مع إقرارهم بأنه ربهم ورب غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله ﷻ العامة لجميع الخلق.

٣- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية والعبادة.

٤- وجوب البراءة من أعمال الكفار وما هم عليه من الكفر والشرك، وعدم التشبه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

٥- ينبغي للمسلم أن يتميز عن غيره بما هو عليه من الدين الحق والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

٦- وجوب الإخلاص لله ﷻ والاعتزاز بذلك، وإعلانه لمن حآج في وحدانية الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾.

٧- الإرشاد لطريق المحاجة لبيان الحق ودحض الباطل، وأنها مبنية على الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾.

أي: فإذا كان ربنا واحداً نحن وإياكم، ولكل منا ومنكم عمله، فلا فرق بيننا وبينكم في ذلك، ولا تفضيل لأحد إلا بالإخلاص لله تعالى، فمن كان لله أخلص فهو منه أقرب وعلى دينه وتوحيده أصوب، وهذه صفة المؤمنين دون غيرهم.

٨- الإنكار على اليهود والنصارى وإبطال دعواهم أن إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، وأنهم أولى بهم من المسلمين؛ لقوله

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٥٤).

تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ أي: قل بل الله أعلم، وقد بين ﷻ أن إبراهيم وهؤلاء الأنبياء مسلمون، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

٩- إثبات العلم التام الواسع المطلق المحيط بكل شيء لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: بل الله أعلم.

١٠- جهل أهل الكتاب بتاريخ وأصول شرائعهم، حيث زعموا أن إبراهيم وأولاده وأحفاده كانوا على اليهودية والنصرانية.

١١- إبطال كل ما خالف شرع الله من أقوال وقوانين البشر، ووجوب رد العلم في ذلك إلى الله العليم الخبير؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

١٢- لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كتم العلم الذي عنده من الله، فلم يبينه.

كما فعل أهل الكتاب عندهم الشهادة في التوراة والإنجيل بصدق محمد ﷺ، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا هوداً أو نصارى، بل كانوا مسلمين فكتموا ذلك، بل ادعوا أن إبراهيم وهؤلاء الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى، فكتموا الحق وأظهروا الباطل، ودعوا إليه وهذا أعظم الظلم، فمرتكبه متوعد بأشد العذاب.

١٣- عظم مسؤولية العلماء أمام الله ﷻ في بيان ما عندهم من العلم، وإرشاد الناس وتعليمهم شرع الله.

١٤- كمال علم الله ﷻ ومراقبته لأعمال عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو كمال علمه ﷻ ورقابته على العباد وأعمالهم، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها. وفي هذا وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

١٥- في تكرار هذه الآية: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا

كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [١٣٤، ١٤١]، تأكيد وتقرير أن لكل عمله وجزاءه، لا يسأل عن عمل غيره، ولا يؤخذ بجريرة من سواه.

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]، وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وفي هذا كله تأكيد على إطراح ما كان متأصلاً في نفوس الكفار من الافتخار بالآباء، والتقليد الأعمى لهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾.

كان النبي ﷺ بمكة إذا صلى صلى إلى بيت المقدس، وجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر إلى المدينة صلى ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان ﷺ يحب أن يصلي إلى البيت الحرام قبلة إبراهيم- عليه السلام- والأنبياء بعده، وكان يقلب وجهه في السماء داعياً الله- عز وجل- أن يأمره بالتولي نحو هذا البيت، وقد استجاب الله- عز وجل- له فأمره ﷺ والمؤمنين بالتولي شطر المسجد الحرام. ولما كان هذا الحدث من أعظم الوقائع في الإسلام بعد مبعثه ﷺ، قدَّم له- عز وجل- توطئة وتمهيداً، وتقريراً له- بعدة مقدمات من أهمها ما يلي:

أولاً: ذكر طبيعة وحال بني إسرائيل، وما هم عليه من الكفر والتكذيب، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً، ولبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، والشرك والظلم، والتمرد والعناد، والتعنت في سؤال أنبيائهم، وتبديل قول الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتوليهم وإعراضهم بعد أخذ الميثاق عليهم، واعتدائهم، وتحريفهم وافترائهم الكذب على الله، وزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، وقتل بعضهم لبعض، وإخراجهم فريقاً منهم من ديارهم إثماً وعدواناً، وشرائهم الحياة الدنيا بالآخرة، واستكبارهم، وتكذيبهم الرسل والأنبياء وقتل فريق منهم، وكفرهم بما أنزل الله مصدقاً لما معهم، وقولهم: سمعنا وعصينا، وحبهم عبادة العجل، وحرصهم على الحياة، ونقضهم العهود، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واتباعهم ما تتلوا الشياطين والسحرة على ملك سليمان، وكراهيتهم أن يُنزَّل على المؤمنين خير من ربهم، ومودتهم رد المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، وزعمهم الباطل أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو

نصارىٰ، وتكذيب بعضهم لبعض، ومنعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها، ونسبتهم الولد إلى الله- تعالى الله عن ذلك- وعدم رضاهم إلا باتباع ملّتهم، وقولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، وشقاقهم وظلمهم، وكتمانهم ما عندهم من الشهادة في كتبهم من الله- على صدق ما جاء به محمد ﷺ، وغير ذلك.

ثانياً: تحذير المؤمنين من مسلك أهل الكتاب، في كفرهم، وتكذيبهم، وتعنتهم في سؤال أنبيائهم، والتحذير من طاعتهم، لكراهتهم الخير للمؤمنين، ومودتهم إرجاعهم بعد إيمانهم كفاراً وحسدهم لهم.

ثالثاً: تقرير النسخ، وأنه- عز وجل- ما ينسخ من آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها.

رابعاً: تقرير أن لله عز وجل المشرق والمغرب، وأن العباد أينما تولوا فثم وجه الله.

خامساً: الثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتعظيم ملّته، وإعلان إمامته للناس، وإتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات، ووفاؤه، وإيجاب اتباع ملته، وتسفيه من يرغب عنها.

سادساً: الامتنان على هذه الأمة بجعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، ورفع إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام- لقواعده، وتطهيره للطائفين، والعاكفين والركع السجود، وتأكيد عظمته وحرمته، وشرفه وفضله.

إلى غير ذلك.

ثم بعد هذه المقدمات أعلمهم- عز وجل- بما سيقول السفهاء من الناس من أهل الكتاب وغيرهم، لئلا يفاجؤوا في ذلك فيعظم عليهم ذلك، مؤكداً أن لله- عز وجل- المشرق والمغرب... إلخ.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس في جماعة ذكرهم، فقالوا له: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها

نتبعك ونصدقك. وإنما يريدون فتنته عن دينه، فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾»(١).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾ وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ- قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قَبْل أن تحول قِبَلَ البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾؟ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾».

وفي رواية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فكان أول ما نسخ الله- عز وجل- من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله- جل وعز- أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود بذلك، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان يدعو الله-

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٧، ٢٤٨)- الأثر (١٣٢٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٠)، وفي الصلاة (٣٩٩)، وفي التفسير (٤٤٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٨٣).

جل وعز- وينظر إلى السماء، فأنزل الله جل وعز: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، يعني: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. فأنزل الله- جل وعز: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال جل وعز: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال ابن عباس: ليتميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ السين للاستقبال، وتحقيق صدور هذه المقالة من هؤلاء السفهاء، واستمرارهم عليها، وفيه معجزة له ﷺ، وتقوية لقلبه ﷺ والمؤمنين، للاستعداد لتحمل ذلك، ومدافعته، والصبر عليه، كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**»(٢)؛ ليستعد لمجادلتهم ومحاجتهم.

والسفهاء: جمع سفيه، والسفه: خفة وطيش، ينشأ عنه سوء تصرف في الأقوال والأعمال والأموال. والسفيه: من لا يحسن التصرف، ولا يهتدي إلى طرق الخير، لقصور في عقله كالمجنون، والصغير، وغير الرشيد.

والسفه يكون في الدين، ويكون في الولاية، ويكون في المال.

فالسفه في الدين: بالكفر وارتكاب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقال تعالى حكاية عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٥٠، ٦٢٣، ٦٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٨، ٢٥٣)- الأثران (١٣٢٩، ١٣٥٥)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٤٥٥-٤٥٦)- الأثر (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

والسفه في الولاية: أن يكون الشخص لا يحسن التصرف في الولاية، فتنقل إلى غيره، كما إذا كان لا يعرف الكفء في ولاية النكاح، فتنقل الولاية إلى غيره، ونحو ذلك.

والسفه في المال: أن يكون الشخص لا يحسن التصرف في المال، ولا يعرف وجوه المصالح والمفاسد فيه، فهذا يحجر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

والمراد بالسفه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ السفه في الدين وهو أشد أنواع السفه.

والمراد بـ«السفهاء من الناس» اليهود، فهم أسفه الناس، قد بلغوا من السفه غايته، ولهذا قال «السفهاء» بالتعريف، وذلك؛ لأنهم كذبوا برسالة النبي ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله- عز وجل- وخالفوه، واعترضوا على حكمه، وتركوا الحق بعدما عرفوه، حسداً منهم وبغياً، فجمعوا بين تكذيبه ﷺ وما جاء به من الحق، وتكذيب ما جاء في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم من البشارة به ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيانية، والمعنى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم اليهود، ومن مالأهم من المنافقين والمشركين- تكذيباً للحق وتشكيكاً للناس فيه.

والناس: أصله «أناس» كما قال الشاعر:

إن المنايــــــــا يطلعــــــــــــن عــلى الأنــاس الآمنينــا[(١)]

وهو مشتق من النوس، وهو الحركة، أو من الأنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو من الإيناس، وهو الرؤية والمشاهدة؛ لأنهم يُرون ويُشاهدون، بخلاف الجن فهم مستترون.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول.

﴿مَا﴾ اسم استفهام، أي: أيُّ شيء صرفهم، ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ بيت المقدس، ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: التي كانوا يستقبلونها- يعني- قبل الأمر بالتحول إلى الكعبة.

وقبلة كل شيء ما قابل وجهه. والقبلة في الشرع: ما يستقبله الناس في صلاتهم، كما قال تعالى لموسى وهارون- عليهما السلام: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾ [يونس: ٨٧].

والمعنى: أن هؤلاء السفهاء سيقولون اعتراضاً على حكم الله وشرعه وتكذيباً له وإنكاراً: ما الذي جعلهم يتولون وينصرفون ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ وهي بيت المقدس إلى المسجد الحرام، ولم يقولوا: «عن قبلتنا التي كنا عليها»، بل قالوا: ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ لقصد الإثارة والإلزام للمسلمين، أي: أنه إن كانت القبلة الأولى حقًّا فقد تركوا الحق، وإن كانت باطلاً، فقد كانوا على باطل، حيث صلوا إليها.

وقالوا أيضاً: اشتاق محمد إلى بلده ومولده.

كما قال المنافقون: ما بال محمد مرة يحولنا إلى هٰهنا، ومرة يحولنا إلى هٰهنا.

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم.

وفي وصف هؤلاء القائلين بالسفهاء تخفيف لوقع هذه المقالة على الرسول ﷺ والمؤمنين، حيث صدرت ممن لا يحسن النظر لنفسه، فلا يلقى لها بال، ولا قيمة لها.

وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يفيد أن كل من صدرت منه هذه المقالة من اليهود أو

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص٣٢، «لسان العرب»، مادة «نوس».

المنافقين أو غيرهم فهو سفيه، وكذا كل من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تولى عز وجل تعليم نبيه ﷺ هذا الرد المفحم لهم، أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود السفهاء ردًّا عليهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وإنما أجيبوا بهذا الجواب المسكت المبكت؛ لأن إنكارهم للقبلة اعتراض على حكم الله وعناد وتكذيب، وحسد، كما قال ﷺ: «**إنهم- يعني اليهود- لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين**»(١).

ولم يكن قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ لطلب الحق والحكمة في ذلك، ولو كان هدفهم ذلك لبيّن لهم السبب، بأن الله أمر بذلك، وأن الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام والأنبياء بعده، وأول بيوت الله في الأرض، وأعظمها وأفضلها.

وقد سمع النبي ﷺ- كما في حديث قتيلة- مقالة ذلك اليهودي: إنكم تشركون، تقولون: «ما شاء الله، وشئت»، وتقولون: «والكعبة» فأمر ﷺ أصحابه إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة» وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت»(٢)؛ وذلك لأن هذه المقالة حق، وإن كان اليهودي إنما أراد بهذه المقالة عيب الإسلام، وتنقص المسلمين.

وقُدِّم الخبر في قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ لإفادة الحصر، أي: لله وحده المشرق والمغرب، أي: جنس المشرق والمغرب للشمس والقمر وسائر الكواكب.

والمراد أن له- عز وجل- جميع الجهات والأرض كلها؛ لأن الناس يقسِّمون الأرض إلى نصفين شرقية وغربية بحسب مطلع الشمس ومغربها.

وإذا كان عز وجل له جميع الجهات، وله الأرض كلها، فله- عز وجل- أن يوجِّه عباده للصلاة لأي جهة أراد، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، ولهذا قال بعد

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤، ١٣٥) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢). وأخرجه ابن سعد والطبراني وابن منده. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٩٨).

ذلك: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وهداية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهذه عامة، فالله- عز وجل- هاد، والرسل والدعاة إلى الله هُداة بهذا المعنى، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهي أيضاً عامة من وجه آخر، وهو شمولها لكل من بلغته الرسالة؛ لأن الله- عز وجل- أنزل لأجلها الكتب وأرسل الرسل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله- عز وجل- كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

والمراد بالهداية في الآية هنا ما يشمل الهدايتين: هداية الدلالة والإرشاد والبيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: ٣] أي: دللناه وأرشدناه للسبيل وبيناه له، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: بيّنا له طريق الخير وطريق الشر.

وهداية التوفيق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

وحيثما جاءت الهداية مسندة إلى الله فإنها تشمل القسمين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق.

وحيثما أسندت إلى غير الله، فالمراد بها هداية الدلالة والإرشاد فقط.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ «من» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل نصب مفعول «يهدي»، أي: يدل ويوفق الذي يشاء، والمشيئة هي الإرادة الكونية، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الصراط: الطريق المسلوك والسبيل الواضح.

و«المستقيم» في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين، أي: العدل الذي لا اعوجاج

فيه، أي: إلى طريق مسلوك وسبيل واضح، عدل، لا اعوجاج فيه، وهو صراط الله عز وجل، ونكَّره للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

ومعنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يدل، ويوفق الذي يريد من عباده إلى طريق مسلوك، وسبيل واضح، عدل، لا اعوجاج فيه، بهدايته لهم، لأعظم قبلة، وتوفيقهم لمعرفة الحق، والعمل به، للعلم النافع، والعمل الصالح، وفي هذا تنويه بقبلتهم، وإشارة إلى أن الشأن كل الشأن في الإيمان بالله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ الجملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، وبين قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ الآية.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة في هدايته لهم إلى صراط مستقيم، ثم أتبعه بذكر فضله- عز وجل- عليهم بجعلهم أمة وسطاً.

والكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه بمعنى: «مثل»، والإشارة إلى ما سبق، وهو فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة بهدايتهم إلى صراط مستقيم، أي: مثل ما هديناكم إلى صراط مستقيم، كذلك ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

و«جعل» بمعنى صيَّر تنصب مفعولين، الأول ضمير المخاطبين، والثاني «أمة وسطا».

والجعل نوعان: كوني، وشرعي، والمراد به هنا ما يشمل النوعين، أي: جعلناكم كوناً وقدراً، وشرعاً، بما شرعناه لكم من هذا الشرع المطهر ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

و﴿أُمَّةً﴾ أي: جماعة وطائفة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أي: وما من جماعة وطائفة ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وتطلق الأمة على الزمن والمدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]. أي: وادَّكر بعد مدة.

وتطلق على الملة، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣] أي: على ملة وطريقة.

وتطلق على الإمام والقدوة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].

والمراد بالأمة في الآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: أمة الإجابة.

﴿وَسَطًا﴾: عدلاً خياراً، قال ﷺ: «**والوَسَط: العدل**»[(١)]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨] أي: أعدلهم رأياً. قال زهير بن أبي سلمى:

هُمُ وَسَط يرضى الأنام بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل[(٢)]

أي: جعلناكم عدولاً خياراً بين الأمم، دينكم الإسلام، أكمل الأديان، وكتابكم القرآن الكريم، أعظم الكتب، ورسولكم محمد ﷺ أفضل الرسل، وشريعتكم أيسر الشرائع، الحنيفية السمحة، ملة أبيكم إبراهيم، وقبلتكم الكعبة المشرفة، قبلة أبيكم إبراهيم- عليه السلام- أشرف قبلة، وأعظم بقعة، وأول البيوت، وأعظمها حرمة،

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤)- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٣٢٥).

بناها خليل الرحمن إبراهيم- عليه السلام- على اسم الله- عز وجل- وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فامتنَّ الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية بأن جعلهم أمة وسطاً، أي: عدولاً خياراً بين الأمم في كل شيء، فلا هم أهل غلو وإفراط كالنصارى، ولا أهل جفاء وتفريط كاليهود، الذين حرَّفوا كتاب الله وكذَّبوا رسله وقتلوهم، بل هم خير الأمم وأفضلها وأعدلها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ودينهم أكمل الأديان لا يقبل بعده من أحد سواه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكتابهم القرآن الكريم المهيمن على جميع الكتب السماوية، وأكملها وأعظمها وأخلدها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ورسولهم محمد ﷺ خاتم الرسل وأفضلهم وسيدهم، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١).

وشريعتهم أيسر الشرائع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقبلتهم أعظم قبلة، البيت الحرام، قبلة أبيهم إبراهيم- عليه السلام.

---

(١) سبق تخريجه.

قال ابن القيم[١]: «وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة».

وقال السعدي[٢]: «وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور».

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اللام للتعليل، أي: جعلناكم أمة عدولاً خياراً؛ لأجل أن تكونوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

و«شهداء» جمع «شهيد» أي: تشهدون على الناس بأن الرسل بلغتهم رسالات الله، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وذلك بما عندكم من العلم اليقيني بذلك بما جاءكم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بما يقوم مقام المعاينة والمشاهدة.

ولهذا لما قصّ رسول الله ﷺ على الناس حديث الإسراء وكذّبه مَن كذّبه شهد أبوبكر- رضي الله عنه- بصدقه، وقال: «صدقناه في خبر السماء، أفلا نصدقه في خبر الأرض»[٣].

ونحو من هذا، قال خزيمة بن ثابت رضي الله عنه: «لما شهد للنبي ﷺ أنه اشترى الفرس من الأعرابي، فجعل ﷺ شهادته تعدل شهادة رجلين»[٤].

وأيضاً: ليشهد بعضكم على أعمال بعض، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٦٢).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٥٩).

(٣) ذكره السيوطي في «الخصائص الكبرى» (١/ ٣٨٣-٣٨٧) من حديث أنس رضي الله عنه، والبيهقي في الدلائل من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣، ٣٨).

(٤) أخرجه النسائي في البيوع (٤٦٤٧) من حديث عمارة بن خزيمة عن عمه- رضي الله عنه.

قال: مَروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ثم مَروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»(١).

وقد استدلَّ ابن القيم بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة، قال(٢): «ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذه حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها، في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونيَّاتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوّه بهم ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم، والشاهد المقبول عند الله الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]».

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ معطوف على ما سبق و«ال» في الرسول في هذا الموضع والذي بعده للعهد الذهني، أي: ويكون الرسول المعهود محمد ﷺ.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا رسول بعده، أي: رسولكم الذي لا رسول بعده.

﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بأنه بلغكم رسالة ربه البلاغ المبين، وشهيداً عليكم بأعمالكم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال ﷺ في حجة الوداع: «**ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد، ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد، ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد**»(٣).

فأشهد ﷺ ربه- عز وجل- على إقرار أمته له بالبلاغ.

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٧)، ومسلم في الجنائز (٩٤٩)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٢)، والترمذي في الجنائز (١٠٥٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

القرآن» قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: **«إني أحب أن أسمعه من غيري»** فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيت على قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: **«حسبك»** فنظرت إليه، فإذا عيناه تذرفان»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلّغ** ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ **فذلك قوله- جل ذكره:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ **والوسط: العدل»**(٢).

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلّغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك: أن الرسل قد بلّغوا، فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾**»**(٣).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: **«أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالة ربه- عز وجل»**(٤).

كما تشهد الأمة بعضها على بعض، فعن أبي الأسود- رضي الله عنه قال: «قدمت

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠)، وأبوداود في العلم (٣٦٦٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٤).

(٢) أخرجها البخاري في التفسير (٤٤٨٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٩- ٢٥٠)- الأثران (١٣٣٢، ١٣٣٦)

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٧٦).

المدينة، وقد وقع بها مرض، فجلست إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه، فمرت بهم جنازة، فأثني على صاحبها خيراً، فقال عمر- رضي الله عنه: وجبت. ثم مر بأخرى، فأثني على صاحبها خيراً، فقال عمر- رضي الله عنه: وجبت، ثم مر بالثالثة، فأُثني على صاحبها شرًّا، فقال: وجبت. فقال أبوالأسود: فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: **أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة، فقلنا: وثلاثة. قال: وثلاثة. فقلنا: واثنان. قال: واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد**»[1].

وعن أبي بكر بن زهير الثقفي عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار**» قالوا: بِم ذاك يا رسول الله؟ قال: «**بالثناء الحسن، والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض**»[2].

وعن مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله يا رسول الله، لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً، وكان...، وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «**أنت بما تقول؟**» فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال رسول الله ﷺ: «**وجبت**». ثم شهد جنازة في بني حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله، بئس المرء كان، إن كان لَفَظًّا غليظاً، فأثنوا عليه شرًّا. فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «**أنت بالذي تقول؟**» فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال رسول الله ﷺ: «**وجبت**». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٦)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٤)، والترمذي في الجنائز (١٠٥٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد- باب الثناء الحسن (٤٢٢١).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٨)- وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٧٦).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «أتي النبي ﷺ بجنازة يصلي عليها، فقال الناس: نعم الرجل. فقال النبي ﷺ: **«وجبت»**. وأتي بجنازة أخرى، فقال الناس: بئس الرجل. فقال النبي ﷺ: **«وجبت»**. قال أبي بن كعب: ما قولك وجبت؟ فقال: **«قال الله عز وجل:** ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وما بينهما اعتراض.

و«ما» نافية، ﴿جَعَلْنَا﴾ من الجعل الشرعي، أي: وما شرعنا لك التوجه إلى القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس أول أمرك، ثم صرفناك عنها إلى المسجد الحرام.

وفي هذا دلالة على أن استقباله ﷺ بيت المقدس في الصلاة كان بأمر من الله- عز وجل- لتأليف اليهود للإسلام، لكن لم ينجع ذلك فيهم.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها لأي حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ للتعليل، أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ إلا لأجل أن نعلم مَن يتبع الرسول أي: لهذا السبب وحده، أي: إلا لأجل أن نعلم علم ظهور يترتب عليه الجزاء والثواب والعقاب.

وقيل: إن الفعل «نعلم» ضمن معنى «نميّز» كما في قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ «من» موصولة، أي: إلا لنعلم الذي ﴿يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: «من يتبعك»؛ تعظيماً له ﷺ، وتأكيداً لوجوب اتباعه، أي: إلا لأجل أن نعلم من يتأسى بالرسول ﷺ، ويتوجه في الصلاة حيث توجه ﷺ.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ «ممن» مركبة من حرف الجر «مِنْ» و«مَنْ» الموصولة،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٩)- الأثر (١٣٣٤).

أي: من الذي يرجع على عقبيه، أي: يرجع عن دينه، شاكًّا مرتاباً، مكذباً للرسول ﷺ، ولما أنزل الله عليه من الوحي، في تحويل القبلة، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ما فيه من المبالغة في التحذير والتنفير من مخالفة الرسول ﷺ، وهو أشد وأبلغ مما لو قال: (ممن لم يتبع الرسول)؛ لأن المنقلب على عقبيه مع عدم اتباعه، لم يثبت مكانه، بل نكص على عقبيه، ورجع القهقرى، وسار على غير هدى، ومشى على غير بصيرة. وهذا كما قال تعالى في تبكيت وتوبيخ المكذبين المترفين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦].

والمعنى: وما وجهناك أولاً لبيت المقدس، ثم صرفناك إلى الكعبة، لأي سبب من الأسباب، إلا لأجل أن يظهر ويتبين ويتميز الذي يتبع الرسول ويتأسى به، ويتوجه حيث توجه إلى أي قبلة، من الذي يشك ويرتاب، ويرجع على عقبيه كافراً مرتدًّا بأدنى شبهة، فهي امتحان من الله عز وجل للعباد.

والله- عز وجل- يعلم من سيتبع الرسول ﷺ منذ قدّر مقادير الخلق في الأزل، قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة[1]، لكن المراد بالعلم في الآية العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، فهذا بعد أن يظهر ذلك منهم.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ الواو: حالية، و«إن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: وإنها كانت لكبيرة، والضمير يعود إلى واقعة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

واللام في قوله: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ للتوكيد، أي: لعظيمة شديدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي: عظم.

أي: وإن هذه الواقعة عظيمة شاق أمرها على النفوس، وخاصة لأول وهلة، وذلك؛ لاعتيادها التوجه إلى بيت المقدس، ومن طبيعة النفوس إلف ما اعتادت عليه، واستنكار ما يجد ويحدث حتى تألفه وتعتاده.

---

(١) كما في حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- أخرجه مسلم في القدر- حجاج آدم وموسى- عليهما السلام (٢٦٥٣)، والترمذي في القدر (٢١٥٦).

هذا بالنسبة لعامة النفوس، فكيف بأنفس سفهاء اليهود الذين أعماهم البغي والحسد عن قبول الحق، واتخذوا من واقعة تحويل القبلة فرصة لإثارة البلبلة وتشكيك الناس في دينهم، ونجم نفاق المنافقين وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا، ومرة إلى ههنا، وعظمت المحنة، حتى ارتد بعض الناس عن دينهم- حصل هذا كله وأعظم منه- علماً بأنه تقدمت التوطئة والتمهيد لهذا الأمر، وذكر ما سيقول هؤلاء السفهاء.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ «إلا» أداة حصر.

أي: إلا على الذين هداهم الله، أي: وفقهم للانقياد لأمره- عز وجل- وتصديق رسوله ﷺ، فأمر هذه الواقعة يسير عليهم؛ لقوة يقينهم وإيمانهم بالله ورسوله وتسليمهم لأمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

قال ابن كثير[1]: «أي: وإن كانت هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما يشاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًّا، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٧٧).

الله، من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين».

ولهذا فإن من كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وتسليمهم وسرعة انقيادهم، أنه لما جاء أهل مسجد قباء الخبر بتحويل القبلة إلى الكعبة استداروا نحوها وهم في الصلاة.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل، فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة»(١).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما وُجِّه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك، وهم يُصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾»(٢).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقالوا: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ قال: صلاتكم إلى بيت المقدس»(٣).

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» نافية، واللام في قوله: ﴿لِيُضِيعَ﴾ لام الجحود التي تكون بعد كون منفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٩٤)، ومسلم في المساجد (٥٢٦)، والنسائي في الصلاة (٤٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٤)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦٥١). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٠)، وفي التفسير (٤٤٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٨٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦٥١).

والمعنى: أنه لا يمكن أن يضيع الله إيمانكم، فذلك مستحيل ممتنع أشد الامتناع، كقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١]، وتضييع الشيء إهماله، وتركه يذهب سدى.

والمراد بقوله: ﴿إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: إيمانكم بالقبلة الأولى بيت المقدس، وصلاتكم نحوها، وأطلق الإيمان على الصلاة؛ لأنها عمود الإسلام، وأعظم أركانه، وأهم العبادات بعد الشهادتين.

والمعنى: أن إيمانكم بالقبلة الأولى بيت المقدس وصلاتكم نحوها لن يضيع أجره سدى، بل هو محتسب لكم وتؤجرون عليه؛ لأن الصلاة إلى بيت المقدس صحيحة قبل تحويل القبلة إلى الكعبة.

وفي هذا احتراز عن الفهم الخطأ، كما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [النساء: ٩٥، الحديد: ١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي: ليعطينكم أجرهما جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾»(١).

وفي الآية دليل على دخول الأعمال؛ قولية أو فعلية أو قلبية، في مسمى الإيمان- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فالإيمان عندهم قول باللسان واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

كما أن فيها احترازاً من أن يقال، أو يتوهم أن تقدير هذه المحنة بصرف القبلة؛ لأجل إضاعة إيمانهم.

وفيها وعد لهم بحفظ إيمانهم عن الضياع، بل وزيادته وتنميته، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٥٢)- الأثر (١٣٤٨).

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ٦٥].

قوله: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ متعلق بما بعده، وقدم عليه للتنبيه إلى عنايته- عز وجل- بالناس؛ ليشكروه، مع مراعاة الفواصل، والمراد بالناس عموم بني آدم.

﴿لَرَءُوفٌ ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم وخلف: ﴿لَرَؤُفٌ﴾ بحذف الواو بعد الهمزة، وقرأ الباقون بواو بعد الهمزة: ﴿لَرَءُوفٌ ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَرَءُوفٌ ﴾ للتوكيد، فأكدت هذه الجملة بمؤكدين «إن» واللام.

و«رؤوف» على وزن «فعول» أي: ذُو الرأفة التامة العظيمة، والرأفة أخص وأشد من الرحمة، وقُدّم «رؤوف» على «رحيم»؛ لأن «رؤوف» أبلغ، ولمراعاة الفواصل.

﴿رَّحِيمٌ ﴾ على وزن «فعيل» يدل على أنه- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة، رحمة ذاتية، ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فرحمته- عز وجل- لجميع الخلق بما فيهم الكفار والبهائم في الدنيا ما يتمتعون به من نعم الله، من المآكل والمشارب وغير ذلك، فهذا من آثار رحمته عز وجل.

ورحمته لهم في الآخرة العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة

القرناء، كما جاء في الحديث[١].

ورحمته الخاصة بالمؤمنين هدايتهم للصراط المستقيم في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة، فهو- عز وجل- رؤوف رحيم بجميع خلقه- سبحانه وتعالى.

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي، قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيًّا من السبي، أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار، وهي تقدر على ألا تطرحه؟»** قالوا: لا، يا رسول الله. قال: **«فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**[٢].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله- عز وجل- بما لم يكن وما سيكون؛ لقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخبر- عز وجل- بهذا قبل وقوعه، وتحقق ذلك، ووقع كما أخبر عز وجل وفي هذا معجزة للرسول ﷺ ودلالة على صدقه.

٢- تسفيه اليهود وذمهم، حيث عرفوا الحق وتركوه، واعترضوا على حكم الله- عز وجل- بالأمر بالتوجه إلى الكعبة، والانصراف عن بيت المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفي هذا دفاع عن الحق، وتسلية له ﷺ ولأصحابه، وتقليل من شأن اليهود، ومقالتهم الباطلة.

٣- أن من أشد أنواع السفه: السفه في الدين، برد الحق والاعتراض على حكم الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: الذين بلغوا من السفه غايته.

٤- استغلال اليهود وأهل الريب والنفاق حادثة تحويل القبلة للتشكيك في رسالة النبي ﷺ، والكيد له ولدعوته.

وهكذا دَأْبُ أهل الزيغ والنفاق، في كل زمان ومكان، ينتهزون الفرص للكيد

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤).

وقال تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي: من الأتباع والضعفاء، أي: إذ تبرأ المتبوعون من أهل الضلال من أتباعهم وتخلوا عنهم وأنكروهم، وتنصلوا من وعدهم لهم بالشفاعة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ معطوفة على: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، أو حالية، أي: في حال رؤيتهم العذاب، وضمير الواو في «رأوا» عائد على الفريقين، المتبوعين والأتباع.

أي: وشاهدوا العذاب، وأبصروه بأعينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٣، ٦٤].

﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ معطوفة على ما قبلها، أو حال، والضمير المجرور في ﴿بِهِمُ﴾ عائد إلى الفريقين، والباء للملابسة، أو للسببية أو بمعنى «عن».

والأسباب: جمع سبب، وهو ما يتوصل به إلى غيره، أي: وتقطعت بهم العلائق والصلات والمودات التي كانت بينهم في الدنيا لغير الله، والحيل وأسباب الخلاص

التي يؤملونها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [فاطر: ٤٠- ٤٢].

قال ابن القيم[1]: «وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غايتها، وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل»[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: قال الأتباع المضلَّلون.

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «لو» هنا للتمني، أي: ليت لنا كرة.

والكرة: الرجعة، أي: ليت لنا رجعة وعودة إلى الدنيا نحن وإياهم.

﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ الفاء: للسببية، «ونتبرأ»: مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء:١٠٢]، والمعنى: فنتخلى عنهم، وعن عبادتهم إذا رجعنا إلى الدنيا، ونعبد الله وحده، وهم في هذا كاذبون.

﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ الكاف للتشبيه، بمعنى «مثل» صفة لمصدر محذوف، أي: تبرؤ مثل تبرئهم منا، أي: مثل ما تبرءوا منا وتخلوا عنا في الآخرة فنجازيهم بمثل صنيعهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٧٤).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٩١).

وهيهات وأنى لهم الرجوع إلى الدنيا!

وأيضاً فإنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ الكاف كسابقتها للتشبيه بمعنى «مثل». والإشارة بـ «ذلك» إلى إراءتهم العذاب وتلك الأهوال، والتقدير: مثل إراءتهم الأهوال يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم.

﴿يُرِيهِمُ﴾ من «أرى يُري»؛ لهذا نصبت ثلاثة مفاعيل، الأول: الضمير «هم»، والثاني: «أعمالهم»، والثالث: «حسرات»، وهذا على اعتبار الرؤية علمية، وعلى اعتبار الرؤية بصرية وهو أقرب يكون ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ منصوباً على الحال من أعمالهم.

و﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع حسرة، وهي شدة الندم والأسى والحزن، لما مُنوا به من حبوط أعمالهم والخيبة والخسران، فلا تكاد تتصور مدى ما يعتلج في صدور هؤلاء الأتباع من الحسرات والندم والحزن والأسى والآهات على أعمال اجتهدوا فيها تحبط وتبطل وتذهب سدى، ويعترفون بما كانوا عليه من الضلال بعد فوات الأوان، ويقولون كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

ويحتمل عود الضمير في قولهم: ﴿يُرِيهِمُ﴾ إلى الفريقين المتبوعين والأتباع لاجتماعهم في الكفر والضلال كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

وهذا بخلاف من كانوا أتباعاً على الحق ومحبتهم في الله ولله فإنها تبقى ولا تزول، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال الشاعر:

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

وقال الآخر:

وإذا تقطع حبل الوصل بينهم ... فللمحبين حبل غير منقطع

وإن تصدع شمل القوم بينهم ... فللمحبين شمل غير منصدع[1]

وقال الآخر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دوماً لأول منزل

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أنهم خالدون فيها؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا يموت أهلها، وفي هذا تيئيس لهم من الرجعة إلى الدنيا كما يتمنون.

الفوائد والأحكام:

١- عظم خلق السموات والأرض وما في ذلك من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيته، وكمال قدرته وحكمته ورحمته.

وأن السموات والأرض مخلوقة بعد العدم، وليست بأزلية- كما يزعم الفلاسفة القائلون بقدم الأفلاك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) انظر: «روضة المحبين» ص٢٨٠ .

٢- أن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، واختلاف أحوالهما ظلمةً وضياءً وطولاً وقصراً، وسكناً ومعاشاً، وغير ذلك، واختلاف الأحوال فيهما من حر إلى برد، ومن عز إلى ذل، ومن شدة إلى رخاء ونحو ذلك وعكسه وغير ذلك، في ذلك كله آيات دالة على عظمة الله ووحدانيته وقدرته وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

٣- أن في الفلك والسفن التي تجري في البحر بتسخير الله بما ينفع الناس، من حملهم وحمل أمتعتهم وأقواتهم آيات عظيمة دالة على عظمة الله ووحدانيته وحكمته ورحمته وكمال قدرته.

إذ كيف تجري هذه السفن العظيمة على الماء، وكيف لا تغرق في لجج البحار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

٤- أن في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها، وما بث فيها من كل أنواع الدواب آيات عظيمة تدل على عظمة الخالق ووحدانيته وحكمته وسعة رحمته، وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

٥- أن في تصريف الرياح وتغيير توجهها من جهة إلى أخرى وما يترتب على ذلك من منافع أو مضار، وفي تكوين السحاب وتسخيره بين السماء والأرض آيات عظيمة تدل على قدرة الله تعالى التامة، ووحدانيته وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦- إنما يتأمل في مخلوقات الله ﷻ الكونية من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الآيات المذكورة وغيرها ويتفكر فيها، ويستدل بها على عظمة الخالق ووحدانيته، وتمام قدرته وقوته، وكمال حكمته، وسعة رحمته ذوو العقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: الذين تهديهم عقولهم إلى التأمل في آيات الله والتفكر فيها.

٧- الحث والترغيب في التدبر والتفكر في آيات الله ﷻ ومخلوقاته في هذا الكون العظيم؛ لأن الله ذكر أن هذا من صفات ذوي العقول.

٨- يؤخذ من مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، التعريض بالذين لا يعقلون ولا يتفكرون في آيات الله ولا ينتفعون بها، والرد على المشركين والدهريين.

٩- ذم المشركين باتخاذهم- جهلاً وسفهاً- من دون الله أنداداً يحبونهم كحبهم لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن محبة الله تعالى من العبادة، بل محبة الله تعالى وتعظيمه هي أساس العبادة، فبالمحبة يفعل المأمور، وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ ولهذا جعل الله ﷻ من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى كمن اتخذ من دون الله أنداداً وشركاء.

١١- محبة المؤمنين لله تعالى أشد من محبة المشركين للأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

١٢- أن في ازدياد إيمان العبد زيادة محبته لله تعالى، كما أن في شدة محبته لله تعالى دلالة على قوة إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

١٣- وجوب تقديم محبة الله ﷻ على جميع المحبوبات؛ لأن الله ذم من أحبوا الأنداد كحب الله ووصفهم بالشرك والظلم.

١٤- أن من جعل لله نداً في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ وأظلم الظلم الشرك بالله- تعالى.

١٥- إثبات البعث والجزاء، ورؤية الظالمين للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

١٦- أن القوة جميعاً لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والمخلوق وإن كان له قوة فليست بشيء بالنسبة لقوة الله ﷻ،وأيضاً فإن قوة المخلوق إنما هي من الله ﷻ.

١٧- شدة عذاب الله تعالى للمشركين الظالمين ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٨- التحذير من بطش الله وعذابه، لأنه ﷻ ذو القوة التامة، شديد العذاب.

١٩- براءة المتبوعين بالباطل من أتباعهم وتخليهم عنهم في أشد المواقف يوم القيامة؛

لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، وفي هذا من الألم المعنوي لقلوب هؤلاء الأتباع والأسى والحسرة وخيبة الأمل ما لا يتصور.

٢٠- أن كل سبب ترجى به النجاة فهو منقطع يوم القيامة إلا ما شرعه الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

٢١- بلاغة القرآن الكريم في الإشارة إلى ما عليه هؤلاء الأتباع في ذلك اليوم بعد أن تقطعت بهم أسباب النجاة التي يؤملونها من شدة الحيرة وتيقن الهلاك وسوء المصير.

٢٢- تمني الأتباع على الباطل الرجوع إلى الدنيا؛ ليتبرؤوا من متبوعيهم، كما تبرؤوا منهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك؛ لأن الرجوع إلى الدنيا غير ممكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾.

٢٣- عقوبة الله تعالى لهؤلاء المذكورين بجعل أعمالهم حسرات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٤- خلود المشركين في النار من الأتباع والمتبوعين خلوداً أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

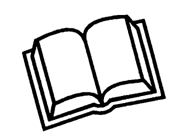
٢٥- إثبات النار، وأنها مآل الكفار، لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وكما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الآية: ١٦٩]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الآية: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

* * *

فهرس الموضوعات

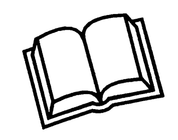
* * *



مفكرة



✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍



مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958